الإسلام ضد الحداثة

فرغان أزيهاري



الإسلام ضد الحداثة

بقلم

فرغان أزيهاري

فرغان أزيهاري كاتب مقالات وكاتب عمود في مجلة فيغارو وقناة فرانس إنفو التلفزيونية. حصل على جائزة تورغو للمواهب الشابة عن مقالته "علماء البيئة ضد الحداثة" (2021، لا سيتي).

إلى ضحايا الإسلام والقمع السياسي الديني

المحتويات

مقدمة

تحرير الشرق من الاستعمار

تتشكل الأقدار ببطء، ولا أحد يعلم من بين كل أفعالنا التي نزرعها عشوائيًا، أيها سينبت ليزدهر كالأشجار. موريس دروون، الملوك الملعونون: "يشهد الله، خلال إقامتي [في فرنسا]، أحزنني أنهم ينعمون هناك بكل ما تفتقر إليه الممالك الإسلامية"، هكذا رثى الكاتب المصري رفاعة الطهطاوي، وقد انبهر بروعة موطن موليير في مقابل حال العالم الإسلامي1 أي صرخة كان سيطلقها أمام

المأساة التي تُديمها المجتمعات الإسلامية؟ فالإسلام، الذي وُلد قبل أربعة عشر قرنًا في أوج الحضارة،2 يضم اليوم عددًا غير متناسب من الأنظمة المتخلفة. "يبدو أن دين محمد [...] يُدين بالعبودية الأبدية، والغباء المُستعصي، كل هذه المساحة الشاسعة من الأرض التي بسط عليها إمبراطوريته"، هكذا حكم الفيلسوف كوندورسيه، الذي تتردد كلماته بدقة مُرّة. بينما تغرق المجتمعات الإسلامية في العنف والظلام اللذين تغلبت عليهما أمم كثيرة، يتساهل العالم مع هذه الآفات المستشرية في الشرق، متجاهلاً أصولها، ومفضلاً كبش فداء باليًا. يصرح الرئيس التركي أردوغان قائلاً: "لقد بُني تقدم الغرب على الدماء والدموع والمجازر والإبادة الجماعية والاستغلال"، وكأن تاريخ الإسلام كان نهرًا هادئًا قبل اصطدامه بأوروبا الحديثة4 إن الخرافة القائلة بأن القارة العجوز وحدها هي التي أغرقت أفريقيا والشرق في هذا "الليل الاستعماري" الذي ندد به الجزائري فرحات عباس، لا تُقنع إلا السذج الذين ظنوا أن المجتمعات التقليدية "مهذبة، أخوية، تعاونية، أو ديمقراطية"، على حد تعبير إيمي سيزير

الكاذب5 لم تنتظر هذه الدول وصول بونابرت إلى مصر لتصبح مرتعًا للغزاة وتجار الرقيق والطغاة، الذين لم تكن أيديهم ألطف من أيدي الكفار. لا يمكن الاحتفاء بخلافة سوكوتو، ولا بالإمبراطوريات العثمانية والمغولية والتوكولورية والوسولوية والكونغية والأشانتية، ولا بأوقاف البربر، ولا بدولة المهدية، ولا بإمامة فوتا جالون، ولا بسلطنات واداي والمغرب وزنجبار وجزر القمر، وغيرها من الأنظمة التي هزمها الأوروبيون، كنماذج للإنسانية. فكما هو الحال مع الأتراك الذين استولوا على القسطنطينية، وهددوا فيينا مرتين، ولا يزالون يحتلون قبرص، فمن المنطقي التشكيك في أن هذه القوى كانت ستكتفي بزراعة أراضيها سلميًا لو أنها أطلقت الثورة الصناعية. يُحب نشطاء حقوق السكان الأصليين الساخطون، وأنصار العالم الثالث التائبون، إدانة الغرب، المذنب، صحيح، بالجرائم التي تولدها كل هيمنة. لكنهم لا يريدوننا أن نصدق أن عالمنا كان سيكون أكثر تحضرًا لو أن المحرك البخاري وقع في أيدي المجتمعات الإسلامية منذ البداية. كانت هذه الأمم، التي هُزمت على يد أمم أقوى، غارقةً في الظلم الذي ينسج

نسيج المأساة الإنسانية. وللأسف الشديد لأتباع روسو، لا يوجد شعب بريء في كل مكان ودائمًا. إن سقوط المشيخات التقليدية لا يستدعي البكاء، حتى لو فضل المرء أن يحدث بسلاسة، من قِبل المتضررين بشكل مباشر، تمامًا كما قد يتمنى المرء أن يتلاشى النظام القديم الأوروبي دون اضطرابات نابليونية، ليحل محله "انفتاح الأسواق على التجارة وانفتاح العقول على الأفكار". ولكن بينما احتضنت أوروبا مُثل الثورة الفرنسية، واستيقظت أجزاء من آسيا على فوائد الحداثة، ظل المسلمون - مع قلة من المعارضين - مقاومين للإنسانية التي ولدت من العالم اليوناني الروماني الذي عاشوا بجواره، حتى أنهم استهلكوها. إن تاريخ العالم الإسلامي يتميز بضياع فرص التعرف على أرقى ثقافات جيرانه، كما لو أن لعنةً قد حكمت عليه بالعمى. بعد ستين عامًا من الاستعمار الذي كان بإمكان الإسلام أن يستغل موارده فيه استغلالًا أفضل، بات الإسلام مُستسلمًا للنكسات التي ألحقها به أبناؤه: ملايين المسلمين يفرون من أوطانهم، حيث يسود دينهم، ليذوقوا ثمار الغرب المُنحل. هؤلاء المرتدون غير الواعين يتحدّون القاعدة

القديمة التي تُحرّم العيش بين غير المؤمنين. "ليس للمسلم عذر أمام الله في البقاء في مدينة غير مؤمنة إلا إذا كان عابر سبيل"، هكذا تذمّر الرحالة العربي ابن جبير في العصور الوسطى من أبناء دينه الذين فضّلوا العيش تحت حكم الصليبيين7 إن ازدواجية الإسلام ليست بجديدة. فالشرق لا يُعالج أمراضه بالحلول الصحيحة. إنه غارق في الخرافات والتعصب العقيم، إن لم يكن يستورد أسوأ ما في أوروبا، مثل تلك المدن الفاسدة ذات اللونين الأحمر والبني في القرن العشرين. فهل الشرق، إذن، ميؤوس منه؟ كتب جول فيري، الذي كان يرى أن الديمقراطية الليبرالية قضية خاسرة في هذه الأراضي القريبة من موطنه: "إنّ الغرور بأن المرء سيحوّل الحكومات الشرقية البربرية إلى حكومات على النمط الغربي هو وهمٌ زائف وخطير"8 لا يستطيع كاتب هذه السطور أن يستسلم لفكرة بقاء العالم الذي أتى منه أجداده غارقًا في الانحلال التام. ولذلك، سيحتفل باليوم الذي يتحدى فيه الشرق هذه التوقعات؛ عندما تتنافس باكستان مع كندا على لقب بطل حقوق الأقليات؛ عندما يدين كتّاب الافتتاحيات

الفرنسيون تجاوزات الحركة النسوية في أفغانستان؛ عندما تغرق الجزائر بطلبات التأشيرة؛ عندما يصبح السودان ملاذًا للفنون والآداب؛ عندما تحتج سويسرا على هجرة مواهبها ورأس مالها إلى موريتانيا؛ عندما تطلب مايوت ضمها إلى جزر القمر للاستفادة من ثرواتها؛ عندما تلقي إيران محاضرة على أمريكا حول تحفظها تجاه من يسيئون إلى دينها؛ عندما يسخر المغرب العربي من إسرائيل متباهيًا باستضافة عدد من اليهود الميسورين يفوق بمئة ضعف عدد المواطنين العرب داخل حدود الدولة اليهودية. لكنّه يشعر بالصدمة حين يرى أن هذا اليوم ما زال بعيدًا، وأن الظروف غير مواتية لقدومه، وأن الخرافات الدموية تحظى بتأييد المسلمين في اللحظات النادرة التي يُتاح لهم فيها الإدلاء بأصواتهم. والأسوأ من ذلك، أن الإسلام، غير مكتفٍ بتدمير الشرق وتحويل مهد الحضارة إلى قبرها، يُصدّر الظلامية إلى مجتمعات استغرقت قرونًا لتتحرر منها. ففي أوروبا، تُعيد الجاليات المسلمة إحياء العادات التي فرّ منها أسلافها، ومن خلال إيمانها، تُشوّه الصرح الذي بُني بعد تضحيات جسيمة، والذي ضحّى من

أجله الكثير من المنفيين بأرواحهم. يقول الكاتب الإسباني أرتورو بيريز ريفيرتي: "تعاني شريحة من المهاجرين المسلمين في أوروبا من رهاب المكان الذي يعيشون فيه". وقد أكّد ماركس أن التاريخ يُعيد نفسه أولًا كمأساة، ثم كمهزلة. والضغط الذي يمارسه الإسلام على الغرب يُذكّر بالتغيير البطيء، قبل زوال، للحضارات اليونانية الرومانية والشرقية القديمة في أعقاب التوسع الإسلامي. إن تراخي الأوروبيين أمام هذا التعتيم الفكري أمرٌ مروعٌ للغاية. فقد تنبأ الكاتب والمناضل أندريه مالرو، مُشبهًا إياه بالشمولية السوفيتية، قائلًا: "إن الظاهرة الكبرى في عصرنا هي عنف الموجة الإسلامية"، مُستنكرًا في الوقت نفسه ميلنا إلى الاستهانة بها. يُعمي النسيان الديني الأوروبيين، فيُقللون من شأن خطر الإسلام، إذ لا يتوقعون أن يبقى السكان الأصليون على حالهم، مُتحجرين في بيئة متخلفة، لإشباع تعطشٍ مُحتقرٍ للغرابة. لقد محوا من ذاكرتهم الحقبة التي كان الدين يُملي فيها كل جانب من جوانب الحياة، ويرفضون تصديق أن المتدينين قادرون على تدمير مجتمعاتنا. يُغْنِسُ الغربيون، المُغْرَمون براحة الرخاء والحريات الحديثة،

هذه النعم باعتبارها هباتٍ سماويةً خالدة. ينسون ضراوة الصراعات الماضية لانتزاعها من براثن الخرافات والثيوقراطيين. من ينسى حين صرّح مونتسكيو بوضوح أن "الدين الإسلامي، الذي لا يتحدث إلا عن السيف، لا يزال يمارس على الناس تلك الروح التدميرية التي أسسها"؟ إن الاستخفاف الذي أبداه الفلاسفة تجاه أخطر الأديان يجعل الناشطين القوميين والعلمانيين المعاصرين يبدون معتدلين للغاية. تُهدئ مجتمعاتنا نفسها بكلمات ماركس، الذي يرى أن الدين ليس إلا "تنهيدة المخلوق المضطهد"، لا عويل الظالم. لكن التاريخ حافل بالشعوب المتحررة تحت راية الحكمة: فالمعتقدات السخيفة ليست هي الحلول الوحيدة للمحن التي واجهتها جميع الشعوب المزدهرة. لا يزال من الضروري تدمير البقايا البربرية والخرافات الأخرى "التي تُدين الأمم المستعبدة والخرافية بالدناءة والجهل". إن "إسلام التنوير" هذا، الذي يُكثر رواة قصصنا من الحديث عنه، ليس إلا وهماً كالستالينية ذات الوجه الإنساني. رغم تأييد نشطاء شجعان لهذا المشروع، إلا أنه يُولي الخرافات أهمية مفرطة، مُضلِّلاً المسلمين عن

الحقيقة: فكما هو الحال في العديد من الأديان، رسالة الإسلام ليست من صنع إله، بل من صنع مُزوِّرين عاشوا بين أواخر العصور القديمة والعصور الوسطى، في جوار شبه الجزيرة العربية. "إن اللغويات والتاريخ النقدي وفقه اللغة وعلم الآثار كلها مجالات تُناقض الفكرة الدينية القائلة بأن القرآن نصٌّ كاملٌ وإلهي". فلنستمع لنصيحة الكاتب بوعلام صنصال ولنُودِع هذه الأوثان في المتاحف. لم يكن الشرق دائمًا مسلمًا. من الأجدر به أن يُدرك الكارثة التي أحدثها ظهور أتباع محمد، الذين انتزعوه من عوالم أكثر رقيًا. بتحرُّره من خداع من وصفه ديدرو بأنه "أعظم عدوٍّ واجهه العقل البشري على الإطلاق"، لن يُقدِّم خدمةً للعالم أجمع فحسب، بل سيُحقق السلام الحقيقي الذي تتوق إليه المجتمعات. لذا، يكفي إعادة الآلهة والأنبياء الزائفين إلى الكوابيس التي انبثقوا منها.

١ عالم الأمس: ذاكرة شرقي.

النسيان، بل والخطأ التاريخي، عامل أساسي في نشأة أي أمة. يقول إرنست رينان: "يدين السكان الأصليون بالديانة المسيحية [...]. ويستخدمون نفس الأسماء الأولى التي نستخدمها؛ للرجال: جون، وبيتر، وأندرو؛ وللنساء: مريم على وجه الخصوص"، كما ذكر المستكشف البرتغالي جواو دي كاسترو عام 1541، أمام بقايا المسيحية المندثرة، والتي اختفت منذ ذلك الحين، والتي اكتشفها جنوب اليمن والجزيرة العربية، في جزيرة سقطرى. وجودٌ غير مألوف في نظر عامة الناس، ضحايا هذا الخلط الرهيب بين العرب والمسلمين. كتب المستشرق هاميلتون ألكسندر روسكين جيب: "العرب هم كل أولئك الذين يعتبرون رسالة محمد وذكرى الإمبراطورية العربية الحدث المحوري في التاريخ، والذين يعتزون، علاوة على ذلك، باللغة العربية وتراثها الثقافي كملكية مشتركة لهم"، وكأن شعوب شبه الجزيرة العربية لم تكن موجودة قبل محمد،

وأنها كانت تنتظره ليوقظها من سباتها التاريخي. دأبت الكتابات الإسلامية على تحريف التاريخ العربي لإقناع الناس بأن الإسلام بُشِّر به للأمم المتخلفة. ومن هنا تنشأ متلازمة ستوكهولم التي يعاني منها العالم أسير: "كان الإسلام هو الدافع الحيوي الذي كشف للعرب الإمكانيات والقوى الكامنة فيهم"، كما يقول المفكر السوري ميشيل عفلق، أحد رموز الاشتراكية والقومية العربية، رغم ولادته في عائلة مسيحية ودراسته في جامعة السوربون. تعيد هذه الروايات تدوير الدعاية الإسلامية التي تساوي بين الشرق ما قبل الإسلام والجاهلية: عصر من الهمجية والتخلف. يُشبه الشرق القديم بالنسبة للإسلام ما تُشبهه أفريقيا التقليدية بالنسبة لفيكتور هوغو: منطقة بلا تاريخ. لاحظ المؤرخ هنري لامنس أن روايات التراث الإسلامي يمكن اعتبارها واحدة من أعظم "الخدع التاريخية المسجلة في السجلات الأدبية". تُشبه الأساطير الإسلامية الجزيرة العربية القديمة بـ"عالم معزول تمامًا تقريبًا، بذرة صلبة نقية وسط تربة فاسدة، ستنبت منها شجرة العالم الإسلامي العظيمة".وداعًا للجزيرة العربية السعيدة التي أحبها بليني

الأكبر، المفعمة بالعطور والثروات، بمنشآتها المائية، وسدودها، وقنواتها، وزراعتها المروية، وموانئها، وأسواقها، ومنحوتاتها التي تُخلّد ثروة تجارها، وصناعة اللؤلؤ الشهيرة، وتجارتها مع العالم المتوسطي والإمبراطوريات العظيمة، ومدنها المُزينة بالمعابد والقصور الفخمة، وثرائها الذي أثار جشع أول إمبراطور روماني، حتى أنه شنّ حملة عسكرية مُنيت بالفشل الذريع. 8 يروي الجغرافي سترابو في القرن الأول الميلادي: لقد فكّر في التفاوض على تحالف مع العرب أو إخضاعهم بالقوة. لكنّ سببًا آخر دفعه لذلك: فقد سمع مديحًا لثروة هؤلاء القوم، الذين كانوا يتاجرون بعطورهم وأحجارهم الكريمة مقابل ذهب وفضة الأمم الأخرى، دون أن ينفقوا أو يبيعوا شيئًا إلا ما حصلوا عليه مقابل ذلك. لذلك، كان لديه كل الأسباب ليأمل في أن يجد في العرب إما أصدقاء أثرياء قادرين على مساعدته بكنوزهم، أو أعداء أثرياء يسهل هزيمتهم ونهبهم9 ومع ذلك، فقد استعمرت الافتراءات التي شوهت شبه الجزيرة العربية المخيلة الجماعية بقوة إقناعها. ألم ينسب نابليون، من أعماق الجزيرة التي نُفي إليها، إلى محمد الفضل في تحضير

هؤلاء العرب المتوحشين الوثنيين؟ «لقد كان يخاطب شعوبًا متوحشة فقيرة، تفتقر إلى كل شيء، وجاهلة تمامًا». لو أنه خاطب أرواحهم، لما سُمع صوته10 لا تخفي هذه الخرافة الاستعمارية فقط الانتحالات التي ارتكبها الإسلام للحفاظ على أسطورة الوحي المعجز الذي ظهر من العدم11 إنها تقتل للمرة الثانية ملتقى الحضارات هذا، الذي دُفن مجده وذكراه تحت الصحراء. والدليل على ذلك هو أنهم لا يُلهمون أي إنتاج أدبي أو سينمائي مماثل لما يُدين، عبر المحيط الأطلسي، تدمير عالم السكان الأصليين لأمريكا على يد الرجل الأبيض. ١٢. وقد تأمل عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستروس، من مناطقه الاستوائية الكئيبة، ١٣ قائلاً: "لقد أزعجني الإسلام بالفعل بموقفه من التاريخ المتناقض مع موقفنا، والمتناقض في ذاته: فحرصه على ترسيخ التقاليد يصاحبه شهية مدمرة لجميع التقاليد السابقة". وبفضل الأستاذ الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد ونقده للاستشراق المليء بالأخطاء وأكاذيب الإغفال والاتهامات التشهيرية، ١٤ أصبح من الشائع ازدراء أولئك الأوروبيين الذين يُزعم أنهم قصفوا المجتمعات

الإسلامية بصور نمطية مهينة لغرض وحيد هو استعبادهم. ١٥ ولكن ماذا عن أولئك الذين، بتواضع أكبر، ألقوا بالحضارات الرائعة التي حلوا محلها في مزبلة التاريخ؟ «أتحدث عن مجتمعاتٍ أُفرغت من ذاتها، وثقافاتٍ دُست بالأقدام، وأراضٍ صودرت، وأديانٍ قُتلت، وروعةٍ فنيةٍ أُبيدت، وإمكانياتٍ استثنائيةٍ قُمعت»، هكذا رثى الشاعر إيمي سيزير آثار الاستعمار الأوروبي في كل ركنٍ من أركان العالم16 أما سجل الإسلام فهو أشد فظاعةً. حفاري قبور الشرق. أثناء تجواله في اليونان العثمانية خلال عصر التنوير، ذُهل الدبلوماسي الفرنسي شوازول-غوفييه من لامبالاة الأتراك ببقايا الحضارة التي سحقوها تحت وطأتهم، والتي مزقت أنينها قلوب المستنيرين: «بدا لي أن رؤية هذا الكم الهائل من الروائع الثمينة كان كفيلاً بأن يجعل أشد الأيدي وحشيةً تُلقي أسلحتها، ويفتح أغبى العيون على الإعجاب». 17. على الرغم من إقامة المسلمين بين آثار فيدياس، وغيرها من العجائب، إلا أنهم لم يتأثروا بتاريخ الأمم التي ورثت هذه الآثار الرائعة. هذا ما لاحظه شاتوبريان، الذي تعرض لسخرية أحد العلماء خلال رحلته إلى أرض

أرسطو: "لم يستطع هذا التركي أن يفهم أنني تركت وطني بدافع الفضول فحسب". وبينما أشاد فيكتور هوغو، رغم كونه غير مؤمن، بقصر الحمراء في غرناطة واصفًا إياه بأنه "القصر الذي زيّنه العباقرة بالذهب كالحلم وملأوه بالتناغم"، فإن مدينة البتراء النبطية ومعابدها الرائعة المنحوتة في الحجر، والتي كشف عنها للعالم الفنان السويسري يوهان لودفيغ بوركهارت، ولا معبد إيزيس وشارعه ذو الأعمدة، ولا أي من هذه المواقع الأثرية وغيرها من الجواهر المنتشرة على سواحل شمال إفريقيا، لم تُحرّك في هؤلاء المسلمين الذين عاشوا معهم لأكثر من ألف عام. كانت أنظارهم مفتونة بمكة لدرجة أنهم تجاهلوا التراث المدفون تحت أقدامهم، تاركين مهمة اكتشافه لغير المسلمين، كما حدث مع الهيروغليفية التي انتظرت حتى وصول الفرنسي جان فرانسوا شامبليون ليتم فك رموزها في القرن التاسع عشر. وقد لاحظ المستشرق الأمريكي برنارد لويس: "عندما بدأ علماء المصريات الأوروبيون الأوائل، وغيرهم من علماء الآثار، بالتنقيب في الشرق الأدنى، استغرب كثير من السكان المحليين موافقة

الأجانب على إنفاق كل هذا الوقت والجهد والمال، وتحمل كل هذه المخاطر، ومواجهة كل هذه المصاعب، فقط لاكتشاف وفك رموز الآثار القديمة لأجدادهم المنسيين". إن فتور حماس المسلمين تجاه علم الآثار والعالم ما قبل الإسلام يُعدّ من تلك المصائب التي تُشير إلى أن محمدًا لم ينتصر في ساحة المعركة فحسب، بل انتصر أيضًا في حرب الذاكرة بعد عملية تطهير ثقافي واسعة النطاق، طمست جذور الشعوب المغلوبة. وكما قيل إن من اعتنق الإسلام أصبح تركيًا، مع أن الأتراك أنفسهم اعتنقوا جميع الأديان العالمية قبل أن يقعوا تحت وطأة الإسلام، فقد ظل الوعي الشعبي "يُؤمن بأن العربي الأصيل، المخلص لأصوله، هو قبل كل شيء العربي المسلم"، كما يشير المستشرق ماكسيم رودنسون. وبسبب هذا التحيز، نسي هذا الوعي أن "التاريخ عرف العرق العربي منذ تسعة وعشرين قرنًا، وأنه على مدى خمسة عشر قرنًا اتبع الوثنية واليهودية والزرادشتية، وخاصة المسيحية". حتى في فرنسا، حيث يثير التعصب الطائفي الشكوك، أدى واجب تكريم رعايا الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية الذين

حاربوا خلال الحرب العالمية الأولى - متحدّين دعوة العثمانيين للحرب المقدسة ضد فرنسا وحلفائها - إلى بناء مسجد في قلب الحي اللاتيني، وكأنه تذكير بمآسي الماضي، حين استسلمت الإمبراطورية الرومانية لجحافل محمد في أفريقيا والشرق: "نريد أن يعيد المسلمون اكتشاف الأشكال التي أسرت أعينهم في وطنهم، صور حضارتهم العريقة التي امتدت لألف عام، المليئة بالروعة والغموض، الحماسية والجدية، المتألقة والمتأملة"، هكذا هتف محافظ السين عند افتتاح هذا المبنى الذي أصبح مع مرور الوقت طابورًا خامسًا للدكتاتورية الجزائرية24 يُنسب المواطن إلى وضعه كمسلم، بينما كان من الممكن تكريمه كعضو في أي طائفة أخرى جديرة بالاحترام. لا أحد يعترض على المأساة التي تجعل الشرق الموطن الطبيعي والأبدي للإسلام، بينما لا تثير ثقافات الشعوب المنهوبة والمدفونة والمحرمة، التي سقطوا تحت نيره، الحزن الذي تستحقه. يا له من انتصار مدوٍّ لحفاري قبور الشرق! إلى أن يأتي اليوم الذي يستعيد فيه الشرق ذاكرته. سينهض أهله، وقد سئموا من قيود النسيان، ليتواصلوا مع العصر

الذي كانت فيه أراضيهم تفوح برائحة البخور والمعرفة، حين كانت مدنهم تنبض بعظمة لا مثيل لها. سيتذكرون، بقلوب مثقلة بالحنين، ذلك الزمن الذي احتفت فيه غزة، المزينة بكرومها الوارفة، في إحدى المخطوطات اليونانية بأنها "مدينة متميزة تملك كل شيء بوفرة، وتصدّر أجود أنواع النبيذ إلى جميع أنحاء سوريا ومصر". سيتذكرون مدارس هذه المدينة، التي كانت تعجّ بأصوات الخطباء، حيث غلبت براعة الكلام على فنّ الهلاك تحت راية حماس، وحيث تعلّم التلاميذ صياغة خطابات أشدّ حدّة من السيوف. سيستحضرون صور وصيدا، جوهرتي البحر الأبيض المتوسط اللتين صُبغت فيهما أردية الأباطرة بأرجوانهما، وحيث رقصت السفن المحملة بالثروات على أمواج البحر الأبيض المتوسط، قبل أن تُزعزع الصراعات الحديثة شواطئهما. سيعيدون تمثيل هذه المشاهد البيزنطية للضحك مع الممثلين والممثلات الذين سخروا من رجال الدين، وسيشيدون بجرأة النساء البيزنطيات اللواتي غامرن بالخروج من منازلهن لامتلاك متاجر عطور أو ألبان أو ملاهٍ ليلية، بينما خاضت أكثرهن جرأةً غمار التجارة البحرية. في

أحلامهم، سيرى اليمنيون من جديد حقول الأعشاب العطرية وروائح البخور التي كانت فخر أراضيهم، قبل أن يرفع الحوثيون راياتهم المشؤومة وتحل صواريخهم محل تلك الروائح المقدسة. ستُبعث بيروت في ذاكرتهم من جديد كمنارة للقانون، حيث صقل فقهاء القانون الرومان عقولهم قبل أن تصبح المدينة، تحت سيطرة حزب الله، مجرد ظل لماضيها. سيرثيون تدمر، بمسارحها الضخمة التي دوّت فيها أشد المآسي، حيث كان أبناء الطبقة الأرستقراطية يتلون حكايات إيسوب بجانب التماثيل الرخامية، قبل أن يأتي ظلام داعش ليدنس حجارتها. مصر، مهد الحكمة، ستعود في قصصهم حارسة مكتبة الإسكندرية، ذلك الملاذ الذي تلاقت فيه معارف العالم، قبل أن يُساق محمد مرسي، زعيم جماعة الإخوان المسلمين، إلى هناك عبر صناديق الاقتراع. سيتذكرون بفخر العرب الذين أنجبوا لروما أباطرة وإمبراطورات، مثل فيليب العربي وجوليا دومنا. وسينشدون عن الجزيرة العربية القديمة، مهد الممالك اليهودية والمسيحية، وحلفاء إثيوبيا وفارس وبيزنطة، حيث أبهر جستنيان بشجاعة أريثاس، فرفعه إلى رتبة

الفيلق. وسيعود الأنباط ليُحيوا رؤاهم، بقوافلهم المحملة بالمرّ ومدنهم المنحوتة من الصخر، حيث نافست العمارة الشعر. وسيتذكرون قطر موطن إسحاق النينوي، القديس الذي بشّر بالرحمة لجميع المخلوقات في عالمٍ بدا فيه التعاطف ممكنًا. وستحلّ مدرجات أثينا، حيث تصادم الخطيب العربي كالينيكوس مع منافسه ومواطنه جينيثليوس، محل مكة في قلوب الحجاج. وكذلك ستبقى كثبان النقب، حيث كانت تُهمس أبيات فرجيل بينما تتردد حكم إبيقور في شوارع أفاميا. في قلب هذه أفريقيا، التي وصفها الشاعر جوفينال بأنها أمّ أكثر الفقهاء بلاغة، ستتردد قرطاج في ذاكرتهم من جديد كملتقى لألمع شعراء وموسيقيي وفلاسفة الحضارة اللاتينية، حيث ناقشوا، من أكروبوليس بيرسا وساحتها المهيبة، دروس شيشرون، الذي رأى أن الحرية بلا مساواة ليست سوى سراب، قبل أن يخوضوا غمار انتخابات قضاة المستقبل. سيتذكرون تمقاد في الجزائر، حيث أنعم السيناتور ماركوس يوليوس كوينتيانوس فلافيوس روغاتيانوس، في بادرة سخاء، على المدينة بمكتبة رائعة، ملاذًا للنفوس المتعطشة للمعرفة، وفي الوقت

نفسه نافست المدن الأفريقية الأخرى في تشييد أجمل المعالم. ستعود أنطاكية، التي أطلق عليها ليبانيوس اسم "أثينا الشرق"، إلى الحياة من جديد. قصصهم أشبه بسوق للأفكار والعجائب، حيث كانت تتدفق الحرير والتوابل وأجود البضائع في العالم. سيحتفون بمافيا، الملكة العربية الكاثوليكية التي دافعت عن الأرثوذكسية ضد الإمبراطور الآريوسي فالنس، قبل أن تُهبّ لنجدة القسطنطينية ضد القوط، حين كانوا مجرد وثنيين متخلفين. سيرون الملك أبرهة يُكلّف الحرفيين البيزنطيين ببناء كاتدرائية رائعة على شواطئ الجزيرة العربية. سيسمعون مديح عبديسوا المرو، المطران الذي بشّر باعتناق مئتي ألف تركي للمسيحية، وأحودمة، رجل الدين الذي حمل البشارة إلى القبائل العربية. سيتذكرون التنوخيين، أولئك المقاومين الشرسين لجحافل محمد، والغساسنة، الذين كان بلاطهم، المُزيّن بالآس والياسمين، يتردد فيه صدى الأغاني اليونانية، بينما كان ملوكهم، المُحاطون بأوانٍ من الذهب والفضة مليئة بالعنبر والمسك، مُنتشين بالشعر. سيُبعث يوبا الثاني، ملك البربر المُتشبّع بالثقافة اليونانية اللاتينية، في

حكاياتهم كعالمٍ أنار ذكاؤه شواطئ موريتانيا. سيرون من جديد تلاميذ طرابلس الصغار، جالسين في ظلال أشجار الزيتون، يقرؤون قصائد هوميروس، وأصواتهم الرقيقة العالية تحمل الإلياذة إلى السماء. سيكتشفون المدارس التي علّمت أطفالهم قواعد اللغة بنثر ديموستين، بدلاً من المؤسسات القرآنية التي تُلوّث عقولهم. سيحسدون قرى أجدادهم الرومانية، المحاطة بكروم العنب والمزينة بمنازل أنيقة من الطوب وأرضيات فسيفسائية، حيث كانت الجداريات تُجسد أشهر المشاهد التوراتية، قبل أن تبتلعها جحافل محمد. في ذلك اليوم، سيستيقظ الشرق من سباته الطويل، وينعى القرون الضائعة، لكن في دموعه سيشرق أمل التجديد. حينها سيكتشف شعبه الزمن المبارك الذي كانوا فيه مرتبطين بالعالم الهيليني، والذي انفصلوا عنه بعد المصادرة المأساوية التي سهّلتها الأوبئة والكوارث الطبيعية والصراعات التي أضعفت بلاد فارس والإمبراطورية الرومانية. هذه المصادرة نفسها تُشيد بها حماس حين تأمل أن يقضي الإسلام على إسرائيل "كما قضى على ما سبقه"37 أليست هذه النبرة الازدرائية تجاه

الحضارات التي حل محلها الإسلام أوضح دليل على الذهول الذي يُغرق فيه أتباعه؟ في إيران، تشوه الشادورات الوجوه والشوارع، مُشوِّهةً بذلك بلاد فارس التي كانت يومًا موطنًا للكنيسة النسطورية وتعاليم زرادشت المفقودة، حيث احتفت الفسيفساء بالموسيقيات قبل أن يُزجَّ بهن في السجون، بينما تجرأ مُصلحون جريئون مثل مزدك على تحدي عصرهم باقتراح المساواة الاجتماعية لجميع الأحرار.38 إن اسم الجمهورية الإسلامية الإيرانية بحد ذاته يُسيء إلى هذا الماضي المجيد، حيث وجد المسيحيون النسطوريون وأساتذة مدرسة أثينا، الذين طُردوا من قِبل الأرثوذكسية البيزنطية والجستنية، ملاذًا في بلاد فارس، واستفادوا من الحماية التي وفرها الحكام الساسانيون الذين اهتموا بتنمية الفنون والعلوم والفلسفة إلى أعلى مستوياتها،39 حتى أنهم ترجموا العلوم اليونانية إلى لغتهم. وخلافًا للأسطورة التي تُخلِّد فعل كورش الكبير بالسماح لليهود المُرحَّلين إلى بابل بإعادة بناء هيكلهم في وطنهم، فإن الدعوات إلى تدمير إسرائيل الصادرة من طهران تبدو وكأنها تحذير. إنها تُذكِّرنا بأن الحضارة عملية قابلة

للعكس.لعلّ هؤلاء الطلاب المزعومين، طالبان، دمّروا تماثيل بوذا في باميان لإخفاء هذه الحقيقة المقلقة. لا بدّ لهم من طمس التناقض الصارخ بين أفغانستان والأعمال الفنية التي أنتجتها آسيا الوسطى قبل قرون من وصول الإسلام! ما ينقصهم سوى أن يتوافد الأفغان بأعداد غفيرة إلى قرية هادا الصغيرة، ليتأملوا النقوش البارزة التي تصوّر الموسيقيين، ويدركوا الإنجازات التي انبثقت من اندماج البوذية واليونانية، ويتذكروا قراءات سوفوكليس التي جرت في بلدة آي خانوم الصغيرة، قبل أن يصدمهم في النهاية مستوى التدهور الذي وصلت إليه منطقتهم! إنّ جني الزهور والأعمال التي نجت من التعصب الإسلامي بفضل وجودها في متحف الفنون الآسيوية في باريس، تُقدّم، بمجرد وجودها، ردًّا قاطعًا على المسلمين الذين يدّعون أن دينهم قد أنعش الشرق. وينطبق الأمر نفسه على المنحوتات البوذية التي اكتُشفت في منطقة بيشاور بباكستان. سواءً أكانوا يرقصون، أو يتأملون أنفسهم في المرآة، أو يعزفون على آلة الفينا، فإنّ الياكشيني بنظراتهم المتلألئة تدعونا للتساؤل عمّا كانت ستكون عليه

أفغانستان وباكستان والسند وجميع المجتمعات الشرقية لو لم تُطغى الخرافات على الثقافات ما قبل الإسلامية وذاكرتها. لكان الأتراك قد توافدوا على الأدب البوذي، الذي ترجمه ملكهم تاسبر كاغان إلى لغتهم قبل ألف وخمسمائة عام، بينما كان يبني العديد من الأديرة المخصصة لهذه الحكمة41 لكان المغرب العربي من بين أكثر المناطق برلمانيةً وتعليمًا واجتهادًا في العالم. ولأثارت قوة لبنان الاقتصادية حسد السويسريين، الذين كانوا مع ذلك سيسارعون إلى استثمار مدخراتهم هناك لتحفيز أكثر الصناعات ابتكارًا في الشرق الأوسط. ولكان البحر الأبيض المتوسط موحدًا بمنطقة شاسعة من حرية حركة البضائع والخدمات والأفراد ورؤوس الأموال، بدلًا من أن يكون مقبرة جماعية تفصل بين عالمين ينظران إلى بعضهما البعض بريبة. سيتنافس السودانيون مع الإثيوبيين على لقب أقرب حليف لروما في أفريقيا بعد نزاعات مريرة وسوء نية، بدلاً من أن يمزقوا بعضهم بعضاً. وستُحتفى بالبلقان أخيراً كفسيفساء متناغمة، لا كبرميل بارود خطير. وسيتحد الشيشان، مسلحين بأغانيهم الجمهورية، مع الأوكرانيين

لإسقاط دكتاتورية فلاديمير بوتين. وستكون كابول ومعابدها البوذية الضخمة على وشك إزاحة باريس عن عرشها كأكثر الوجهات السياحية شعبية في العالم، بدلاً من أن تستثير شفقة المحسنين. وسيكون اليمن أقل انشغالاً بتخريب التجارة الدولية، وأكثر انشغالاً باستغلال موقعه بذكاء لتحدي وادي السيليكون على لقب مركز التكنولوجيا الرائد في العالم. وستعرض جزر القمر للعالم مدرجات رائعة صممها رحالة عرب وفرس متأثرون بالثقافة اليونانية، من بين عناصر أخرى من فخامتها، بدلاً من المساجد المدمرة التي تقف وسط هذا الأرخبيل القاحل. ستتنافس الهند وباكستان بشكل أقل في ساحة معركة المدفعية، وأكثر في التأمل في مبادئ أشوكا المتسامحة. وبرعاية جدهم ربان صوما، سيدعم الأويغور تايوان في نضالها الديمقراطي ضد الديكتاتورية الصينية. وستكون جامعات الساحل في طليعة مكافحة تغير المناخ وتخضير الصحراء الكبرى، بينما سيضاعف متحف اللوفر جهوده لاستعادة الزوار الذين فقدهم لصالح معارض تمبكتو الفنية. وفي الوقت نفسه، ستتبلور يوتوبيا لويس سيباستيان ميرسييه: الأتراك

واليونانيون، متحدين في ازدرائهم للتعصب، سيصفقون لمسرحية فولتير "محمد"، التي تُعرض تحت قبة آيا صوفيا العلمانية، متصالحين أخيرًا مع عصر التنوير43 إحياء الشرق: هل هي مجرد تناقضات زمنية زائدة؟ «إن إعادة بناء التاريخ، كما لو أنه لم يحدث، أمرٌ عبثيٌّ دائمًا»، هكذا اعترض المؤرخ المغربي عبد الله العروي على المتغطرسين الذين يميلون إلى إلقاء المحاضرات على الشعوب التي يُزعم أنها ضلت طريقها. وباتباع هذا المنطق، لن ننتهي أبدًا من توبيخ شعوب الأرض، لأن كلًّا منها، بطريقة أو بأخرى، قد ارتكب خطأً ما. فلو أعاد مغاربي كتابة تاريخ فرنسا أو إنجلترا من وجهة نظر السلتيين، مُظهِرًا سلبيتهم وعدم أصالتهم، لسخر منه الناس، ومع ذلك، هذا ما يفعله العلماء المتخصصون بإسهاب، متذرعين بالصداقة. 44 ليس هناك ما هو أغبى من هذه النسبية التي تجمع كل الاضطرابات الثقافية التي يسجلها التاريخ في بوتقة واحدة. على الرغم من حب العالم للغاليين الذين خلدهم أوديرزو وغوسيني، لا يجرؤ أحد على إنكار أن رومنة بلاد الغال سمحت لها بالارتقاء بمستوى معيشتها، من خلال تنظيم الكتابة، وإدخال

مسح الأراضي، وغيرها من الابتكارات التي كان البعض يفضل انتشارها سلميًا45 أما من يقول الشيء نفسه عن أسلمة الشرق، فعليه أن يستعين بأمهر محامٍ على وجه الأرض. ولا شيء أوضح من حقيقة أن أتباع محمد صادروا عبقرية الشرق. ولا بد أن يكون المرء عديم الرحمة حتى لا يغضب مما حدث في بلاد ما بين النهرين، حيث شهدت إعادة إحياء الرق الجنسي على يد تنظيم الدولة الإسلامية بعد آلاف السنين من اختراعها الكتابة والزراعة والمدينة وأولى ألواح الشريعة. لا بد أن يكون المرء من حجر حتى لا يبكي على ليبيا، التي دمرها القذافي وميليشياته بعد قرون من إعلان ثيودور القيرواني تشكيكه في جميع الآلهة هناك، بينما قاس مواطنه إراتوستينس محيط الأرض. ولا بد أن يكون المرء ساذجًا إلى حد لا يُطاق ليقبل الجزائر، الغارقة في الاستبداد بعد ألف وخمسمائة عام من إدانة القديس أوغسطين للممالك الظالمة باعتبارها تجمعات هائلة من قطاع الطرق. ولا بد أن يكون المرء مختلًا عقليًا حتى لا يتوق إلى سوريا، حيث شجعت الفسيفساء، قبل آلاف السنين من بشار الأسد والجولاني، المتزوجين حديثًا على

منح أطفالهم هذا التعليم الفلسفي المتجسد في صورة امرأة رشيقة. لا بد أن يكون المرء فاقدًا للذاكرة بشكلٍ إجرامي حتى لا يحزن على هذه الأناضول التي احتلها أردوغان بعد قرون من ولادة أول إدانة عالمية للعبودية، والتي أطلقها غريغوريوس النيصي48 ولا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يتوق إلى عودة غزة، تلك المحافظة التي كان الزاهد إشعياء يحب فيها مناقشة أرسطو مع صديقه إينياس، بعيدًا عن القنابل التي تشوه ذكرى الأديرة المجتهدة 49 كتب باسكال: "لو كان أنف كليوباترا أقصر، لتغير وجه الأرض كله"50 فلنأمل أن يسأل أصدقاؤنا المسلمون أنفسهم بدورهم: كيف كان سيكون عالمنا لو لم يخرج محمد من كهفه؟

٢ أسطورة العصر الذهبي الإسلامي.

تذكر يا كوينتوس أنك تقود اليونانيين الذين حضّروا جميع الشعوب بتعليمهم اللطف والإنسانية، والذين تدين لهم روما بالتنوير الذي تتمتع به.

شيشرون.

كتب شاتوبريان: "لولا شجاعة شارل مارتل، لكنا نرتدي العمائم اليوم". تُنسب أسطورة إلى هذا القائد العسكري الفرنجي إنقاذ أوروبا من المسلمين بعد تدمير إسبانيا القوطية الغربية. يكتب المؤرخ الاسكتلندي إدوارد جيبون: "واصل السراسنة مسيرتهم المظفرة لأكثر من 400 فرسخ، من صخرة جبل طارق إلى ضفاف نهر اللوار، ولو ساروا 400 فرسخ أخرى، لكانوا قد وصلوا إلى حدود بولندا وجبال اسكتلندا [...]. لكانت مدارس أكسفورد اليوم تشرح القرآن، ولأظهرت من منابرها لشعب مختون قدسية وحي محمد وحقيقته". لقد أنقذت عبقرية وثروة رجل واحد العالم المسيحي من هذه الكوارث. لكن يرى البعض أن أهمية معركة بواتييه قد تم تضخيمها على حساب الجبهة الشرقية. ففي بواتييه، لم يواجه الفرنجة سوى مجموعة من الجنود الذين يغيرون على مناطق بعيدة عن حدودهم، على بعد آلاف الكيلومترات من ديارهم. لقد تغلبوا على قوة كانت في الواقع قد بلغت أقصى طاقتها وأنهكت تمامًا. أما المدافعون اليونانيون

عن القسطنطينية، فقد اضطروا لمواجهة نخبة جيوش الخلافة، التي انطلقت من قواعد داخلية في هجوم واسع النطاق على عاصمة العدو. كان حصن أوروبا المنيع ضد الإمبريالية الإسلامية هو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي طواها النسيان، والتي سقطت بعد أحد عشر قرنًا أمام هجمات الأتراك بسبب صراعاتها الداخلية وخيانة القوى الغربية، قبل أن تنهار مرة أخرى تحت وطأة تعليقاتهم الجاحدة. ألم يلخص مونتسكيو ألف عام من التاريخ البيزنطي بأنه "نسيج من الثورات والفتن والخيانة"؟ الإرث المكبوت: صحيح أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت تعاني من عيوب جوهرية. ناهيك عن العادات المشكوك فيها التي ازدهرت هناك، والخلافات حول طبيعة المسيح وحق تصويره، بينما كانت القسطنطينية تتعرض لهجمات المسلمين والبلغار، وهي من بين أكثر الفصول إيلامًا في تاريخها6 ومع ذلك، فإن الصور النمطية المعادية للإمبراطورية البيزنطية تعجز عن إدراك دور هذه الحضارة في الحفاظ على المعرفة القديمة ومساهمتها في ثراء الشرق في عهد الخلفاء الراشدين الأوائل. وينطبق

الأمر نفسه على عصر النهضة، الذي يسارع البعض إلى نسبه إلى الإسلام، دون توضيح سبب عدم نشأته فيه. كتب محمد إقبال، الأب الروحي لباكستان: "الثقافة الأوروبية، على المستوى الفكري، ليست سوى تطور لاحق لبعض أهم مراحل الثقافة الإسلامية". لكن كيف لنا أن نفهم أن لا عصر النهضة، ولا الإصلاح الديني، ولا الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولا عصر التنوير، كان لها أدنى أثر على العالم الإسلامي، الذي لم يلحظها أصلاً؟ يميل من يختلقون القصص إلى نسب إنجازات الحضارات التي احتك بها الإسلام واستوعبها، متجاهلين تألقها قبل وصول المسلمين. وقد أعربت المستشرقة باتريشيا كرون عن أسفها قائلة: "تُدرَّس الحضارة الإسلامية اليوم وتُدرس مع تجاهل شبه تام للشرق الأدنى الذي نشأت فيه". هل يعود ذلك إلى أن صورة أوضح لهذه المنطقة قبل الإسلام من شأنها أن تشوه هيبة الإسلام؟ لاحظ الرحالة الفرنسي فرانسوا مارتان، أثناء إقامته في الهند في القرن السابع عشر، أن "المسلمين لا يحبون أن يُذكر لهم أي جمال إلا ما هو موجود في ديارهم". ومع ذلك، لم

يستولِ الإسلام على صحراء ويزرعها من العدم. إن الوضع الكارثي في الشرق الأدنى الحالي يجعلنا ننسى أن هذه المنطقة كانت قد بلغت مرحلة متقدمة للغاية قبل انتشار الإسلام فيها في القرن السابع الميلادي11 ويشير المؤرخ ريمي براغ إلى أن العلماء والفلاسفة ومؤسسي ديانات العصور القديمة ما بعد الكلاسيكية نادرًا ما كانوا يأتون من اليونان، وأقل منهم من المنطقة التي ستُعرف لاحقًا باسم "أوروبا"، بل كانوا يأتون من مصر ("هرمس الهرامسة"، وبطليموس، وأفلوطين)، ومن سوريا وفينيقيا ("زينون الكيتي"، و"نيميسيوس"، و"بوسيدونيوس"، ويسوع الناصري، ويامبليخوس، وبورفيريوس، وسوريانوس، وداماسكيوس")، ومن الأناضول ("بولس الطرسوسي"، وديوسقوريدس، وجالينوس")، وغيرهم. وفي هذه المنطقة أيضًا وُضعت مبادئ اليهودية والمسيحية: الشريعة اليهودية (الهالاخاه) في "بابل" (العراق) على يد حكماء التلمود، والعقيدة الأرثوذكسية في الإسكندرية أو كبادوكيا على يد الكنيسة. الآباء 12 لم يكن محمد قد وُلد بعد عندما كانت هيباتيا الشابة، التي فاقت موهبتها كفيلسوفة

ورياضية وفلكية موهبته منذ الإسكندرية قبل أن تُقتل على يد مسيحيين متعصبين، بينما كانت جدرانا وصور والعديد من مدن بلاد الشام الأخرى تتألق بجمالٍ أخّاذٍ حتى أن مقابرها، المُزينة بمنحوتات أسطورية، تحدّت ظلام الموت بحملها جمالًا يتجاوز السماوات13 استولى الفاتحون المسلمون من القسطنطينية على "أغنى وأكثر مقاطعات العالم القديم اكتظاظًا بالسكان شرق البحر الأبيض المتوسط"، وهما سوريا ومصر، حيث ازدهرت الفلسفة والعلوم لقرون14 وخضعت بلاد ما بين النهرين، التي اخترعت الزراعة والكتابة وأولى المدن وأقدم القوانين، أي الحضارة، لسيطرتهم. قضى المسلمون على النظام الساساني واستولوا على بلاد فارس، التي كانت قد أصبحت ملاذًا للعلماء الوثنيين والمسيحيين النسطوريين المُغرمين بالثقافة الكلاسيكية، والذين طردتهم القسطنطينية15 ونتيجةً لذلك، توحدت مصر والهلال الخصيب وبلاد فارس وجزء من الهند لأول مرة منذ عهد الإسكندر الأكبر، ولفترة أطول من فترة حكمه، إلى جانب مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية مثل الحيرة وحران ومرو16 ومن خلال

فتوحاتهم، اكتسب المسلمون أيضًا فن صناعة الورق الصيني، وهو تقدم منحهم ميزة حاسمة في حفظ المعرفة ونشرها، وهي ميزة لم تشهدها أوروبا إلا في القرن الثاني عشر! وقد مثّل الاستقرار في مثل هذه الأراضي الخصبة امتيازًا عظيمًا للمسلمين. ومع ذلك، كان من الضروري الاستفادة من ثمارها17 الاستيلاء الثقافي. إدراكًا لقيمة هذه الثمار، وصف المؤرخ الأندلسي الإسلامي سعيد الأندلسي الفلاسفة والعلماء اليونانيين بأنهم "أرفع الرجال مكانةً، وأكثر العلماء احترامًا؛ وذلك لما أبدوه من عناية فائقة في تنمية جميع فروع المعرفة، بما في ذلك الرياضيات والمنطق والفلسفة الطبيعية وعلم الكلام، فضلًا عن العلوم السياسية التي تُعنى بالأسرة والمجتمع ككل". ويروي عن الخليفة المأمون: "كان يسعى وراء العلم أينما وُجد، وبفضل سموّ فكره وقوة عقله، أخرجه من مخابئه. وقد أقام علاقات مع أباطرة بيزنطة، وأغدق عليهم الهدايا الثمينة، وطلب منهم أن يتبرعوا له بالكتب الفلسفية التي بحوزتهم". فأرسل إليه هؤلاء الأباطرة نسخًا من مؤلفات أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس

وبطليموس وغيرهم ممن كانوا يملكون. ثم اختار المأمون مترجمين بارزين وأوكل إليهم مهمة ترجمة هذه الأعمال على أكمل وجه. [...] في ذلك الوقت، كادت الدولة العباسية أن تنافس الإمبراطورية الرومانية في أوج مجدها وقوتها18 وهكذا، على الرغم من الانفتاح الأوسع، فإن العلم العربي "ليس إلا امتدادًا للعلم اليوناني"، كما يذكرنا المستشرقان لويس ماسينيون وروجر أرنالديز، موضحين أنه "من المفهوم أننا عندما نقول العلم العربي، فإننا لا نعني العلم الإسلامي"19 فالعرب والمتحدثون بالعربية الذين أسهموا في ازدهار الأدب والفنون والعلوم لم يكونوا بالضرورة مسلمين.وبالفعل، كان التراث اليوناني هو الذي شكّل "إطار الفكر العلمي" في أولى المجتمعات التي خضعت للحكم الإسلامي20 وبينما غرقت أوروبا في عصور الظلام، وتآكلت الثقافة الكلاسيكية، وضاعت معرفة اللغة اليونانية، استولى المسلمون، منذ بدايات الإسلام، على "أقدم ملتقى للحضارات والشعوب في العالم"، كما يذكرنا المؤرخ فرناند بروديل، الذي يرى أن تاريخ العالم الإسلامي لا يبدأ بدعوة محمد بقدر ما يبدأ

بتاريخ الشرق الأدنى الممتد21 ولذلك، يتساهل المؤرخ غابرييل مارتينيز-غروس إلى حد كبير مع العالم الإسلامي عندما يصف فشله مقارنةً بالغرب، على الرغم من أن "هاتين الحضارتين الشقيقتين كانتا تنطلقان من نفس النقطة في البداية"22 لكن الحقيقة أكثر إدانة. فكما استولى علاء الدين على المصباح السحري، عُرض على المسلمين كنز لا يُقدّر بثمن. كل ما كان عليهم فعله هو جمع الثروات الهائلة المتاحة لهم لتحقيق الازدهار. بفضل إرث استثنائي، امتلكوا أثمن تراث يمكن أن تتصوره البشرية. فماذا فعلوا به؟ كان كل شيء مقدراً للشرق أن يصبح ملاذاً للجمال والحقيقة، ومهداً لأكثر الشعوب رقياً، والتي كانت صناعاتها ومعارفها ستنتشر في أرجاء العالم. كان من المفترض أن يقضي الإسلام على الخرافات، ويطيح بالاستبداد، ويرتقي بالروح الإنسانية إلى آفاق لا مثيل لها. كان العالم الإسلامي، بفضل عظمة تراثه، مقدراً له أن يقود الأمم، متفوقاً على جميع الأمم الأخرى في مجالات الاقتصاد والثقافة والعلوم. يكمن الدليل على التبديد الذي لا يغتفر للشرق في هذا الحنين الجماعي إلى الأزمنة التي ازدهرت فيها الفنون والعلوم

والفلسفة هناك، وكأنما لتأكيد التناقض بين هذا الماضي المجيد وانحداره. "الإسلام ليس منعزلاً تماماً عن النور؛ فقد احتضن في كثير من الأحيان بعض العلوم والفنون. فلماذا لا نسعى إلى تنميتها تحت حكمنا؟" تساءل توكفيل، وهو يشهد انحلال منطقة تقع فريسة للشهوات الأوروبية23 ولكن، مما أثار استياء كل من المتدينين ومحبي الإسلام، فإن مساهمة محمد في ازدهار المجتمعات التي خضعت لحكمه أمرٌ قابل للنقاش تمامًا. أعطِ ما لقيصر لقيصر: هل يمكننا أن نتحدث عن العالم الإسلامي بالإشارة إلى شرق الخلفاء الراشدين الأوائل؟ إذا نظرنا إلى التوسع الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى بشكل عام: نلاحظ أن الفتح الذي بدأ بعد وفاة محمد، والذي استمر حتى منتصف القرن الثامن، كان يهدف إلى إخضاع الأراضي التي كانت تحت سيطرة غير المسلمين للإسلام، وليس أسلمة سكان هذه الأراضي [...]. كان التوسع جغرافيًا وسياسيًا؛ لم يكن الأمر "دينيًا" بالمعنى الذي لم يكن لدى الفاتحين فيه نية للدعوة إلى الإسلام24 خشي الخلفاء الراشدون من اعتناق الشعوب المغلوبة للإسلام: فمن الناحية النظرية، كان

ذلك سيمكنهم من تحقيق المساواة المالية والتهرب من الضرائب الأثقل من تلك المفروضة على المسلمين، مع ما يترتب على ذلك من خطر تقليص إيرادات الفاتحين وامتيازاتهم25 لم يكن امتناع القوى الإسلامية عن اللجوء إلى التحويلات القسرية والجماعية نابعًا من التسامح بقدر ما كان نابعًا من البراغماتية، والشعور بالطبقية، والجشع. في المشرق الأموي، لم يكن المسلمون يشكلون سوى أقلية صغيرة، "فإن تعريب السكان، لا سيما في المناطق الحضرية، لا يعني بالضرورة أسلمتهم"، كما يشير المؤرخ جان بيير فيليو. فغالبية السكان، وخاصة في سوريا، "لا تزال مسيحية، على الرغم من أن فرض ضرائب تمييزية على أهل الكتاب يشكل، على المدى الطويل، حافزًا قويًا للتحول إلى الإسلام."26 كما كتب المؤرخ جون تولان: كانت هذه الخلافات الأموية والعباسية، والتي يطلق عليها خطأً اسم العالم الإسلامي، إمبراطوريات متعددة الأديان والثقافات [...]؛ كان مجتمع الخليفة يتجه نحو الإسلام، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية لقرون لاحقة27 وبينما لا ينكر رودنسون فكرة الحضارة الإسلامية، فإنه يقر

بأنها تحجب حقيقة أن اليهود والمسيحيين لعبوا دورًا هامًا في الإبداعات المرموقة ومعظم السمات الثقافية للمنطقة التي هيمن عليها الإسلام28 بدءًا من الأبجدية العربية، التي يُعتقد أنها وُضعت في أوائل القرن السادس الميلادي بمبادرة من السلطات الدينية أو بمساعدتها لأغراض تبشيرية29 حتى قبل الإسلام، كان المسيحيون واليهود هم من يُعلّمون العرب في المدارس حيث يتعلمون القراءة والكتابة، ومن الحقائق أن الكتابة كانت أكثر انتشارًا في المدينة المنورة، حيث كان اليهود هم معلمي المدارس، مقارنةً بالأجزاء الوثنية من شبه الجزيرة30 وشكّل مسيحيو العراق ثاني أكبر مصدر للكفاءات لشغل المناصب الإدارية خلال القرن الثاني الميلادي. في القرن العباسي، 31 بينما كان أتباع دينهم لا يزالون يشكلون الأغلبية في سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا حتى الحروب الصليبية الأولى. 32 تساءل الكاتب الفرنسي التونسي عبد الوهاب المدب، العدو اللدود للتعصب الذي يسمم ثقافته الأصلية: "أود أن أعيد النظر في مسألة الانحطاط وأن أفهم الفجوة التي تفصل الإسلام المبكر عن الإسلام المعاصر، وأن

أستوعب الأسباب التي أدت من مجده إلى بؤسه". 33 وتشير الباحثة الإسلامية آن ماري ديلكامبر إلى أن المثقفين المسلمين لا يزالون في حالة حزن شديد على اختفاء العصر الذهبي للإسلام، متناسين أن هذا العصر الذهبي لم يكن حكرًا على المسلمين، بل كان نتاجًا للتعددية الثقافية، وللإسهامات الأجنبية من الهند وبلاد فارس والصين، وأنه يمثل هرطقة كاملة فيما يتعلق بالإسلام الأصيل والثقافة الإسلامية. المدينة المنورة. كانت الحضارة الباهرة التي ازدهرت بين القرنين التاسع والثاني عشر في بلاط عواصم كبرى كبغداد والقاهرة وأصفهان وقرطبة، غريبةً إلى حد كبير عن الدين34 ماذا لو كان تألق الإسلام المبكر يكمن أساسًا في ضعفه؟ بالنظر إلى ثقلهم الديموغرافي، كان لإسهام غير المسلمين في ازدهار الفنون والآداب والعلوم في الشرق في عهد الخلفاء الراشدين دورٌ حاسم. فبينما لم يُعلّم صلاح الدين والعرب الأوروبيين كيفية بناء الكاتدرائيات، خلافًا لما زعمه سياسي فرنسي 35 يذكر المؤرخون المسلمون أن الخليفة الوليد سعى جاهدًا إلى طلب مساعدة الحرفيين البيزنطيين لتزيين مساجد دمشق

والمدينة المنورة، بل وهدد القسطنطينية بتدمير الكنائس في بلاد المسلمين إن رفضوا. بعد قرنين من الزمان، أرسل الخليفة الحكم الثاني وفداً إلى الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس، مُكلفاً بإحضار خبير في فن الفسيفساء إلى إسبانيا للإشراف على تزيين مسجد قرطبة36 وفي مجال العلوم، أقر المؤرخ المغربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر بأن المسيحيين الشرقيين كانوا الفاعلين الرئيسيين في نقلها إلى الطبقة الإسلامية الجديدة، حتى وإن أغفل اليهود والصابئة. فقد كان المسلمون، الذين كانوا يتبعون نمط حياة بدائياً، "يتوقون إلى دراسة العلوم الفلسفية، لأنهم سمعوا عنها من الأساقفة والكهنة الذين كانوا يديرون شؤون الشعوب الخاضعة"37 وكان المؤلفون السريان، الذين دأبوا على قراءة وترجمة وشرح الأعمال الفلسفية والعلمية اليونانية، ناقلين للثقافة الهيلينية، وكذلك للثقافة الساسانية، لا سيما في بغداد في القرن التاسع. ألم يكن الفيلسوف الفارابي تلميذًا للراهب النسطوري يوحنا بن حيلان؟ ألم تكن أولى المؤلفات الطبية باللغة العربية من تأليف مسيحيين، هم الذين هيمنوا على الطب

العربي من القرن الثامن إلى القرن العاشر؟ وماذا عن الحركة العظيمة لترجمة العلوم اليونانية إلى العربية التي أكسبت الدولة العباسية شهرة واسعة؟ يرى المستشرق ديمتري جوتاس أن هذه الحركة، التي شارك فيها رعاة مسلمون وغير مسلمين، "تشكل، بكل المقاييس الممكنة، علامة فارقة في تاريخ البشرية"، لدرجة أنها تُضاهي "أثينا في عهد بريكليس، أو إيطاليا في عصر النهضة، أو حتى الثورات العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر". لكن هذه المقارنات ما هي إلا دليل على استشراق ساذج يرى انفتاحًا فكريًا في حين أن التدقيق يستدعي مزيدًا من الحذر. كيف شوّه الإسلام تراث الشرق: لا شيء أبعد عن الحقيقة من الفكرة الشائعة بأن التبادل الثقافي بين الثقافة الإسلامية والحضارة اليونانية كان "عالميًا وعفويًا ودون أي حدود" 41 انصبّ اهتمام علماء المسلمين بالمعرفة القديمة في المقام الأول على العلوم النفعية، متجاهلين الكتابات التاريخية والمسرح والأعمال الأدبية، التي شبّهها اللغوي الإسباني أمريكو كاسترو بأنها "أقصر طريق للدخول في حالة من الحياة الجماعية، في التجربة الحيوية

للوجود، باعتبارها نسيج الحياة وأفق القيم"42 وخلافًا لتأكيد نابليون أن المسلمين ترجموا الإلياذة والأوديسة، لم تُترجم أي أعمال شعرية أو درامية أو تاريخية يونانية بناءً على طلبهم، كما يشير المستشرق الأمريكي فرانز روزنتال. وعلى عكس عصر النهضة، لم يكن للفن اليوناني سحر يُذكر لدى المسلمين بسبب عدم ثقة الأرثوذكس بالرسم والنحت، مما حرم البشرية من أعمال لا حصر لها. أما فيما يخص الفكر السياسي اليوناني، فيذكرنا برنارد لويس بأنه لم يكن له سوى تأثير محدود على العالم الإسلامي: "إن الكتابات السياسية الإسلامية التي تُحلل وفقًا للمبادئ اليونانية هامشية في الإسلام، حيث سادت سلطة القرآن وتقاليد المسلمين الأوائل". فعلى سبيل المثال، لم يتمكن الفيلسوف ابن رشد من الاطلاع على كتاب أرسطو "السياسة"، لأنه لم يُترجم إلى العربية. وكان على الأوروبيين الرجوع إلى بيزنطة للوصول إلى هذا الأدب ذي النطاق الواسع. لم يكن المسلمون ليرغبوا قط في سماع حِكم وتأملات هسيود، وسولون، وكليستينيس، وهيرودوت، وبريكليس، وسقراط، وأرخيلاوس، أو الرواقيين وخلفائهم

48 ولم يكونوا ليدرسوا الفلاسفة والفقهاء الرومان49 وغيرهم من رواد المؤسسات الجمهورية والديمقراطية والليبرالية50 علاوة على ذلك، فإن الترجمات اليونانية العربية، التي يلمس فيها البعض انفتاحًا ملحوظًا، كانت مدفوعةً بقدرٍ من الفضول الجزئي للمعرفة القديمة، بقدر ما كانت مدفوعةً بالازدراء العميق الذي أبداه المسلمون لدعمهم اللغوي. فعلى عكس الشعوب الجرمانية التي دخلت الإمبراطورية الرومانية الغربية واعتمدت لغتها، أو المغول الذين اعتنقوا الإسلام بعد غزو بغداد في القرن الثالث عشر، رفض علماء المسلمين، باستثناءات قليلة، تعلم لغات الثقافة كاليونانية واللاتينية والقبطية والسريانية، على الرغم من وجودها القوي في المناطق التي خضعت لحكمهم. لهذا السبب، كانت الترجمات اليونانية العربية في المقام الأول من عمل المسيحيين، "جميعهم يجيدون ثلاث لغات، يتحدثون العربية في حياتهم اليومية، واليونانية في ثقافتهم الأدبية، والسريانية أو الآرامية في طقوسهم الدينية" 52 والذين سيُكافأون في نهاية المطاف بعد ألف عام بإبادة جماعية منسية53 "معرفة

اللغات هي بوابة الحكمة"، هكذا اعتقد الراهب الفرنسيسكاني البريطاني روجر بيكون، الذي درس بنفسه العربية واليونانية والعبرية في القرن الثالث عشر. وتزداد المقارنة بين مواقف النخب المسلمة والرومانية تجاه التراث اليوناني دلالةً. لم يحتفِ المؤرخون قط بحركة ترجمة عظيمة للأعمال اليونانية إلى اللاتينية في روما: لم يكن هذا المسعى ضروريًا للعلماء الرومان الذين أتقنوا لغة هوميروس بفضل إعجابهم بثقافةٍ كان لديهم من التواضع ما يكفي ليُقدّروها بأنها أكثر رقيًا من ثقافتهم. وقد أقرّ المؤرخ الروماني كوينتيليان في القرن الأول الميلادي قائلًا: "أرى أن الطفل يجب أن يبدأ باللغة اليونانية، لأن اللاتينية أكثر شيوعًا، والعادة تجعلنا نتعلمها، إن صح التعبير، رغماً عنا". ثانيًا، لأن التقاليد تقتضي دراسة اليونانيين أولًا، فهم أسلافنا في جميع العلوم54 وبينما لم يستبدل الرومان اللغة اليونانية باللاتينية في المناطق الناطقة باليونانية التي خضعت لحكمهم، فقد اختفت هذه اللغات مع أسلمة المناطق التي فتحها المسلمون وتراجع قدرة غير المسلمين على إحياء التراث القديم، دون أن يثير هذا التطهير أدنى ندم. من غير اللائق

الاحتفاء بقرنين من الترجمات التي كان من الممكن الإستغناء عنها بتعلم اللغة اليونانية، لا سيما أنها أُنجزت لدفن العالم الهلنستي نهائيًا بعد تشويه أهم عناصره: الأفكار السياسية والقانونية. لكن التاريخ يميل إلى تجاهل ما يندثر ليؤكد على ما يستمر55 وقد استاء البعض من التركيز على دين المترجمين والمفسرين الذين علّموا المسلمين ورفعوا لغتهم إلى مرتبة اللغة العلمية: إذ يُعتبر البُعد الديني غير ذي جدوى لأن المتحدثين باللغة السريانية كانوا ببساطة أكثر قدرة على استخدام اللغة العربية، وهي لغة سامية أخرى 56 وهذا لا يُفسر لماذا لم يتعلم المسلمون اللغة السريانية، ولماذا، بشكل عام، لم يكن حتى المسلمون العرب ذوو التعليم العالي يعرفون سوى اللغة العربية. وتتضح أهمية المعيار الديني في تحديد سمات هؤلاء الناقلين للمعرفة عندما يُشير المستشرق برنارد لويس، فيما يتعلق بالمسلمين، إلى أن: "استخدامهم لخط غير المسلمين كان بمثابة نوع من الكفر، وبالفعل، لم يتعلم سوى القليل منهم لغة أجنبية". كانت اللغات غير الإسلامية مجهولة، باستثناء ما جلبه المتحولون إلى الإسلام [...].

قبل القرن الثامن عشر، لم يسعَ أي عالم مسلم أو أديب إلى تعلم لغة غربية، ناهيك عن تطوير قواعد نحوية أو معجم أو أدوات لغوية أخرى. الترجمات نادرة ومتباعدة. وما نعرفه منها يتعلق بأعمال مختارة لأغراض نفعية، وهي من عمل معتنقي الإسلام أو غير المسلمين57 وقد استند ازدراء لغات وثقافات غير المسلمين إلى قول منسوب إلى محمد، الذي حذر من أن "من شبّه قوماً فهو منهم"، وكأنه يُشير إلى أن على المسلم الصالح أن يزدري مؤسسات غير المسلمين. ويُقال إن شاعر محمد الرسمي أمر قبيلة معتنقة: "لا تُساووا الله، بل أسلموا! ولا تلبسوا زي الأجانب!"58إن هذا الازدراء لعادات وتقاليد غير المسلمين يعكس اللامبالاة المذهلة التي أظهرها المسلمون تجاه رعاياهم وجيرانهم، بما في ذلك أوروبا اللاتينية، وصراعاتها، وتاريخها، وجغرافيتها، ومؤسساتها، وعاداتها، وتكنولوجيتها، وفلسفتها، وأدبها. لا يمكنهم التباهي بأنهم شعروا تجاه الأوروبيين ولو بعُشر الفضول الذي أبداه هؤلاء تجاه الإسلام أو غيره من الحضارات، لدرجة أن الدراسات الأوروبية عن الشرق الأدنى في نهاية القرن الثامن عشر "تجاوزت بكثير

دراسات المسلمين أنفسهم"59 ويؤكد ماكسيم رودنسون أن الشرق الإسلامي "كان أقل فضولًا بكثير تجاه الغرب المسيحي قبل القرن الثامن عشر مما كان عليه الأخير تجاهه"60 الأسطورة الذهبية وخرافة النقل: خلال زيارة دولة إلى المغرب عام 2024، تجرأ الرئيس الفرنسي، الذي وصف الاستعمار الفرنسي للجزائر بأنه جريمة ضد الإنسانية، على الإشادة بإرث الفتح الإسلامي في إسبانيا: "لقد جعلت سنوات الأندلس من إسبانيا وجنوب فرنسا أرضًا خصبة للتبادل مع ثقافتكم"، كما صرّح إيمانويل ماكرون أمام البرلمان المغربي. وهكذا، سيكون هناك إمبريالية جيدة وأخرى سيئة. رغم دحض المتخصصين لها، لاقت أسطورة العالمية الأندلسية رواجًا كبيرًا لدى عامة الناس. ولعلّ أبرز مثال على ذلك المخرج المصري يوسف شاهين وفيلمه "القدر" الذي حاز جائزة في مهرجان كان السينمائي. فقد كرّم شاهين ابن رشد، مُخاطرًا بالمبالغة في تقدير تسامحه وشكوكه، وهو الرجل الذي كتب، بما يتوافق مع قيم عصره، قائلاً: "يجب على الجميع الخضوع للمبادئ الدينية، واتباعها، وعدم التشكيك فيمن يتمسكون بها". فإنكارها

ومناقشتها يُفقد الوجود الإنساني معناه، ولذلك يجب قتل من يخالفها. ٦٢ لم تكتفِ الأندلس الإسلامية بنفي ابن رشد، بل قلّصت عدد الكفار، الذين كانوا يشكلون الأغلبية، إلى مجرد عناصر متبقية، قبل أن يستسلموا لتعصب المرابطين والموحدين: «كان أمام اليهود والمسيحيين خياران: إما اعتناق الإسلام أو الموت. فاعتنق بعضهم الإسلام، وقُتل الباقون»، كما يروي المؤرخ ابن أثير عن دخول الخليفة الموحدي عبد المؤمن إلى تونس. ٦٣ وقد واصل عبد المؤمن العمل الصارم للمصلح البربري ابن تومارت، الذي لم يكن ليطيق وجود النساء في الأماكن العامة، تمامًا كما لم يكن ليطيق وجود الآلات الموسيقية، التي حظرها في نهاية المطاف. ٦٤ وبممارسة شكل ممنهج من النسيان التاريخي، يُخفي المؤرخون المسلمون في إسبانيا السكان الأصليين في صمتٍ مُهين: «لذلك، فإن المكانة المخصصة للشعوب المهزومة ضئيلة، ومقتصرة على بضع شخصيات من زمن الفتح، شهود على حقبةٍ ولّت»، كما يكتب المؤرخ. سيريل أيليه65 شكّلوا "مجتمعًا منسيًا" منذ القرن الحادي عشر فصاعدًا، بينما اندثرت الأدبيات اللاتينية

في القرن التاسع. وبعيدًا عن أسطورة الحوار بين الثقافات، شعر مسلمو الأندلس بلامبالاة تامة تجاه الممالك المسيحية في الشمال، التي شكّلت مع ذلك تهديدًا لهم منذ القرن الحادي عشر فصاعدًا66 تشير البيانات إلى أنه "كانت هناك فرص قليلة للقاءات بين العلماء المسيحيين والمثقفين المسلمين في الأندلس خلال عهد ابن رشد"67 بعد عودتها إلى الحكم اللاتيني عام 1085 في نهاية الاسترداد الإسباني، أصبحت طليطلة مركزًا رئيسيًا لنقل المعرفة اليونانية العربية والإسلامية إلى أوروبا. ولكن، على عكس ما يوحي به أنصار "نقل" العلوم العربية، لا توجد رغبة واضحة بين المسلمين في جلب العلوم إلى الأوروبيين الذين يغرقون في الجهل، على غرار المعهد المصري الذي تأسس في نهاية في القرن الثامن عشر، قام هؤلاء الفرنسيون، الذين وصفهم العالم العربي الجبرتي بأنهم "سعدوا للغاية برؤية زائر مسلم يهتم بالعلوم"68 كانت ترجمات المعارف التي احتُجزت في العالم الإسلامي إبان الاسترداد الإسباني نتاجًا حصريًا لمبادرة أوروبية، ونُفذت، مرة أخرى، عبر وسيط من اليهود والمسيحيين الناطقين

بالعربية، الأمر الذي أثار استياء قاضي إشبيلية ابن عبدون، الذي أدان بيع المخطوطات العلمية لغير المسلمين. صرخ العالم الإنجليزي دانيال من مورلي في القرن الثاني عشر، ساعيًا إلى إزالة حواجز المعرفة: "فلنُجرّد إذًا، امتثالًا لأمر الرب وبعونه، الفلاسفة الوثنيين من حكمتهم وبلاغتهم، ولنُجرّد هؤلاء الكفار من غنائمهم لنُثري ديننا بها". في الكوريا الرومانية، كان رجال الدين المتعلمون باللغة العربية حاضرين منذ القرن الثاني عشر. عاد أديلارد من باث من إقامته في سوريا متقنًا للغة العربية. اكتشفت أوروبا اللاتينية القرآن الكريم في القرن الثاني عشر بفضل بطرس المبجل، رئيس دير كلوني، على الرغم من حظر تعلم غير المسلمين للنص المقدس للمسلمين بموجب ما يُسمى بميثاق عمر، خشية أن يتعلم الكفار انتقاد العقيدة الإسلامية71 وأصبح إنشاء مراكز لتعليم علماء اللغة العربية شاغلًا للفرنسيسكان والدومينيكان والبابوية منذ القرن الثالث عشر فصاعدًا. يعود تاريخ أول معجم لاتيني-عربي إلى القرن الثاني عشر، وقد بدأه أوروبيون. كان أحد أوائل الكتب المطبوعة في إنجلترا عام 1477 عبارة عن

مجموعة من اقتباسات الحكماء مترجمة إلى لغات مختلفة من أصل عربي72 بينما أُنشئ كرسي للغة العربية في باريس عام 1529 ثم في كامبريدج عام 1633. كما ظهرت موجة من الهوس باليونان بين الأوروبيين، مما دفعهم إلى تبني ثقافة كاملة التراث التاريخي والفلسفي والفني والسياسي الذي احتفظ به البيزنطيون، والذي ظلت بعض عناصره مجهولة للمسلمين73 أسطورة الثقافة المنفتحة. لم تظهر مثل هذه المبادرة في العالم الإسلامي، الذي "لم يبدُ مهتمًا بالغرب، وثقافته اللاتينية، ولغاته العامية، ولاهوته، ومعرفته الفكرية أو التقنية"74 بالنسبة للمؤرخ أوليفييه هان، كان لدى المسلمين "ثقة مفرطة في العلوم المنبثقة من بغداد وفي اللغة العربية، باعتبارها وسيلة مثالية للإله، ثابتة في كمالها، بحيث لم يهتموا بالنصوص المكتوبة باللاتينية، وهي لغة عرضة للتطور والتحريف". على النقيض من ذلك، استخدم المسيحي العربي الأندلسي حفص بن البار كتابات القديس بولس وواجب المسيحيين في نشر الإنجيل بجميع لغات العالم كذريعة للتغلب على تردد أبناء دينه تجاه التعددية اللغوية75 في

سوريا، "طوال الحروب الصليبية، رفض العرب الانفتاح على أفكار الغرب [...]". في الواقع، تعلم العديد من الفرنجة اللغة العربية، بينما ظل سكان البلاد، باستثناء قلة من المسيحيين، غير متأثرين باللغات الغربية، كما يشير الكاتب اللبناني الفرنسي أمين معلوف، الأمين الدائم الحالي للأكاديمية الفرنسية. ويعزو معلوف هذا الانغلاق الفكري إلى وضع الاستعمار الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه76 دون أن يوضح لماذا لم يتبنَّ غير المسلمين، الذين تعرضوا للهيمنة الإسلامية، الموقف نفسه، بل تخلوا عن تقاليدهم الأصلية في مناطق عديدة. وقد رثى ألفارو قرطبة، في منتصف القرن التاسع تقريبًا، في رسالة شهيرة، قائلاً: "لقد نسي المسيحيون لغتهم، ومن بين ألف منا، بالكاد تجد من يعرف كيف يكتب رسالة لاتينية سليمة إلى صديق"77 وفي مصر، أعرب الأسقف ساويرس الأشموني، في القرن العاشر، عن أسفه لاضطراره إلى ترجمة أعماله، بصعوبة بالغة، من اليونانية والقبطية إلى العربية بسبب تراجع هاتين اللغتين الأصليتين78 وفي المغرب العربي الشرقي، يُشهد على استخدام اللغة اللاتينية في استُخدمت النقوش حتى القرن

الحادي عشر في القيروان، ثم حلت محلها اللغة العربية في نهاية المطاف، دون أن يرى المسلمون ضرورةً لتبني الأدب اللاتيني والروماني. قضى الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا على الثقافة المسيحية في أواخر العصور القديمة. وهكذا، اختفت المجتمعات المسيحية المحلية، ورثة التقاليد ما قبل الإسلامية، في المغرب العربي في بداية القرن الثاني عشر79 كانت شبه القارة الهندية، التي سكنها في السابق الهندوس إلى جانب البوذيين والجاينيين والمسيحيين وبعض اليهود، بالإضافة إلى الفرس أو الزرادشتيين الذين فروا من بلاد فارس بعد أسلمتها، تشهد مع وصول المسلمين حركة تحول ديني تقلل التيارات الإسلامية من شأنها، مفضلةً أسطورة أن مسلمي الهند مهاجرون80 دقّت سلالة الغوريين المسلمين ناقوس الخطر على البوذية المتراجعة في الهند، مهدها، من خلال نهب جامعتي نالاندا وفيكراماشيلا81 وشهدت أفغانستان، وهي مركز آخر للبوذية، تراجعها مع تقدم الإسلام. اختفت تحت حكم الغزنويين82 لقد دُست العديد من الثقافات تحت أقدامهم خلال هذا العصر الذهبي الإسلامي المجيد! في

أفريقيا جنوب الصحراء، انهارت النوبة المسيحية، التي تأسست في القرن السادس، بعد تسعمائة عام، بسبب ضعفها نتيجة لتدخل العناصر العربية والإسلامية. في مصر في القرن الرابع عشر، أدى التدهور الوحشي للوضع القبطي إلى تدمير عدد كبير من الكنائس والأديرة، وشكّل انعكاسًا نهائيًا للنسبة العددية بين المسيحيين والمسلمين83 في الأناضول، تخلى السكان عن هويتهم اليونانية المسيحية، بعد أن أضعفهم انهيار المؤسسات البيزنطية عقب الفتوحات التركية، حتى اكتملت أسلمة آسيا الصغرى عمليًا بحلول القرن الخامس عشر. ونتيجة لذلك، اعتقد العديد من الأتراك أنهم ينحدرون من الفاتحين الذين استولوا على الأناضول من اليونانيين84 في البلقان تحت الحكم العثماني، حدثت غالبية عمليات التحول إلى الإسلام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. قرون.85 لكن من جانبهم، ظل الأتراك غير مبالين بمساحات شاسعة من الثقافة الأوروبية حتى القرن الثامن عشر: تظاهرت الإمبراطورية العثمانية بتجاهل أوروبا الغربية، التي اعتبرتها بعيدة وغير ضارة، وخالية من الجاذبية بقدر ما هي خالية

من الاهتمام، وبالكاد تستحق الاهتمام. وبحكم حكمهم لعالم شاسع ومتنوع، واقتناعهم بأنهم مركز الكون، لم يتخيل العثمانيون أن يضطروا إلى الاهتمام بقارة ذات أهمية ضئيلة كهذه. ومع ذلك، إذا احتاجوا إلى معرفة بعض حقائق أرض الكفار، فإن مصادرهم المعتادة - التجار اليهود والمسيحيون اليونانيون في الإمبراطورية، والمنشقون، أو الدبلوماسيون الأجانب المتمركزون في إسطنبول - لم تكن كافية لإرضائهم. لم تُعتبر اللغات الأوروبية، لكثرتها وازدرائها باعتبارها لهجات بربرية، ولا تاريخ أو جغرافية الدول الغربية جديرة بالاهتمام [...]. لم يُبدَ أي فضول تجاه الحياة السياسية أو الاجتماعية لسكان "أرض الفرنجة" [...]، ولا اهتمام بعاداتهم وتقاليدهم. 86 وهذا كان هذا صحيحًا حتى عندما كانت التطورات الأوروبية واضحة، كما نقرأ في كتابات ابن خلدون في القرن الرابع عشر: "سمعنا مؤخرًا أن العلوم الفلسفية تزدهر في بلاد الفرنجة، أي في أرض روما وتوابعها على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، وأن مؤلفاتهم تُعاد إحياؤها، وأن جلسات الدراسة أكثر تواترًا، وأن المجالس أكثر تفاهمًا، وأن

المترجمين كثيرون، والطلاب كثر."87 لم يمنع هذا الأتراك من تفويت الثورات الإنسانية والعلمية والتكنولوجية التي ستندلع في القارة التي توغلوا فيها حتى القرن العشرين. استُخدمت الطباعة، التي أشار إليها رئيس أساقفة ماينز بيرتولد في القرن الخامس عشر باسم "فن الطباعة الإلهي"، على التوالي من عام 1493 و1567 و1627، من قبل يهود سالونيك وأرمن القسطنطينية واليونانيين، وقد تجنبها المسلمون حتى القرن الثامن عشر88 المستشرق ألبرت يشير حوراني إلى أن كوبرنيكوس لم يُذكر في الكتابات العثمانية قبل القرن السابع عشر، وحتى حينها لم يُذكر إلا عرضًا. 89. "أرسطو، الذي تُحبونه كثيرًا، لم يعد رائجًا. الآن، تهيمن أفكار فرنسي يُدعى ديكارت أفندي على جميع الأفكار"، كتب نديم هوجا، سكرتير محمد جلبي، السفير المُرسل إلى باريس، إلى إمام السلطان العثماني عام 1730، بعد قرن تقريبًا من نشر كتاب "مقال في المنهج". 90. يُضعف هذا أطروحة إيمانويل تيكسييه، التي ترى أن الاهتمام بالثقافات الأجنبية "لا يُمكن تصوره عمومًا إلا في حالة الهيمنة، عندما تكون أسس المرء راسخة بما

يكفي ليظهر الآخر كموضوع دراسة ممتع وغريب". 91. استمرار التعصب الطائفي. لم ينتهِ هذا التعصب الطائفي من إحداث الفوضى، إذا صدّقنا هذا التقرير الذي نشره مثقفون عرب برعاية الأمم المتحدة عام 2002، والذي استنكر ترجمة العالم العربي لخمسة أضعاف عدد الكتب التي ترجمتها اليونان إلى اليونانية، وأن عدد الكتب التي ترجمها العرب في القرون الاثني عشر الماضية يُعادل ما تُترجمه إسبانيا اليوم في عام واحد. ويؤكد الباحث الهولندي رود كوبمانز، استنادًا إلى بيانات اليونسكو، أنه بين عامي 1979 و2014، تُرجم ما يقارب 41 ألف كتاب إلى العربية والتركية والفارسية والإندونيسية، أي إلى اللغات الأربع الأكثر أهمية في العالم الإسلامي التي يتحدث بها أكثر من 500 مليون شخص. وبالمقارنة، تُرجم ما يزيد قليلًا عن 300 ألف عنوان إلى الألمانية و111 ألفًا إلى الهولندية خلال الفترة نفسها. وقد ترجم خمسة ملايين فنلندي كتبًا أكثر مما ترجمه نصف مليار مسلم. تُرجم 28 ألف كتاب إلى اللغة الكورية، و13 ألفًا إلى اللغة العربية، على الرغم من أن اللغة العربية أكثر انتشارًا من اللغة الكورية93 وقد سلط

إدوارد سعيد الضوء على هذه الكراهية الثقافية للأجانب قائلًا: "ما يثير استغرابنا هو أنه في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، توجد عشرات المراكز لدراسة الشرق العربي الإسلامي، بينما لا توجد في الشرق مؤسسة متخصصة في دراسة الولايات المتحدة، التي لها تأثير حاسم على اقتصاد المنطقة وسياستها."94 ومن اللافت للنظر أن فضول أوروبا تجاه المسلمين لم يكن دائمًا موضع تقدير من جانبهم. كتب الدبلوماسي التركي فاسيف أفندي، في القرن الثامن عشر، عند اكتشافه وجود مخطوطات قرآنية وقانونية ولاهوتية إسلامية في حوزة غير المسلمين في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا: "لقد تأثرنا بشدة وحزننا"، بدلاً من تقدير قيمتها لثقافته95 لذا، ينبغي توخي الحذر عند النظر في تصريحات إدغار مورين، الذي يُشيد، إلى جانب الإسلامي طارق رمضان، بما يُفترض أنه "تقليد الانفتاح والتسامح96" للإسلام ما قبل الحداثة، على أساس أن الأقلية المسلمة لم تُبيد الأغلبية غير المسلمة فور وقوعها تحت حكمها، أو أن السلاطين العثمانيين أظهروا براغماتية افتقدها الأوروبيون طويلاً في تعاملهم مع اليهود

المطرودين من القارة العجوز97 يبدو أن هذه الأسطورة المثالية مصممة لمواساتنا على الثورات التي لم يشهدها الإسلام. وقضية المرأة ليست بمنأى عن هذه الرواية المُعاد صياغتها.يتناقض نموذج المرأة المتحررة الذي يصوّره المخرج يوسف شاهين في فيلمه "الأندلس المسلمة" تناقضًا صارخًا مع قول ابن رشد: "لا يسمح لنا نظامنا الاجتماعي برؤية ما يمكن أن تفعله النساء لأنفسهن. يبدو أنهن مُقدّرات حصريًا للإنجاب والرضاعة. لقد قضت حالة العبودية هذه على قدرتهن على تحقيق إنجازات عظيمة. ولهذا السبب لا نرى بيننا امرأة واحدة تتمتع بالفضائل الأخلاقية: حياتهن تمر كحياة النباتات، في خدمة أزواجهن. هذا هو مصدر البؤس الذي ينهش مدننا، علمًا بأن عدد النساء يفوق عدد الرجال بتسعة وتسعين ضعفًا." تتضح أهمية هذه المظالم عند النظر إلى آراء المسلمين والمسيحيين على التوالي بشأن وضع المرأة في بلادهم المنافسة خلال العصور الوسطى. في سوريا، يتناقض استغراب الحاج الألماني من هؤلاء النساء المسلمات النبيلات اللواتي "يُحرسن حراسة مشددة من قبل الخصيان ولا يغادرن منازلهن

إلا بأمر من أزواجهن". مع دهشة المسلمين من هؤلاء النساء الأوروبيات اللواتي يتحركن بحرية تامة، بل ويتحدثن بحرية مع رجال آخرين غير أزواجهن. وقد استغرب الأمير السوري أسامة بن منقذ هذا السلوك المنحل: فإذا كانت إحداهن تسير في الشارع مع زوجته والتقت برجل آخر أخذها جانبًا ليتحدث معها على انفراد، تنحى الزوج جانبًا وانتظر حتى ينتهي الحديث؛ فإن طال، ترك زوجته مع رفيقها وانصرف. ١٠٠. عندما سافر ابن بطوطة إلى أفريقيا، لم يتردد في الاستنكار من قلة النساء المسلمات اللواتي قابلهن وهن يتحدثن مع الرجال دون حجاب، لكنه تطرق عرضًا إلى معاملة النساء الزانيات في إحدى الدول الآسيوية، التي تقع في مكان ما في بورما الحالية: ١٠١: يأمر السلطان جميع خدمه باغتصابها واحدة تلو الأخرى، أمامه، حتى تموت، ثم تُلقى في البحر. ١٠٢. منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، باتت حالة الفجور التي تعيشها النساء غير المسلمات فكرة شائعة بين المراقبين المسلمين، الذين يبدو أنهم ينزعجون من أدنى بادرة حرية، إن صحّ التعبير عن هذه الحالة بوصف وضع المرأة

في العصور ما قبل الحديثة. وصف المفكر العربي الجاحظ نساء بيزنطة بأنهن الأكثر جرأة في العالم لعدم ختانهن103 بينما أبدى الفيلسوف عبد الجبار دهشته من أن "نساء بيزنطة لا يرتدين الحجاب، وبعد الزواج يمشين بين الناس في السوق ورؤوسهن ووجوههن مكشوفة، مُظهراتٍ كل جمالهن"، دون أن يتهمهن بالسماح لأنفسهن بممارسة الزنا خارج إطار الزواج قبل مغادرة منزل العائلة104 ووصف أول سفير عثماني إلى باريس في عهد الإدارة، السيد علي أفندي، زيارته لمكتبة المدرسة المركزية في ليون قائلاً: "إنها مكان مضاء جيدًا، يتألف من جناحين طويلين [...]. ولأن المكان كان يشغله نساء، لم نمكث هناك طويلًا". بفحصه لعادات البلاد، يرى أن التقدير والاحترام اللذين يُكنّهما الفرنسيون للمرأة أمرٌ استثنائي: فحتى لو دخلت امرأة من أصول متواضعة مجلسًا يضم نبلاء ومسؤولين رفيعي المستوى، ينهض رئيس المجلس، ويُفسح لها مكانه، وينحني لها، ثم يُجلسها ويبقى واقفًا 105 وضع حدٍّ لـ"أزمة الإسلام": صرّح إيمانويل ماكرون في 2 أكتوبر/تشرين الأول 2020 قائلًا: "الإسلام دينٌ يمرّ بأزمة اليوم، في جميع

أنحاء العالم"، مما أثار غضب العالم الإسلامي الذي لا يزال يرفض التساؤل عن نفسه106 إلا أن هذه الفكرة الشائعة تنطوي على نقطة ضعف. فالأزمة التي تلي فترة التنوير - هذا الوهم - تُثني العالم الإسلامي عن إخضاع جذوره للفحص النقدي وعن تتبّع الانتكاسات التي حدثت مع توسّعه. بغض النظر عن تمجيد محمد، فمن المثير للسخرية أن تتحدث الذاكرة الإسلامية عن خلفائه الأربعة الأوائل بوصفهم خلفاء "مرشدين". ومما يثير السخرية أيضاً محاولة الجاحظ تصوير هذه الفترة كعصر خالٍ من "الأعمال الإجرامية أو البدع الفاضحة، أو مظاهر العصيان، أو الحسد، أو الاستياء، أو التنافس"107 في حين أن المصادر الإسلامية تقدم صورة لعالم مليء بالتنافسات المميتة منذ بداياته108 كان القتل متفشياً في تلك الأيام الأولى للإسلام. إن مقتل ثلاثة من الخلفاء الأربعة الأوائل لا يرسم صورة مشرقة، وكان هناك المزيد109 بالطبع، من الحماقة اختزال خمسة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي وعلاقاته بجيرانه إلى مجرد سلسلة من الاغتيالات والغارات. إن حضارةً ارتكبت أبشع الفظائع، كما حققت أسمى الإنجازات، لا

تستحق أن تُعرَّف بصفة واحدة، إذ لم تخضع وجودها قط لمبدأ واحد110 وبعيدًا عن اقتصار العلاقات بين الإسلام وجيرانه على الحرب، فقد سمحت بقدر من التبادل التجاري، مما أتاح للجيران فرصة اكتشاف ثروة من الابتكارات والسلع التي انبثقت من عبقرية المسلمين111 ولا شك أن المجتمعات الإسلامية كانت أيضًا مهدًا لعقول فذة، فاقت أعمالها أعمال أسلافها القدماء، وأثرت البشرية في العديد من التخصصات العلمية الدقيقة. فقد ترك الخوارزمي وابن سينا، على سبيل المثال لا الحصر، بصمةً لا تُمحى في التاريخ من خلال إسهاماتهما في الرياضيات والبصريات والفلسفة. لقد ساهم مهندسو تاج محل، شأنهم شأن العديد من العباقرة في العالم الإسلامي، في إثراء الحالة الإنسانية من خلال إبداعهم112 وقد أعلن الفيلسوف الكندي: "لا ينبغي لنا أن نخجل من رؤية جمال الحق، وأن نسعى إليه أينما كان مصدره، حتى وإن جاء من أعراق بعيدة عنا وأمم مختلفة؛ فمن يسعى إلى الحق، لا شيء يعلو عليه؛ فالحق لا ينتقص منه قائله ولا من ينشره، ولا يسقط أحد من النعمة بسببه، بل يرتقي به الجميع"113 ويبقى

أن نفسر لماذا لم يلقَ هذا القول الجميل صدىً واسعاً في العالم الإسلامي. ومن الضروري أن نفسر لماذا حظي بعض أعظم المواهب التي ولدت في كنف الإسلام، كالفيلسوف ابن رشد والطبيب ابن النفيس، الذي ندين له باكتشاف الدورة الدموية في القرن الثالث عشر، بشهرة أكبر خارج حدود الإسلام، بينما طواهم النسيان داخل مجتمعهم. بالنظر إلى الإرث العظيم الذي ورثه المسلمون، كان ظهور الكندي أو ابن رشد أقل ما يمكن توقعه. لا شك أن بين الصينيين والهنود والمسلمين آباءً صالحين، وأزواجًا صالحين، وأبناءً مطيعين شاكرين، ورعايا مخلصين لحكامهم؛ وسيكون عدد الصالحين بينهم، كما هو الحال بيننا، أكبر لو حُكم عليهم حكمًا رشيدًا، ولو أن سياسة حكيمة، بدلًا من تلقينهم دياناتٍ لا معنى لها منذ الصغر، منحتهم قوانين عادلة، وغرست فيهم أخلاقًا نقية، لم يفسدها التعصب. هذا ما أشار إليه بول تيري دولباخ، أحد أبرز شخصيات عصر التنوير، في كتابٍ كان موجهاً في الأصل ضد المسيحية115 لذلك، فمقابل كل ابن رشد الذي وضعته الصدفة في العالم الإسلامي، كم من أمثال ابن رشد، أو ليوناردو دافنشي، أو

بيير بايل، أو كوندورسيه، أو أوغست رودان، قُتلوا بشكلٍ ممنهج في فصول المدارس القرآنية، التي تزامن إنشاؤها في القرن الحادي عشر على يد الأتراك - ويا للمفارقة - مع بداية ركود الفكر في بلاد الإسلام؟ يقول الباحث الإسلامي شارل بيلا: "في محاولتهم للحفاظ على الثقافة العربية الإسلامية، وجّه السلاجقة ضربةً قاضيةً لها بإنشاء المدارس الدينية حوالي القرن الخامس الهجري. قبل ذلك، لم يكن التعليم مجانياً تماماً، بل على العكس تماماً، ولكن كان بإمكان أي شخص أن ينضم إلى الحلقات التي تتشكل حول معلمٍ مشهور ويختار المواد التي يرغب في دراستها." منذ اللحظة التي يتم فيها تعيين الأساتذة، من قبل السلطات، رسمياً في المؤسسات التي أنشأتها الحكومة وتخضع لسيطرة وكلائها، وعندما تُمنح تراخيص التدريس رسمياً للطلاب، وعندما يُقصد من هذا التدريس الرسمي في نهاية المطاف تدريب الأساتذة والعلماء والموظفين اللازمين لإدارة الضرائب والقضاء، لا تصبح المواد الدراسية فحسب، بل الأساليب أيضاً، رسمية وتخضع لمراقبة دقيقة116 هل من قبيل المصادفة أن

ذروة الأندلس الإسلامية تزامنت مع تفكك خلافة قرطبة، قبل قرنين من ظهور أولى المدارس الأندلسية في القرن الرابع عشر117 وأن الإنجازات العظيمة للعباسيين حدثت في وقت "لم تتبلور فيه أي رؤية دينية إلى درجة تسمح بتسميتها بالأرثوذكسية"118؟ لعل هذا ما دفع رينان للاعتقاد بأن "الإسلام كان ليبراليًا في ضعفه، وعنيفًا في قوته"، مع أن طالب اللاهوت المطرود لم يكن أكثر تسامحًا مع المسيحية، دون أن يتهمه أحد بكراهية المسيحية، وهو الرجل الذي دنّس حياة يسوع وذكّرنا بأنه لا ينبغي أن نشكر الأديان على الإنجازات التي تتحقق رغمًا عنها119 وبعيدًا عن دعوتنا إلى تبجيل الإسلام، فإن كل عبقري يولد في العالم الإسلامي يدفعنا إلى الحزن على المواهب التي كانت ستظهر أضعافًا مضاعفة لو لم يستسلم الشرق لنداء محمد، ولو اندمج الفاتحون العرب في الثقافات المحلية بدلًا من استبدالها. لا شيء يبرر نسبة الإبداع الذي أظهره علماء الشرق كبشر يتمتعون بالعقل والحساسية إلى الإسلام. حتى ابن خلدون نفسه يرفض أن ينسب إلى محمد الفضول الذي أبداه الشرق تجاه هذه العلوم:

"العلوم العقلية، كونها طبيعية للإنسان بقدر ما هو كائن يتمتع بالتفكير، لا تنتمي تحديدًا إلى أمة بعينها". ينبع سحر هذه التخصصات على العقل البشري من كون الإنسان "يتوق بطبيعته إلى معرفة هذه المواضيع". مع ذلك، لا يمنع هذا المؤرخ، للأسف، من التصريح بعد بضعة أسطر بأن "الفلسفة علمٌ باطلٌ في ذاته وضارٌ في تطبيقه" لأنها تجعل المرء مقاومًا لرسالة القرآن "وتحتوي على مبادئ مناقضة للشريعة الإلهية". باستثناءات قليلة، لم يكن لمعظم العلماء في بلاد الإسلام "أي صلة بالعلماء أو الشخصيات الدينية بالمعنى الأوسع"، كما يشير المؤرخ أحمد جبار، الذي يوضح أيضًا أن أعمالهم نادرًا ما كانت تشير إلى القرآن. بين الجراح أبو القاسم ومحمد، اللذين نسب إليهما المحدثون المسلمون علاجاتٍ غريبة؛ وبين الفلكي ابن الصفار والقرآن، الذي ينشر مفاهيم مركزية الأرض عن الكون، توجد المسافة نفسها التي تفصل سقراط عن السم. إن نسبة الإنجازات التي وُلدت في كنف الإسلام تنبع من نفس المنطق الذي يُشيد بقانون السكان الأصليين، أو النظام السوفيتي، أو العبودية، بحجة أن رأس المال الفرنسي بنى

خطوط سكك حديدية في الجزائر، أو أن الروس أرسلوا أول قمر صناعي إلى الفضاء، أو أن جميع المجتمعات التي اتُخذت فيها العبودية عرفت أسرى من أصول متواضعة تمكنوا من الارتقاء الاجتماعي، مثل تريمالكيو في رواية بترونيوس، والمماليك، والإنكشارية: إنه إشادة بأنظمة معيبة باسم فوائد كان من الممكن مضاعفتها عشرة أضعاف من خلال مؤسسات أكثر ليبرالية مما سمح به ذلك العصر. وكما أننا لا نُجلّ التضحيات البشرية للأزتيك بحجة أن الطماطم تأتي من العالم الجديد، فإن إنجازات الشرق التي رفعت من شأن الإنسانية غريبة عن الإسلام كنظام من المعايير والقيم، والذي خنق في نهاية المطاف حرية الفكر في البلدان التي ترسخ فيها.

انطلاقًا من قناعة راسخة - لا تزال قائمة حتى يومنا هذا124 - بأن الحقيقة كلها موجودة في القرآن، وأنه لم يُحذف منه شيء، وأن رسالته مطلقة، وأنه من المستحيل الثبات على الصراط المستقيم دون شفاعته، دأب أتباعه المتشددون على ترهيب العقول التي تميل إلى التفكير خارج نطاقه125 فقد اعتقدوا أن بإمكانهم إدخال الفلسفة [...] في الشريعة

الإسلامية وربطها بها. إلا أن هذا يُعدّ طموحًا تعيقه عقبات لا تُذلّل: فالشريعة الإسلامية من عند الله عن طريق رسول بينه وبين البشر، عن طريق الوحي126 هذا ما جادل به الفيلسوف أبو سليمان السجستاني في القرن التاسع لتفسير فشل التعايش بين الشريعة القرآنية والعناصر الأكثر ليبرالية في الفلسفة القديمة. وأفضل من يصف انحطاط الإسلام هو المسلمون أنفسهم: "هنا تتجلى مسؤولية الدين الإسلامي جليًا". «من الواضح أن هذا الدين، أينما ترسخ، سعى إلى قمع العلوم، وقد خدمه الاستبداد خير خدمة في تحقيق أهدافه»، هذا ما أقر به المفكر جمال الدين الأفغاني بإيجاز خلال مناظرته الشهيرة مع إرنست رينان حول أسباب انحدار العالم الإسلامي127 ومن حسن الحظ أن هذا الدين لم يؤثر بأي شكل من الأشكال على مؤسسات الدول الغربية 128 أما أولئك الذين ينتقدون نزعة الإفراط في أسلمة المجتمعات الإسلامية وإلقاء اللوم على الدين وحده في جميع مشاكلها، متجاهلين العوامل الأخرى، فيُجبرون على التفكير في احتمال أن يكون الإسلام غريباً عن إنجازاتهم. ألا يُعدّ ذلك، علاوة على ذلك، أسمى تقدير

يُقدّم للمسلمين الذين تميزوا بمواهبهم؟ الحقيقة أن هؤلاء الناس، لفترة من الزمن، أظهروا عبقرية استثنائية رغم القيود المفروضة عليهم، وكانوا بلا شك سيضاهون، بل ويتفوقون، على أرقى الأمم لولا ارتباطهم بمحمد. وبعيدًا عن التقليل من شأن إنجازاتهم، فإن هذه الحقيقة تزيدها إبهارًا. إن رافائيل الذي ظهر في خضم عصر النهضة الفلورنسية أقل قيمة من مايكل أنجلو المولود بين هؤلاء المتطرفين، الذين تبدو لهم أحلك فترات العصور الوسطى قمة الرقي. وكما قال الشاعر الأندلسي ابن بسام: "بالنسبة لمن يجد نفسه في مثل هذا الموقف، فإن أصغر حصاة تتخذ أبعاد جبل شاهق، وأصغر بركة ماء أبعاد بحر هائج". هذه القضية تهاجم ديننا وتدمر قوتنا. لقد سمعنا ملك فرنسا يقول إنه لا يمكن لأحد أن يُبطل ديننا، أو قانوننا، أو قوتنا. لقد جعلنا قانوننا سادة على زنوجنا منذ زمن سيدنا نوح. مصطفى بن إسماعيل، شخصية بارزة جزائرية، يواجه المستعمر الفرنسي. "لم يتم السماح بتعدد الزوجات في الغرب قط"، هكذا رثى نابليون، الذي يعتبر هذه العادة حصنًا منيعًا ضد العنصرية.في الشرق، على النقيض من

ذلك، كان هذا الأمر مسموحًا به دائمًا. آسيا وأفريقيا موطن لأناس من مختلف الألوان؛ وتعدد الزوجات هو السبيل الوحيد الفعال لدمجهم حتى لا يضطهد الأبيض الأسود، أو الأسود الأبيض. [...] الأسود والأبيض، كونهما أخوين، يجلسان وينظران إلى بعضهما على مائدة واحدة. وهكذا، في الشرق، لا يُؤثر لون البشرة على تفوق أي لون على الآخر1 وفي سياق ترسيخ أسطورة الشرق الرائد في مكافحة العنصرية، وصف المؤرخ أرنولد توينبي المسلمين بأنهم مجتمع متحرر "من كل أشكال التمييز العنصري تجاه الأعراق ذات الألوان المختلفة"2 وخلال رحلته إلى الجزيرة العربية عام 1964، أشاد مالكوم إكس، أحد أبرز الشخصيات في الحركة الأمريكية الأفريقية، بالأخوة بين الأعراق التي اعتقد أنه شهدها في هذه الأرض المقدسة التي كانت من آخر الدول التي ألغت العبودية تحت ضغط دولي: "لم أشهد قط كرم ضيافة صادقًا وروح أخوة حقيقية كهذه التي يمارسها الناس من جميع الألوان والأعراق هنا"، كما كتب، قبل أن يُعلن أن الإسلام "الدين الوحيد الذي يقضي على المشكلة العنصرية في مجتمعه". وهذا يثير

التساؤل حول سبب ارتفاع معدلات زواج الأقارب في المجتمعات الإسلامية، مما يُؤثر سلبًا على الصحة العامة. إن المجتمعات القبلية، حيث يصعب توسيع نطاق العلاقات خارج نطاق الأسرة، ليست في الواقع المكان الأمثل لتقديم دروس في مناهضة العنصرية. "عزلتهم ضمانة أكيدة ضد اختلاط الدماء الناتج عن التحالفات مع الأجانب [...]" وكتب المؤرخ المغربي ابن خلدون عن القبائل العربية الرحل: "لقد ظل عرقهم نقيًا دون أدنى شك في الاختلاط". 6. هم ضدنا: لقد طمست الأسطورة الذهبية للإسلام القائم على المساواة ذكرى الصراعات العرقية التي أثرت على جميع المجتمعات، على الرغم من أن بعضها يواجه صعوبة أكبر في الخروج منها. إلا أن هذه الحكاية تتعارض مع وجود تراث أدبي شرقي ضخم يعكس النزاعات العرقية في ذلك الوقت، حيث يُستخدم نسب الفرد ذريعةً إما للتقليل من شأنه أو رفعه7 وكانت المساواة في الحقوق لغير العرب من المتحولين إلى الإسلام جوهرَ الخلافات في القرون الأولى للإسلام8 والتي سُجِّلت خلالها احتجاجات عرقية عديدة، مثل ثورات البربر الكبرى في

القرن الثامن9 وكما فعل البرجوازيون الذين اختلقوا نسبًا أرستقراطية للوصول إلى الامتيازات، لم يكن من النادر أن يُغيِّر المتحولون إلى الإسلام اسم عائلاتهم ويخترعوا نسبًا عربية لتبييض ماضيهم، وزيادة مكانتهم، والهروب من التمييز10 وكان العرب، كغيرهم من الفاتحين عبر التاريخ، مترددين في منح المساواة للشعوب المغلوبة، وحافظوا على وضعهم المتميز لأطول فترة ممكنة. كان يُنظر إلى المسلمين غير العرب على أنهم أدنى مرتبة، وخضعوا لسلسلة من القيود المالية والاجتماعية والسياسية والعسكرية وغيرها11 وإلى جانب هذا النضال، كان هناك نضالٌ آخرٌ للأقليات العرقية من أجل المساواة مع العرب الأصليين. وقد مُحيت كل هذه النضالات من الذاكرة لأن غالبية المصادر المؤيدة للعناصر غير العربية في الإمبراطورية الإسلامية "دُمّرت على يد قوى لاحقة اعتبرتهم تهديدًا يهدف إلى تقويض الإسلام"12 وفي مواجهة مطالب غير العرب، ندّد المؤرخ ابن أبي يعلى بهذه الأمم الأدنى مرتبة التي لم تعترف بتفوق جماعة محمد العرقية، قائلاً: "إنهم لا يعترفون بحق العرب في الأسبقية، ولا يعترفون بجدارتهم".

وأعلن الشاعر العربي ابن قتيبة، في القرن التاسع الميلادي، أن الله قدّر لأفراد آل بيت محمد "أن يكونوا أفضل من جميع المخلوقات، لأنه عيّن الأئمة منهم، حصراً لهم، دون غيرهم". بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نسب المؤلف ياقوت الرومي - على نحو لا شك فيه - إلى محمد فكرة مفادها أنه "لا يوجد في العالم مخلوقات أكثر بشاعةً من البربر". "يتباهى العرب بأنهم سادة العالم وقادة الشعوب. فلماذا لا يتباهون بدلاً من ذلك بكونهم رعاة ماهرين للأغنام والإبل؟" ردّ الشاعر الفارسي الرستمي في القرن العاشر الميلادي ليُذلّ كبرياء أبناء إسماعيل14 وفي محاولة منه لخوض غمار علم الأعراق، اعتبر الجاحظ العرب والفرس والهنود والبيزنطيين الأمم الأربع المتحضرة على وجه الأرض. وقال: "أما البقية فهم متوحشون أو أشبه بالمتوحشين"15 متخذاً درجات الحرارة المتجمدة والسماء الملبدة بالغيوم ذريعةً، وصف سعيد الأندلسي السلاف والبلغار والشعوب المجاورة بأنهم فظّون، جاهلون، كسالى، يفتقرون إلى الحكمة والفطنة والذكاء والظرافة16 لاحظ مونتين أن "الجميع يصف ما ليس من عاداتهم بالهمجية".

17 لم يسلم المسلمون من هذه الكراهية العالمية للأجانب18 أسطورة التوسع السعيد: بدلاً من الترويج لـ"الاندماج السعيد للعناصر المركبة"19 يُقيم الإسلام تجارة واسعة النطاق في الأسرى خارج حدوده لتوفير سبايا الجنس والخدم المنزليين. الحرفيون والجنود، وإلى حد أقل، العمال الزراعيون. تم استيراد العبيد من سهوب آسيا والهند والقوقاز وأوروبا وأفريقيا، وتم تصنيفهم عرقياً وإخضاعهم لتصنيف دائم وموراثي يحمل وصمة عار20 مع أن المسلمين لم يخترعوا العبودية، إلا أن تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي - أي تجارة الرقيق السود لمسافات طويلة - نشأت بدافع من الإسلام، بدءاً من النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، كرد فعل على تحريم استعباد الأحرار داخل الإمبراطورية الإسلامية21 كتب ابن خلدون: "الأمم السوداء عموماً أكثر خضوعاً للعبودية لأنها تفتقر إلى ما هو إنساني جوهري، وتمتلك صفات مشابهة لصفات الحيوانات الغبية"22 مع أن القرآن لم يذكر ذلك، إلا أن المسلمين كانوا أول من استشهد بقصة لعنة حام التوراتية لتبرير استعباد السكان السود23 أثار هذا الأمر استياء المسلمين الأرثوذكس،

الذين اضطروا للإصرار على أن كفر غير المؤمن الذي لا يستفيد من "حماية" الدولة الإسلامية هو المبرر الوحيد للاستعباد24 وهكذا، كان أمل بعض الأفارقة جنوب الصحراء الكبرى في اعتناق الإسلام هو النجاة من العبودية25 "من حيث المبدأ، يحمي الانتماء إلى الإسلام من الأسر والاستعباد، لكن هذه الحماية هشة ولا تصمد أمام مصالح الأقوياء."26 في القرن الرابع عشر، اشتكى ملك بورنو المسلم الأسود من أن العرب "دمروا بلادنا بأكملها، بلاد بورنو بأكملها [...] لقد أخذوا أحرارًا من بيننا، من نسلنا من المسلمين [...] لقد أخذوا شعبنا كبضائع."27 كان أول العبيد السود الذين تم استيرادهم إلى أوروبا عبر تجارة الرقيق "من تجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى"28، على الرغم من أنه يجب علينا وضع حد للصورة النمطية التي تصور أفريقيا السوداء كمتفرج لم يشارك في الاستعباد. من شعبها، كما تفعل المنظمات الأفريقية الجامعة 29. من بين أسرى تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي، "تم أسر حوالي 2% منهم مباشرة من قبل تجار الرقيق الغربيين، خاصة في البداية، بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، عندما

لم تكن التجارة منظمة بشكل كامل. تم شراء 98% من هؤلاء الأسرى من سماسرة أفارقة 30". فيما يتعلق بتجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى، فإن الغالبية العظمى من الأسرى "الذين تم إنتاجهم" في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تم أخذهم من قبل السلطات، حيث لم يكن الأفارقة قد طوروا شعورًا بالانتماء إلى مجتمع واحد قبل وصول الأوروبيين31 لاحظ المؤرخ العربي اليعقوبي في القرن التاسع: "إنهم يصدرون عبيدًا سودًا يأسرونهم، ينتمون إلى قبائل ميرا، وزغاوة، وماروا، وأعراق زنجية أخرى في جوارهم. لقد تأكدتُ من أن الأمراء السودانيين يبيعون رعاياهم دون أي ذريعة قانونية ودون أي سبب ناتج عن أعمال حرب 32 صناعة البراءة: بينما عجز الإسلام عن محو الانقسامات العرقية داخل المجتمع المسلم، ظل التمييز الأساسي بين مختلف فئات البشرية دينيًا. فقد فصل ما أسماه الفقهاء المسلمون دار الإسلام ودار الحرب: بين أرض الإسلام وأرض الحرب، وُجدت، وفقًا للشريعة الإسلامية، القانون المقدس كما صاغه الفقهاء الكلاسيكيون، حالة حرب واجبة دينيًا وقانونيًا، لا يمكن إنهاؤها إلا باعتناق البشرية جمعاء

الإسلام أو إخضاعها33 في كتابه "القوانين الحكومية" الذي يهدف إلى تقنين التزامات الحاكم المسلم، يجادل الفقيه الماوردي بأن الأخير "يجب أن يجاهد، ويقاتل أولئك الذين يرفضون اعتناق الإسلام بعد دعوتهم لذلك، حتى يعتنقوه أو يصبحوا ذميين، بغرض إقامة حقوق الله"34 وكان زميله أبو يوسف يعتقد في القرن الثامن، نصّ على أنه لا يجوز للحاكم أن يتخلى عن القتال ضد شعبٍ في حالة حرب إذا كان له اليد العليا عليه35 لم ينتظر العالم الإسلامي حتى يصوغ هنتنغتون نظريته عن صراع الحضارات حتى تتجلى فيه العداوة لأي نظام قيمي آخر. لاحظ ابن خلدون: "في المجتمع الإسلامي، الجهاد واجب ديني لأن للإسلام رسالة عالمية، ويجب على جميع الناس اعتناقه طوعًا أو قسرًا"36 ومع ذلك، ومن خلال تحريف تاريخي، يُصوَّر الإسلام على أنه قرية محاصرة، مدعومًا بالتحيز الروسويّ الذي يُضفي هالة مثالية على الدول المتخلفة37 في عمل شهير، يُشبِّه الكاتب أمين معلوف الحروب الصليبية الشهيرة بأنها "نقطة انطلاق عداء دام ألف عام" بين الإسلام والغرب: "في عالم إسلامي يتعرض للهجوم باستمرار، لا

يمكن منع ظهور شعور بالاضطهاد، والذي، في بعض الأحيان، يتخذ التعصب شكل هوس خطير [...]. من الواضح أن الشرق العربي لا يزال ينظر إلى الغرب كعدو طبيعي. وأي عمل عدائي ضده، سواء كان سياسياً أو عسكرياً أو متعلقاً بالنفط، ليس إلا انتقاماً مشروعاً. ولا شك أن الصدع بين هذين العالمين يعود إلى الحروب الصليبية، التي لا يزال العرب يشعرون بها حتى اليوم على أنها انتهاك38 ومما لا شك فيه أن هذه الحقيقة البديلة تغذي "التضخيم الهائل للأساطير التي ينسجها العرب حول أنفسهم، والذين يقدمون أنفسهم دائمًا كضحايا أبديين للتاريخ"، كما لاحظ الكاتب كورنيليوس كاستورياديس39 وبغض النظر عن شرعية مشروع أدانته الكنيسة في نهاية المطاف، فإن اعتباره أصل التوترات بين الشرق والغرب هو تجاهل للفتوحات السابقة. ففي نهاية المطاف، لم يصل المسلمون إلى سوريا إلا نادرًا في قوافل إنسانية. ألم تكن أولى الحملات الغربية إلى بلاد الشام لتحرير هذه المناطق التي سقطت في أيدي الغزاة الأتراك؟ "من المهم أن تسارعوا دون تأخير إلى نجدة إخوانكم الذين يعيشون في بلاد الشرق والذين طلبوا

مساعدتكم مرارًا وتكرارًا"، هكذا أعلن البابا أوربان الثاني، مناشدًا العالم المسيحي التحرك ضد تهديد لطالما انتصر الإسلام. "هل نسيتم الأراضي التي احتلتموها والتي فتحناها في الماضي، وحتى في الآونة الأخيرة؟" هكذا تحدّى السلطان الكردي أيوب لويس الثاني، القديس المستقبلي، مُذكّرًا إياه بالهزائم التي ألحقها الإسلام بالمسيحية منذ نشأتها. كان ذلك قبل أن يتبنى الخطاب الإسلامي موقف المظلومية مستغلًا نسيان أوروبا. "لقد سرقتم وكذبتم لقرون. أتقولون إنكم جئتم لتحضرونا؟" "لقد احتقرتم لغاتنا وثقافاتنا وأدياننا، وأهنتم ذكرياتنا، ودنّستم تقاليدنا"، هكذا يُنشد طارق رمضان في وجهه ضد الغرب، مُلقيًا باللوم على كل شرور العالم لإرضاء الغرائز الدنيئة لجمهوره. وبتجاهله لإبادة الشرق القديم، واحتلال شبه الجزيرة الأيبيرية، والغزو العثماني لأوروبا الوسطى والبلقان، وإمارة صقلية، واحتلال مالطا وسردينيا، والوجود الزائل في ناربون، والطريقة التي انتشر بها الإسلام في آسيا وأفريقيا، وضعت الكوميديا التراجيدية الإسلامية نصب عينيها مهمة إخفاء حقيقة أن الإسلام قد توغل في جيرانه أكثر مما توغلوا

هم فيه. "لقد عانى عالمنا العربي من هذه الموجة الإمبريالية التي اتخذت أشكالًا مختلفة، من الغزو البرتغالي المباشر إلى أشكال غير مباشرة، مثل إرسال الدعاة إلى سوريا، الأمر الذي سمح للفرنسيين بدخولها"، هكذا يمكن للمرء أن يقرأ في كتاب تاريخي مُوجّه للأطفال العراقيين، والذي، في لحظة تبسيط فاحش، أسكت الجميع. أخطاء العالم الإسلامي42 يتناقض التنديد المتكرر بالهيمنة الغربية، والذي لا يغطي سوى 15% من تاريخ العالم الإسلامي، مع التسامح مع الفظائع المرتكبة باسم محمد خلال الفترة المتبقية. سخر كاستورياديس قائلاً: "لم ينشأ العرب بشكل طبيعي على سفوح جبال الأطلس في المغرب"، مؤكداً أن هذا الشعب، الذي صُوِّر على أنه مضطهد، كان مع ذلك، مثل جميع الأمم المسجلة في سجلات التاريخ، فاتحاً لا يلين43 الغضب الانتقائي: تكشف انتقائية الذاكرة الإسلامية ما يشعر به الجميع. تركز مظالمها ضد الحضارة الغربية بشكل أقل على ما فعلته هذه الحضارة، وأكثر على ما كانت عليه: حضارة كافرة ستصوغ الإمبراطورية الإسلامية هويتها في مواجهتها. من سوريا، التي

انتُزعت من بيزنطة، تبنى الخليفة الأموي الثالث، عبد الملك، في أولى إعلاناته الإسلامية، صيغاً معادية للمسيحية النيقاوية، لتحديد هوية إمبراطوريته في مواجهة العالم المفتوح44 قطع علاقته بالثنائية اللغوية الإدارية اليونانية العربية، واستبعد من الإدارة التي تتخذ من دمشق مقرًا لها أولئك الذين لا يتحدثون لغة القرآن. ما أطلق عليه المؤرخان باتريشيا كرون ومايكل كوك "الاستيلاء الثقافي على الهلال الخصيب"45 استمر. "سيتعين عليكم إيجاد سبل عيشكم في مكان آخر غير هذه المهنة، لأن الله قد حرمكم منها"، هكذا رثى سرجون بن منصور، المسؤول البيزنطي الذي تم عزله مؤخرًا، لمجموعة من السكرتيرين المسيحيين46 بينما يتهم البعض الغرب باختراع هوية يهودية مسيحية لتعريف نفسه في مواجهة الإسلام47 "كان بالفعل في مطلع القرنين السابع والثامن الميلاديين أن أكد الإسلام نفسه بوضوح في مواجهة الديانات التوحيدية الأخرى باعتباره الدين المؤسس للإمبراطورية الجديدة"48 متهمًا اليهود والمسيحيين بـ زوروا كتبهم المقدسة لإخفاء النبوة المزعومة لمحمد49 في عهد الأمويين،

"شكّل الفاتحون المسلمون طبقة عليا، نوعًا من الأرستقراطية، خاضعة للسلطة الروحية والدنيوية للخليفة."50 وباعتبارها سمة متأصلة في النظام الإسلامي، "يمثل التمييز سمة دائمة وضرورية للمجتمع الإسلامي."51تُحظر على المجتمعات غير المسلمة حمل السلاح أو ركوب الخيل، وتخضع لضرائب أعلى، ويجب عليها إظهار الاحترام للمسلمين، ولا يجوز لها الزواج من مسلمات، ويجب عليها التكتم في ممارسة شعائرها الدينية، والامتناع عن الدعوة إلى الإسلام، ويُحظر عليها بناء دور عبادة جديدة. وتُعتبر شهادتهم في المحكمة أقل قيمة من شهادة المسلمين، إلى جانب غيرها من الإهانات اليومية52 وتمتد هذه التمييزات، التي تُطبق بدرجات متفاوتة من الصرامة والقسوة تبعًا للزمان والمكان، لتشمل اليهود والزرادشتيين والبوذيين والهندوس وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى مع توغل المسلمين في أراضي جيرانهم. بل إن وضع الهراطقة والمفكرين الأحرار الذين يسخرون مما يُسمى بالأديان السماوية أكثر خطورة53 «بقولكم "الله"، فإنكم تشيرون إلى كائن غائب. [...] لماذا لا يسمح لنفسه بأن يُرى ويكتفي بإرسال

الرسل؟» اعترض الشاعر المتشكك أبي العوجة في القرن الثامن قبل إعدامه على يد العباسيين الذين زعموا التسامح54 ولكن، إذا كان العالم الإسلامي يعتبر نفسه في حالة حرب دائمة مع جيرانه، فإن الحقيقة تبقى أن الغرب يبقى العدو بامتياز. في الوجدان الإسلامي، أصبح الصراع ضد المسيحية نموذجًا للحرب المقدسة55 وباسمها شنّ قراصنة البربر هجماتهم، فاجتاحوا البحر الأبيض المتوسط، مما أدى إلى استعباد 1.25 مليون غربي بين عامي 1500 و1800، أو استقدام ما يقرب من مليوني أوكراني وبولندي وروسي بين القرن الخامس عشر ونهاية القرن السابع عشر على يد تتار القرم56 وذكّر الفيلسوف جوليان فرويند دعاة السلام قائلًا: "العدو هو من يُصنّفك"، مضيفًا أن احتجاجات الصداقة لا طائل منها أمام من يكرهك لذاتك لا لأفعالك. يُجسّد الونشريسي هذا الموقف خير تجسيد حين يُحذّر المسلمين الذين يميلون للبقاء في إسبانيا التي عادت إلى الحكم اللاتيني في نهاية حروب الاسترداد، من أن حتى استبداد الحكومة الإسلامية أفضل من حكم الحكومة المسيحية، إذ إن العيش في بلد تحت سلطة

مسيحية يُعرّض المسلم لخطر انحلال إيمانه في غمرة الاختلاط57 يُدعى المسلم إلى التضحية بكرامته على مذبح دينه، حتى وإن كانت مؤسسات غير المؤمن أفضل. أثناء مروره بسوريا خلال الحروب الصليبية، استشاط الرحالة العربي ابن جبير غضبًا لسماعه مسلمين يُفضّلون الحكم الأوروبي - الذي لا يخلو من العداء - على حكم إخوانهم في الدين، خشية أن تُشجّع الإدارة الأوروبية المُحسنة على ارتداد المسلمين58 وهنا أيضًا، لا يكمن الخطر في استبداد السلطات الإسلامية بقدر ما يكمن في خطر رؤية الناس ينصرفون عن دينهم بسبب لطف منافسيهم. هل يُحدد لا بويتيه العرف باعتباره السبب الرئيسي للعبودية الطوعية؟ العنف الجيد والسيئ: تحت ستار مناهضة الإمبريالية، تُظهر الذاكرة الإسلامية تحيزًا راسخًا وتتغاضى عن جميع أشكال القمع طالما أنها تُمارس تحت راية محمد. في العالم الإسلامي، قد ينتاب المرء أحيانًا شعور بأن جريمة الإمبريالية ليست - كما يراها النقاد الغربيون - هي هيمنة شعب على آخر، بل توزيع الأدوار داخل تلك العلاقة. الشر الحقيقي غير المقبول هو هيمنة الكافر

على المؤمنين. من الطبيعي أن يحكم المؤمنون غير المؤمنين، إذ يُضمن بذلك الحفاظ على الشريعة المقدسة [...] لكن من الكفر والمخالف للطبيعة أن يحكم الكافر المؤمن59 وهكذا، تم تهميش التبعية والاستبداد اللذين عانى منهما العالم العربي الإسلامي قبل الغزوات الأوروبية وبعدها، ووضعهما في زاوية هامشية من التاريخ. "مما يثير استياء المراجعين المعاصرين، الخلافة العربية باعتبارها المؤسسة العليا للإسلام." يذكرنا جان بيير فيليو قائلاً: "لم تدم سوى ثلاثة قرون"60 وبينما تعرضت خلافة بغداد، قبل وصول الصليبيين، للغزو والتحييد على يد إيرانيين وأتراك من أبناء دينهم، لم يُصنَّف أيٌّ من هؤلاء المسلمين، الذين دنسوا مع ذلك المؤسسة الإسلامية العليا، كعدو "طبيعي وأبدي" لها. كانت المجازر قابلةً للغفران، حتى لو هلك فيها مسلمون، "شريطة أن تُرتكب باسم الانبهار بالإسلام"61 وفي تعليقه على الوضع المروع في غزة على قناة تلفزيونية فرنسية عامة، تجرأ المؤرخ فنسنت لومير مرتين على القول بأن الأزمة الإنسانية الرهيبة التي تعصف ببلاد الشام والشرق الأوسط هي

الأسوأ منذ الحروب الصليبية، وذلك تحت أنظار الصحفية ليا سلامة، التي وصلت إلى فرنسا هربًا من حرب لبنان عام 1962، والتي بدت متهاونة بشكلٍ مثير للدهشة. وبغض النظر عن حقيقة أن هذه المقارنة، التي تهدف إلى إثارة ضجة، تُسيء إلى ذكرى ضحايا الحروب الصليبية الأخيرة في خضم الصراعات، بدءًا من مقتل نصف مليون شخص خلال الحرب الأهلية السورية، تُعدّ هذه الملاحظات دليلاً على العمى الذي يُقلّل من شأن العنف الداخلي في العالم الإسلامي، ويعزوه فقط إلى علاقاته مع الغرب. وللتأكد من ذلك، يكفي الإشارة إلى الاستخفاف الذي يُميّز التعامل مع الغزوات المغولية التي أعقبت الحروب الصليبية الأوروبية، والتي عرّضت العالم الإسلامي لـ"مجازر أودت بحياة الكثير من المسلمين" لدرجة أنها "كانت كافية، في منطقة أو أخرى، لاستنزافه وحكم عليه بالفناء". ولا تمنع الكوارث التي تسبب بها المغول من قراءة ما جاء في موقع إسلامي معروف: "أخرج الدين الإسلامي سكان السهوب من ظلامهم وهمجيتهم، وغرس فيهم احترام الحياة البشرية وروح التضامن مع الشعوب الإسلامية الأخرى".

أما الأهرامات التي بناها جنود تيمورلنك -الذين تدّعي شعوب آسيا الوسطى امتلاكها- من عشرات الآلاف من الجماجم البشرية عند أبواب حلب، فتشير إلى ما هو أبعد من ذلك. وجهة نظر دقيقة65 يبدو أن اعتناق القبيلة الذهبية والسلالة التيمورية للإسلام قد محا سجلهما الإجرامي في نظر المسلمين، على الرغم من عمليات الإبادة التي ارتكبها جنكيز خان وتيمورلنك، والتي تُضاهي عمليات الإبادة الجماعية الحديثة66 استفاد الأتراك، الذين كانوا عبيدًا للعرب، من بند الدولة الأكثر رعاية في القانون الإمبريالي. ونتيجة لذلك، غالبًا ما يتم تجاهل شروط توغلهم في بلاد الشام وشمال إفريقيا. من دمشق، أرسل السلطان العثماني سليم الرهيب رسولًا في بداية القرن السادس عشر إلى تومان باي، آخر سلاطين مصر المملوكية المستقلة. عرض عليه خيارين: إما أن يُبايع الدولة العثمانية ويحكم مصر كدولة تابعة، أو أن يُقاوم ويُخاطر برؤية مملكته تُسحق. عند قراءة هذه الشروط، أدرك تومان باي أن الاستسلام مستحيل، فاستبدّ به الرعب وانفجر في البكاء. سيطر الخوف عليه. جنوده، وسرعان ما شمل ذلك جميع رعاياه. وللحفاظ

على النظام، صدر مرسوم يحظر، تحت طائلة الإعدام، بيع النبيذ والبيرة والحشيش. ولكن، إذا صدقنا المؤرخين، فقد كان القلق شديدًا لدرجة أن القاهريين تجاهلوا الحظر ولجأوا إلى المخدرات والكحول لينسوا خطر الغزو الوشيك67 لم يمنع نهب القاهرة، وسلب ممتلكات المدنيين، والعنف الذي مارسه الأتراك في شمال إفريقيا، المؤرخين العرب من تمجيد الوصاية التي مارسها العثمانيون على العالم السني: فعند صعودهم إلى السلطة، كان العثمانيون من بين أفضل حكام الأمة الإسلامية منذ الخلفاء الراشدين. مدافعين أقوياء عن الدين وأعداء للكفار، وسعوا ممتلكاتهم من خلال الفتوحات التي منحهم الله إياها ووكلائهم. سيطروا على أكثر المناطق المأهولة ازدهارًا على وجه الأرض. وبايعتهم ممالك عظيمة وبعيدة. لم يهملوا إدارة الدولة، بل ضمنوا أمن الإقليم وسكانه. الحدود. [...] كان عرشهم مستقرًا، وسلطتهم راسخة، وكان الملوك يخشونهم، وكان الأحرار والعبيد يطيعونهم. هكذا كتب المصري الجبرتي حين واجه فرنسا، وكأنه يستذكر الزمن المبارك الذي فرض فيه الإسلام سلطته، مُخاطرًا

بتزيين سجل العصر العثماني68 حق الجرد. يُشير الكاتب كامل داود إلى أن الوجود العثماني لم يُوصف بأنه احتلال في الجزائر. "بل يُشار إليه فقط على أنه مسألة حماية بعيدة بين أبناء عمومة مسلمين،"69 على الرغم من أن العثمانيين وضعوا المغرب العربي في مرتبة أدنى: فمثل جميع المجتمعات في العالم العثماني، اتسمت وصاية الجزائر بتسلسل طبقي وهرمي قوي. فأسفل الطبقة العسكرية التركية، التي كانت في القمة، جاء، بترتيب تنازلي، الكولوغليون، أو أبناء الأتراك والنساء المحليات؛ والبرجوازية الحضرية التي يُشار إليها بمصطلحي المور والحضر؛ والقبائل العربية، التي كان يُفرّق بينها بين قبائل المخزن، الذين التفوا حول النظام وشاركوا في جباية الضرائب، وكذلك قبائل الرعايا، التي كانت تخضع للضرائب بدورها؛ ثم كان هناك القبائل القبائلية، وقبائل الجبال، وأخيرًا اليهود والعبيد السود. لم تُفوّت تركيا أي فرصة لتذكير فرنسا بماضيها الاستعماري، بينما احتفت بماضيها العثماني، فنجحت في جعل الناس ينسون أن العالم الإسلامي، تحت وصايتها، قد تراكم فيه تخلفٌ مُقلق، مما أسعد

الأوروبيين كثيرًا. "يا للأسف! في الغرب يسطع نور المعرفة"، هكذا رثى وزير الباب العالي السابق، سعد الله باشا71 حتى اليوم، هناك مؤرخون، يتوقون إلى الغرابة، يُقللون من شأن الآثار الضارة للوجود العثماني في شمال إفريقيا بحجة أنه لم يؤثر على مؤسسات محلية محترمة72 ولكن ما هو إرث الأتراك في شمال إفريقيا؟ ماذا تركوا وراءهم إلى جانب ثقافة الاستغلال التي لا تزال قائمة هناك؟ في توثيقه لإسهامات العثمانيين في العالم العربي، انبهر المؤرخ ألبرت حوراني بالمساجد والمآذن وغيرها من المنشآت التي موّلها العثمانيون، والتي مكّنت القاهرة وحلب وتونس من البقاء مراكز رئيسية للشريعة الإسلامية73 فليطمئن أولئك الذين يندبون ركود العلوم والفلسفة في بلاد الإسلام! فبينما كان سبينوزا منهمكًا في النقد الكتابي، ونيوتن يدرس الفيزياء في كامبريدج، والفيزيوقراطيون يرسّخون أسس الازدهار بالدعوة إلى التجارة والصناعة الحرتين، وظّفت المجتمعات التركية والعربية، بفضل عائدات القرصنة وتجارة الرقيق، عددًا كبيرًا من العلماء الذين استهلكوا الوقت والحبر والورق في تأليف كتب عن تنظيم المدينة

المثالية استنادًا إلى وصفات تُنسب إلى بدوي أمي من القرن السابع كان يعتقد أنه يتصرف نيابةً عن كائن غير مرئي. هل حسّنت هذه الأعمال حقًا من حال البشرية؟ ولكن، ولإنصاف الأتراك، لم تكن مجتمعات المغرب أكثر تألقًا. بسبب ضعف الإنتاج الزراعي، والمجاعات والأوبئة المتكررة، أدى الركود الديموغرافي إلى إضعاف المغرب العربي في وقت كانت فيه أوروبا تشهد زيادة في عدد سكانها.75 وعلى عكس بعض الروايات، كان المغرب العربي قبل الوجود الأوروبي يعاني من الفوضى: "غالباً ما كانت القوى المرابطية والشريفية والقبلية تنفصل عن السلطة المركزية، إن لم تتجاهلها تماماً". وهكذا، يلاحظ المستشرق فينتورا دي بارادي: معظم الجبال، من مملكة سوس إلى سهل القيروان، مأهولة بأمم مستقلة [...]؛ لم يدفعوا الجزية ولا ضريبة الرؤوس، ومع ذلك خاضوا حربًا ضروسًا فيما بينهم، ولم يتحدوا إلا ضد عدو مشترك76 ومما يدل على عدم الاستقرار السياسي الذي اتسمت به وصاية الجزائر، أنه "من بين الثلاثين يومًا الذين تعاقبوا على الحكم من عام 1671 إلى عام 1818، تم فرض حكم 14 يومًا عن

طريق الانتفاضات بعد اغتيال سلفهم"77 لم يمنع هذا الوصاية من شن حرب على تونس، وجعلها دولة تابعة لها عام 1756، ثم إعلان الحرب عليها مجددًا عامي 1807 و1813 عندما قطعت تونس روابط التبعية. ومن المفهوم لماذا أرسل باي تونس وفدًا لتهنئة المارشال دي بورمونت على فتحه للجزائر:78 فكل دولة هي مستعمرة في يد غيره. وقد سادت فوضى مماثلة في شبه القارة الهندية قبل غزوها من قبل البريطانيين. كانت هذه المدينة التي تعجّ شوارعها بالبيوت والحدائق، والنُزُل، والأديرة، والمساجد، والمدارس، وغيرها من أماكن العلم والمعرفة، حيث كان العلماء والفقهاء، والعرافون والمتعلمون، والأولياء والمتصوفون، والأطباء، والمعلمون، والشعراء، والكتاب، منتشرين في كل مكان. أما الآن، فقد رأيتُ مشهدًا من الخراب الرهيب، وشعرتُ بحزنٍ عميق. هكذا رثى الشاعر الأردي مير حسن في عام ١٧٦١، واصفًا انحدار منطقته. وكما يشير المستشرق لويس فريدريك، شهد القرن الثامن عشر زوال كل ما جعل الهند مشهورة على مدى ألفي عام. ولا تزال البلاد اليوم تعاني بشدة من آثار

هذه الحقبة المظلمة من تاريخها. على الرغم من أن بعض الهنود يسارعون إلى اتهام البريطانيين بالتسبب في خراب البلاد، فإن الحقيقة هي أن السيطرة البريطانية على الهند لم تكن سوى نتيجة للعجز السياسي لدى كل من الزعماء الهندوس والمسلمين عن استعادة النظام والسلام79 في المحيط الهندي، كانت جزيرة مايوت جزيرةً أُفرغت من سكانها بسبب الحروب وغارات الرقيق، اشتراها الفرنسيون عندما عجز سلطان مايوت عن ضمان أمنها80 روح الانتقام: لم تغب الصراعات الداخلية في الإسلام عن أذهان بعض المفكرين المسلمين، الذين كانوا يفضلون توجيه هذه الطاقة ضد مجتمعات أخرى. لو تمسك المسلمون برباط الخلافة الذي لا ينفصم، "لكنا سادة العالم"، كما رثى السوري رشيد رضا81 من الواضح أن الحنين إلى الإمبراطورية لا يثير استنكارًا اجتماعيًا في بلاد الإسلام. "للمسلمين الحق في الغضب وقتل ملايين الفرنسيين بسبب مجازر الماضي"، هكذا صرّح رئيس الوزراء الماليزي السابق مهاتير محمد، ردًا على اغتيال صامويل باتي والهجوم على كاتدرائية نيس. كما هو حال نسل آدم الذين أُدينوا بسبب خطأ

واحد، أصبح الفرنسيون الآن أهدافًا مشروعة للمتعصبين بسبب جرائم حقيقية أو مزعومة ارتكبها أسلافهم، منتهكين بذلك أخلاق فرانز فانون التي تحظر تحميل الأجيال الجديدة مسؤولية جرائم الماضي: "أنا، كرجل أسود، لا يحق لي أن أتمنى ترسيخ شعور الذنب لدى البيض تجاه ماضي عرقي". ومع ذلك، فإن كلمات مهاتير محمد الانتقامية تتركنا نتوق إلى المزيد.لا يخبرنا متى ستتمكن الأجيال التي لم تمسها فظائع أسلافها من الاستفادة من قانون التقادم لوقف ذبحها. ولا يخبرنا أيضًا ما إذا كان، في مقابل رخصة الإبادة الجماعية التي يمنحها للمسلمين، يُسمح للسود باستعباد ملايين المسلمين انتقامًا لمظالم الماضي، أو ما إذا كان بإمكان اليونانيين والرومانيين والبلغار والصرب ارتكاب مجازر بحق الأتراك ثأرًا لرعايا الدولة العثمانية الذين وقعوا ضحايا نظام الدوشيرمة، الذي بموجبه "كان مئات المفوضين ينتقلون من قرية إلى أخرى، ويختطفون، بمعدل طفل واحد لكل أسرة، صبية مسيحيين أرثوذكس تتراوح أعمارهم بين ثمانية وستة عشر أو عشرين عامًا، قبل إجبارهم على اعتناق الإسلام، وختانهم،

وإجبارهم على تعلم اللغة التركية، وإخضاعهم لعملية اختيار قاسية تحدد مهمتهم". لا يوضح لنا مهاتير محمد أيضًا ما إذا كان بإمكان جميع نساء العالم الانتقام من الجواري اللاتي استُغِلّن جنسيًا في تلك الجرائم التي أثارت استياء الإنسانيين، مثل الكونتيسة دي غاسبارين، التي شعرت بالرعب، خلال إقامتها في مصر عام 1848، من مصير "أخواتها في الشرق، المحرومات من كل ما يُشكّل سعادتنا وكرامتنا وفرديتنا".85 وستبقى هذه الأسئلة بلا إجابة. تشير كل الدلائل إلى أن الجرائم التي ارتكبها المسلمون ليست جرائم على الإطلاق. يقول الصحفي روبرت كابلان: "في الغرب فقط، في أوروبا والولايات المتحدة، يُحتقر الاستعمار، ويعتذر الناس عن ماضيهم الإمبراطوري. أما في أجزاء أخرى من العالم، فيفتخر الناس بماضيهم الإمبراطوري"86 يُشكّل إنكار المسلمين انعكاسًا مشوهًا لرثاء الرجل الأبيض. إن تشويه التاريخ بفعل مركزية أوروبية - ساذجة كانت أم مُدبّرة - يتجسد حتى في الشكل الفريد لـ"الاستعمار". إن وضع حدٍّ لـ"الاستعمار" أمرٌ بالغ الأهمية. يُصوَّر التوسع الأوروبي، الذي بدأ في القرن الخامس عشر،

على أنه يحمل وحشيةً غريبةً عن الأمم الأخرى، وكأنها تُنمّي حدائقها الخاصة على هامش التاريخ بينما دخلت القارة العجوز، سواءً كان ذلك خيرًا أم شرًا، عصر الاكتشافات العظيمة. "سنبقى فقراء ما لم نتحدى روايتهم للتاريخ." "دعونا نتبنى منظور السكان الأصليين لأمريكا"، هكذا صرخت الكاتبة حورية بوتلدجا، مستحضرةً ذكرى انتقامية مستغلةً جهل جمهورها87 ومن المثير للدهشة أن هذا التعاطف مع السكان الأصليين لا يشمل الوثنيين الذين اضطُهدوا أمام أعين الرحالة العربي ابن بطوطة، عندما جاب إندونيسيا في القرن السادس عشر، مشيدًا بفضائل السلطان المحلي: "كثيرًا ما يشن حربًا مقدسة ويشن حملات ضد الوثنيين. إنه متواضع ويذهب إلى صلاة الجمعة سيرًا على الأقدام. رعاياه [...] يحبون خوض الحرب المقدسة ويرافقون سيدهم طواعيةً في حملاته". لقد أخضعوا الوثنيين الذين أحاطوا بهم والذين يدفعون الجزية ليعيشوا في سلام88 قبل وقت طويل من أن تطأ قدم كولومبوس أرض أمريكا معتقدًا أنه وصل إلى الهند، كان الأتراك قد دخلوا الأناضول وبدأوا في تفتيت أوروبا.

وأخيرًا، في عام 1453، دمروا "وكر الضلال" حيث "استُبدل قرع أجراس الكفار البغيض بأذان المسلمين، ذلك النشيد العذب، الذي يُردد خمس مرات، لدين الشعائر المجيدة التي ملأت ألحانها آذان أهل الجهاد المقدس"، كما ورد في إحدى سجلات العثمانيين عن سقوط القسطنطينية89 علاوة على ذلك، كان الضغط الإسلامي على التجار الأوروبيين أحد الأسباب التي دفعت البرتغاليين والإسبان إلى فتح طرق جديدة إلى الهند، مع ما ترتب على ذلك من آثار معروفة على الشعوب التي سيقابلونها90 في اللحظة التي كان فيها الراهب الدومينيكاني الإسباني بارتولومي دي لاس كاساس يجادل بأن الهنود "لديهم بلدات وقرى ومدن ونظام سياسي، في بعض الممالك، أفضل من نظامنا" لردع تجاوزات مواطنيه91 أنهت سلطنة سنار، التي أسسها الفونج، مملكة ألودي المسيحية المحتضرة 92، التي كانت عاصمتها تقع بالقرب من الخرطوم، بينما شن السلطان أحمد بن إبراهيم الغازي حربًا ضد مسيحيي إثيوبيا 93. وقد تم الترحيب به كبطل في الصومال التي يصعب تسميتها دولة نظرًا لحالة الفوضى السائدة. بعد أكثر من قرن ونصف،

عندما نشرت الروائية الإنجليزية أفرا بن روايتها "أورونوكو"، التي تدور حول عبد أسود يثور في سورينام (1688)، كانت الإمبراطورية المغولية، في عهد أورنجزيب، قد بلغت أقصى اتساع لها بعد فتوحات بدأت في أوائل القرن السادس عشر، وأدت إلى حملة وحشية ضد المجتمعات الهندوسية: "أُرسلت أوامر، وفقًا لتنظيم الإسلام، إلى حكام جميع المقاطعات بتدمير معابد ومدارس الكفار، وإنهاء أنشطتهم التعليمية، ووقف ممارسة دين الكفار"، كما جاء في إحدى السجلات المحلية94 في الوقت نفسه، فشل العثمانيون في الاستيلاء على فيينا للمرة الثانية، بتواطؤ فعلي من فرنسا التي كانت منغمسة في صراعها ضد آل هابسبورغ لدرجة أنها أصبحت أداة طيعة في يد الإمبريالية التركية، التي كانت سعيدة للغاية بتقويض وحدة الجبهة الأوروبية95 وقبل وقت قصير من عمليات الانتقام الفرنسية في أمريكا الشمالية ضد قبيلة ناتشيز، التي ارتكبت مجازر. في مواجهة الأول، أسقط الأفغان بقيادة السلطان محمود خان بلاد فارس الصفوية عام 96.
تزامن نشر كتاب الأب رينال *تاريخ الهندين* في النصف الثاني من القرن الثامن عشر،

والذي ندد بالوحشية الاستعمارية الأوروبية وتمنى ظهور "سبارتاكوس الأسود"، مع وفاة أحمد شاه دوراني، مؤسس إحدى أكبر الإمبراطوريات الإسلامية في القرن الثامن عشر، والذي يُعتبر في آسيا الوسطى أب الأمة الأفغانية عام 97. قبل خمسين عامًا من وصول بونابرت إلى مصر، ظهرت الطائفة الوهابية في نجد، متحدية السلطة العثمانية، ومن خلال ولادة المملكة العربية السعودية - التي بذلت الكثير لنشر الأصولية الإسلامية في جميع أنحاء العالم - بعد محاولتين فاشلتين، مع نصيبهما من المعارك الدامية، وتدنيس الأضرحة، والمذابح ضد الشيعة، والنساء الحوامل. ٩٨. لم يقتصر القرن التاسع عشر على كونه بداية عصر الإمبريالية الأوروبية فحسب، بل سبق الغزو الفرنسي للجزائر بعشر سنوات غزو مصر بقيادة محمد علي للسودان لتزويد جيشه ومصانعه وحقوله بالعبيد. ٩٩: «لم تكن القوافل كافية؛ فقد أراد أرضًا تجارية أكبر وأكثر احتكارًا. وما إن سيطر على نهر سنار حتى تعرض السكان، وهم الثروة الأساسية للدولة، للهجوم في منبعهم»، هكذا كتب فيكتور شولشر، الذي يرى أن الحاكم المصري، الذي

كان حريصًا على تقديم نفسه كمصلح للغرب، «ليس إلا تاجر رقيق حقيرًا يمارس هذه التجارة بوحشية تضاهي وحشية أكثر موردي العبيد همجية في جزر الهند الغربية». ١٠٠. ثم كانت هناك حركات الجهاد الأفريقية الكبرى، مثل توسع خلافة سوكوتو التي بدأها المصلح الفولاني عثمان دان فوديو، الذي اعتمد اقتصاده على عمل العبيد المدعوم بالغارات ١٠١ ويُقدّر المؤرخان يان هوغندورن وبول لوفجوي أن ربع سكان خلافة سوكوتو - الذين قُدّر عددهم بعشرة ملايين نسمة عام ١٩٠٠ - كانوا من العبيد١٠٢ بينما يُقال إن عاصمتها الاقتصادية كانت تضم ثلاثين عبدًا لكل رجل حر ١٠٣ مما يجعل هذه الإمبراطورية الساحلية واحدة من أعظم ثلاث مجتمعات عبودية في التاريخ الحديث١٠٤ وهكذا، كان عدد العبيد في غرب أفريقيا في بداية القرن العشرين يفوق عددهم في الأمريكتين على الإطلاق١٠٥ لم يمنع هذا إمبراطورية سوكوتو من التمتع بمكانة مرموقة في نيجيريا بين شريحة أوسع من السكان. الجمهور. إلى إرهابيي بوكو حرام 106. أسطورة الجنوب العالمي: جميع الأمم لها أصل إمبريالي. لكن الدول الغربية وحدها

تدين أبناء جلدتها. لهذا السبب، يأسف الكاتب كامل داود لغياب "وعي" محلي في الشرق من شأنه أن يساعده على مراجعة ضميره 107. ومع ذلك، أكد رئيس الوزراء الفرنسي السابق دومينيك دو فيلبان، الذي استُضيف في إذاعة فرانس إنتر، أن "ذاكرة جزء كبير من شعوب العالم هي ذاكرة الاستعمار، ومأساة التجربة الاستعمارية 108". من الشائع اعتبار هذه المجموعة من الأنظمة الفاسدة، المعروفة باسم الجنوب العالمي، حُماة ذاكرة مناهضة الإمبريالية لمجرد خضوعها مؤخرًا للغرب. في الواقع، ليس السكان الأصليون الساعون للانتقام سوى إمبريالي مُحبط. لا يستطيع الخميني أن يغفر للكافر وقوفه في صف القوة، ووصوله إلى هذه الهيمنة التي كان يتمنى هو نفسه ممارستها بكل صرامة ودون الشعور بالذنب الذي يضفي عليها مرارة. إن ضعف حضارته لا يُطاق بالنسبة له لأنه يتعارض مع إلهه الذي يصف المسلمين بأنهم "خير الأمم"109 ومن هنا، فإن الاعتقاد بأن عالمنا كان سيكون أكثر تحضرًا لو آلت السلطة إلى المسلمين ليس إلا خطوة لا يخطوها إلا المتعصبون. نقرأ في كتابات الخميني: "لو

حكمت الحضارة الإسلامية الغرب، لما كنا مضطرين لمشاهدة هذه الأعمال الوحشية، التي لا تليق حتى بالحيوانات المفترسة"110.

وفي معرض مراقبته للعالم العربي، لاحظ المفكر السوري جورج الطرابيشي أن "درجة العداء تجاه الآخر قد ازدادت باطراد مع توقف الآخر عن كونه مستعمرًا". وتابع ترابيشي: إن النزعة العرقية كظاهرة أنثروبولوجية [...] تنبع من عدم القدرة على الاندماج في مسار الحضارة ومعالجة جرح النرجسية الذي لا يزال ينهك الذات العربية منذ أن وجدت نفسها، بعد الصدام مع الغرب، في حالة من الانحطاط تنعكس في مرآة الآخر الذي حقق التطور.

قلتَ "حضارة"؟ ولكن هل اختُزلت الحضارة إلى الثروة والتكنولوجيا؟ في اللحظة التي كانت فيها المجتمعات الإسلامية تتطلع إلى التقنيات الغربية، أجاب شاتوبريان بالنفي وندد بسذاجة من يمدحون الإسلام الحديث: هل سيتشكل شرق جديد؟ ماذا سيؤول إليه؟ هل سنتلقى العقاب المستحق لتعليمنا فن الحرب الحديث لشعوب يقوم نظامها الاجتماعي على العبودية وتعدد الزوجات؟ هل نشرنا الحضارة في الخارج، أم أدخلنا البربرية إلى قلب العالم

المسيحي؟ [...] أنا لست منبهرًا بالسفن البخارية والسكك الحديدية؛ إن ما يُسمى بـ"الحضارة" لا يكمن في بيع السلع المصنعة، ولا في ثروة بعض الجنود الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين الذين انضموا إلى خدمة باشا112 فبالنسبة لإدوارد سعيد، الذي ينتقد بشدة الأحكام المسبقة ضد هذا الشرق الذي يكاد يكون مثالياً، فإننا ندين لمؤلف "مذكرات من وراء القبر" بـ"أول إشارة مهمة لفكرة ستكتسب سلطة شبه مطلقة، بل شبه تلقائية، في الكتابات الأوروبية: وهي فكرة تعليم أوروبا للشرق معنى الحرية، وهي فكرة اعتقد شاتوبريان - وكل من جاء بعده - أن الشرقيين، وخاصة المسلمين، يجهلونها تماماً"113 لكن لو كان سعيد مهتماً حقاً بالشرق، لأدرك أن هذه المجتمعات لم تكن بحاجة إلى شاتوبريان لكي تندهش أو تُذهل أو تُستنكر سخاء المؤسسات الغربية. أثناء تجواله في فرنسا خلال فترة الوصاية، اندهش العثماني محمد أفندي من أن النبلاء الفرنسيين ذوي الرتب العليا أظهروا "كرمًا بالغًا تجاه النساء من أدنى الطبقات الاجتماعية، ما سمح لهن بفعل ما يحلو لهن والذهاب حيثما يشأن". وفي عصر عودة

الملكية، انبهر المصري الطهطاوي، رغم ادعائه المتعجرف بأن أوروبا "لم تسلك الصراط المستقيم، ولم تسلك طريق الخلاص، ولم تعترف بالدين الحق ونهج الحق"، بقدرة الفرنسيين على ملاحظة أن "العدل والإنصاف عنصران أساسيان في حضارة الممالك، وفي سلام الناس [...] لدرجة أن بلادهم ازدهرت، وتكاثرت معارفهم، وتراكمت ثرواتهم، وسكنت قلوبهم". ومرة أخرى، كان المصري، وليس مستشرقًا متغطرسًا، هو من شدد على الاختلافات بين الشرق والغرب فيما يتعلق بوضع المرأة. في فرنسا التي تدهور فيها وضع المرأة مع قانون نابليون، رأى مع ذلك أن رجال ذلك البلد "عبيد للنساء ويخضعون لإرادتهن، سواء كن جميلات أم لا". فالنساء الشرقيات "يُنظر إليهن كسلع، بينما يُنظر إليهن عند الفرنجة كأطفال مدللين". وخلال زيارته للمعرض العالمي في باريس عام 1878، أشاد الدبلوماسي العثماني سعد الله باشا بالمزايا المادية للمجتمعات الليبرالية قائلاً: "عندما تنظرون إلى هذا العرض الرائع للتقدم البشري، لا تنسوا أن كل هذه الإنجازات هي ثمرة الحرية. ففي ظل حماية الحرية تنال

الشعوب والأمم السعادة"116 من جانبه، أثنى الكاتب التركي حسين رحمي غوربينار على "الكنوز الفكرية للغرب" التي "تعلمنا منها حب الفكر، وحب الحرية"117 لكن هذه الحرية لم تكن يوماً ما تروق للجميع. في مصر، لم يُخفِ الجبرتي فزعه من تفكك التسلسل الهرمي التقليدي والتقدم الاجتماعي الذي حققته المرأة بفضل الوجود الفرنسي، إذ قال: "رأينا نساءً مسلمات يرتدين الزي الفرنسي". كنّ يخرجن مع مسؤولي المقاطعات للتفتيش وقضاء شؤون السكان أو لإصدار الأحكام العادية، أو لإصدار الأوامر والنهي أو توجيه النداءات إلى الناس. كانت المرأة تخرج بمفردها أو مع عدد قليل من الرفيقات أو المدعوات من نفس النوع [...]. وقد شوهدت وهي تتخذ القرارات وتأمر وتنهى. ١١٨. لم يمنع افتتان الجبرتي بالتقنيات الفرنسية من إدانة "كذبة وغباء" إعلان نابليون الذي ينص على أن البشر متساوون أمام الله. 119. استنكر الجبرتي الارتقاء الاجتماعي لغير المسلمين الذين كانوا يُصنّفون سابقًا في مرتبة أدنى بموجب الشريعة الإسلامية: ومن نتائج الاحتلال الفرنسي لمصر، كما يأسف الجبرتي، "رفع

شأن الأقباط والسوريين واليونانيين واليهود الأكثر تواضعًا. كانوا يمتطون الخيل ويتزينون بالسيوف لخدمتهم للفرنسيين؛ كانوا يتبخترون بتعجرف، ويتلفظون بألفاظ بذيئة علنًا، ويسخرون من المسلمين 120". كان الجبرتي محقًا في قلقه إزاء الإعلانات الليبرالية والمساواتية للثورة الفرنسية، التي هددت حضارة إسلامية غريبة عن هذه المبادئ.التحرر الآخر من الاستعمار: في البداية، لم تُعر الإمبراطورية العثمانية اهتمامًا يُذكر للثورة الفرنسية، ثم ابتهجت بالفتنة التي زرعتها في أوروبا، قبل أن تُبدي قلقها إزاء آثار بياناتها على رعاياها، كما يتضح من بيان عثماني جاء فيه: "تؤكد الأمة الفرنسية [...] أن الكتب التي جاء بها الأنبياء خاطئة، وأن القرآن والتوراة والأناجيل ليست سوى أكاذيب وهراء، وأن الذين يدّعون النبوة... يكذبون على الجهلاء...، وأن جميع الناس متساوون، ولا أحد منهم أفضل من الآخر، وأن كل فرد يُدبّر أمره ويُدير حياته بنفسه في هذه الدنيا". وقد هددت هذه الرسالة المُروّعة ببثّ أفكار لدى الشعوب الخاضعة للهيمنة التركية، كالصرب واليونانيين، الذين كانوا أول من أبدى حساسية تجاهها. وقد

قام الشاعر اليوناني قسطنطين ريغاس بترجمة إعلان حقوق الإنسان، وألّف نسخة يونانية من النشيد الوطني الفرنسي "لا مارسييز" قبل أن يُسلّمه النمساويون ويُعدمه الأتراك. أثناء تجوالهم في اليونان المحتلة، لاحظ كل من الكاتب شاتوبريان والقس توماس سمارت هيوز وعالم الآثار إدوارد دودويل "الوحشية المجانية" و"وابل الضربات" و"طلقات الرصاص" التي كان المستوطنون الأتراك يطلقونها عشوائيًا على المارة اليونانيين العاديين، الذين أصيبوا بجروح خطيرة "حتى سال الدم على وجوههم"، عاجزين عن الاحتجاج خوفًا من تفاقم حالتهم123 وبمساعدة روسية وفرنسية وبريطانية، فضلًا عن متطوعين من محبي اليونان، تحررت اليونان من الباب العالي، الذي أُجبر على توقيع معاهدة أدرنة: وهكذا بدأ تفكك إمبراطورية كانت تنفر من المساواة لدرجة أنها، طوال فترة محنتها، اضطرت إلى الاعتماد على الضغط الخارجي لتحسين وضع غير المسلمين 124 وشهد الكاتب والإداري العثماني زياد باشا خضوع الدولة العثمانية لأوروبا، فند بشدة حقيقة أن 20 مليون مسلم "يتحملون الكثير

من الإذلال و الإذلال لضمان سلامة 11 مليون مسيحي من جميع الطوائف، وهم أدنى منهم ديموغرافيًا وفي كل شيء125 فشلت الحماية الأوروبية في تحصين المسيحيين ضد العنف المتقطع الذي عانوا منه. وتُجسد مجازر دمشق عام 1860، التي قُتل خلالها العديد من المسيحيين على يد الدروز الغيورين على تقدمهم الاجتماعي، هذه الكراهية. وبلغت هذه الفظائع ذروتها في الإبادة الجماعية للأرمن والآشوريين الكلدانيين واليونانيين البنطيين، والتي لا تزال تركيا تتستر عليها سرًا حتى اليوم 126 ومثل العديد من الأقليات في بلاد الإسلام، رأى اليهود مصيرهم مُنمقًا، إذ كان تاريخيًا أقل قسوة مما كان عليه في الأراضي المسيحية، وهو ما لم يكن إنجازًا يُذكر127 "لم يكن اليهود يُركبون القطارات في الدول العربية"، هكذا زعم أحد أعضاء البرلمان الفرنسي لينفي معاداة السامية في المجتمعات المسلمة128 إذن، مجرد عدم تقليد الرايخ الثالث يكفي لنيل وسام التسامح! تبدو هذه الملاحظة أكثر استهزاءً عند الأخذ في الاعتبار أن أحفاد اللاجئين من العالم العربي يشكلون ما يقارب نصف سكان إسرائيل129

وهي دولة تدين بوجودها ليس لكرم المسلمين بقدر ما تدين بتفوقها التكنولوجي، الحصن الوحيد ضد إبادة جماعية أخرى. في الواقع، لم يكن المسلمون يميلون قط إلى اعتبار اليهود مساويين لهم. لكانت الصهيونية أقل شعبية لو أن المجتمعات العربية أنجبت مُصلحين مثل كليرمون-تونير، الذي مكّن فرنسا من أن تصبح أول دولة أوروبية تُحرر اليهود خلال الثورة. في عام 1834، ألهم إعدام امرأة يهودية مغربية اتُهمت بالتخلي عن الإسلام لوحةً شهيرةً للفنان ألفريد ديهودينك. عند زيارته للمملكة الشريفة قبل الحماية، وصف الكاتب بيير لوتي - الذي لم يكن يُشتبه في كونه معادياً للإسلام أو مُحباً للسامية - الحي اليهودي في فاس بهذه الكلمات: "يشعر المرء أنه يعيش في هذا الوكر في خوف دائم من جيرانه، عرباً كانوا أم بربراً". وأمام أبواب مدينتهم، يقع مكب النفايات العام للحيوانات النافقة (وهو أمر يُعتبر مجاملةً لهم): للوصول إلى منازلهم، لا بد من المرور بين أكوام من الخيول والكلاب النافقة، وأنواع أخرى من الجيف، تتعفن تحت أشعة الشمس، وتنبعث منها رائحة كريهة لا تُوصف؛ ولا يُسمح لهم بإزالتها، ويُسمع في

المساء عواءٌ صاخبٌ للضباع تحت أسوارهم. وفي شوارعهم الضيقة، التي تكاد تكون غير سالكة، يُمنعون أيضًا من إزالة النفايات المتراكمة من المنازل؛ فتتراكم العظام وقشور الخضراوات والقمامة لأشهر، إلى أن يقرر مسؤول عربي إزالتها مقابل مبلغ كبير من المال130 وكان على وضع اليهود الشرقيين أن ينتظر تحسنًا بفعل الضغط الأوروبي. ففي الجزائر الفرنسية، اختبر اليهود من العالم العربي المساواة لأول مرة تحت ضغط المستعمر، وهو ما يفسر سبب ترحيب "بني إسرائيل الأصليين" بالوجود الفرنسي. لن تغفر لهم الأدبيات الإسلامية والقومية العربية هذه "الخيانة" دون إخضاع معاملة الأقليات في بلاد الإسلام لأدنى فحص نقدي131 وقد ساد ولع مماثل بفرنسا الأوساط اليهودية في تونس، الذين قدموا التماسات إلى السلطات الاستعمارية للحصول على الجنسية الفرنسية، وهي سلطات ترددت في المساس بكبرياء المسلمين بمنح الترقية الاجتماعية لرعاياها السابقين132 وفي تعليقه على المرسوم الملكي الصادر في 5 فبراير 1864، والذي حظر التمييز ضد اليهود المغاربة، رأى المؤرخ

الناصري أن "هذه الحرية التي أرساها الأوروبيون في السنوات الأخيرة هي عملٌ لا دينيٌّ محض، لأنها تنطوي على تدمير كامل لحقوق الله، وحقوق الوالدين، وحقوق الإنسانية".133 النضال المنسي ضد العبودية الإسلامية. باسم هذه "الحقوق الإلهية والإنسانية" نفسها، حافظت المجتمعات الإسلامية على الرق لأطول فترة ممكنة، حتى أنها لم تتمكن قط من إلغاء هذه المؤسسة المشينة بمبادرة منها. وبينما كان النضال ضد الرق في الغرب نتاجًا لعملية داخلية، فإن انحساره في بلاد الإسلام يُعزى إلى حد كبير إلى الضغوط الإمبريالية الغربية. هذا الواقع، إلى جانب مراعاة التوجهات السياسية السائدة، يُفسر قلة الاهتمام الذي حظيت به هذه الثورة، التي تُعد مع ذلك واحدة من أعظم الثورات في تاريخ البشرية. في مقالٍ خُصص للنضال الفرنسي ضد الرق في الجزائر، أشار المؤرخ مارسيل إيميريت إلى أن "انتصار فكرة الإنسانية على أرض أفريقيا لم يُوثّقه مؤرخو الرق". بينما يستحيل دراسة التاريخ الغربي دون التطرق إلى العبودية والنضال من أجل إلغائها، فإن الدراسات التاريخية للمجتمعات

الإسلامية تتجنب هذا الموضوع بإصرار، تاركةً إياه للمختصين136 ولا تُولي المناهج الدراسية الغربية اهتمامًا أكبر بهذا الموضوع، في حين تُعلي المجتمعات الإسلامية من شأن الجهل به إلى حدّ اعتباره أمرًا طبيعيًا. ففي عام 2018، حجبت قناة الجزيرة القطرية جزءًا من فيلم وثائقي حول مشاركة المسلمين في تجارة الرقيق137 ويصعب العثور على أي نصب تذكاري عام مخصص لإحياء ذكرى النضال ضد العبودية في الأراضي الإسلامية. بل إن المسلمين يبحثون بنشاط عن المعالم الأوروبية القليلة التي تُشير إلى هذا الموضوع، كما يتضح من الضغط الذي مارسته جامعة الدول العربية لإزالة الإشارة إلى تجار الرقيق العرب السواحليين الذين حاربهم فرانسيس دانيس من أحد مباني بروكسل138 لماذا هذا الإنكار؟ هل لعدم وجود أبطال محليين يُحتفى بهم في هذا الشأن؟ أم لأن المسلمين لا يستطيعون الاعتراف بأي فضل للغرب، خشية التخلي عن وهم براءتهم؟ هل يُعدّ عجز المجتمعات الإسلامية عن مكافحة الرق خارج نطاق أحكام غير المسلمين عارًا لا يجرؤون على مواجهته، خشية استخلاص النتائج الضرورية حول فضائل

دينهم؟ أم أن انتقاد الرق يُعتبر تجديفًا في نظر التراث الإسلامي، الذي يُعلي من شأن محمد باعتباره أحد أكثر أتباعه حماسةً، ما دفع الباحث الإسلامي السوفيتي يفغيني بيليايف إلى ربط ظهور الإسلام في القرن السابع بـ"تكوين نظام رق داخل مجتمع بدائي متدهور"؟ بالنسبة للباحث الإسلامي برنارد لويس، كان إلغاء الرق من منظور إسلامي تقليدي أمرًا شبه مستحيل. "تحريم ما أباحه الله يُعدّ إثمًا عظيمًا كإباحة ما حرّمه الله". على الرغم من أن الإسلام ظهر بعد عدة قرون من أول إدانة عالمية للعبودية على يد غريغوريوس النيصي، إلا أنه قبل وصول الأوروبيين، لم يكن هناك مثيلٌ لجدل بلد الوليد (1550-1551) الذي شهد انتفاضة اللاهوتيين ضد استعباد الهنود والسود والوثنيين. يقول الراهب الدومينيكاني الإسباني بارتولومي دي لاس كاساس: "لا يمكن ولا يجوز لشعب مسيحي أن يشن حربًا على أي كافر، سواء كان مغربيًا أو عربيًا أو تركيًا أو تتريًا أو هنديًا، أو من أي نوع أو مذهب أو دين آخر، دون ارتكاب خطايا مميتة جسيمة."141 لم يُنشئ العالم الإسلامي قط جمعية مدنية مُكرسة لمكافحة

العبودية تُضاهي جمعية إلغاء تجارة الرقيق، أو جمعية أصدقاء السود، أو جمعية الأخلاق المسيحية. لم يكن هناك مسلمٌ مثل لينكولن، أو فيكتور شولشر، أو تشارلز غراي، أو لافيجيري، أو ليفينغستون. على الرغم من انخفاض هجمات قراصنة البربر على العالم المسيحي خلال القرن الثامن عشر نتيجةً لتحسن موازين القوى لصالح الغرب، إلا أن استمرارها دفع السياسي البريطاني سيدني سميث إلى مخاطبة مؤتمر فيينا بشأن فظائعهم ضد الأوروبيين والأفارقة، قائلاً: "بينما تُناقش سبل إلغاء تجارة الرقيق على الساحل الغربي لأفريقيا [...]، فمن المثير للدهشة أنه لا يُولى أي اهتمام للساحل الشمالي لتلك الدولة نفسها، الذي يسكنه قراصنة أتراك، لا يكتفون بقمع السكان الأصليين المجاورين لهم، بل يختطفونهم ويشترونهم كعبيد، ليستخدموهم في سفن مسلحة تشن غارات لسحب المزارعين الشرفاء وسكان السواحل الأوروبية المسالمين من ديارهم". وقد رغب مؤتمر فيينا، الذي رفض العثمانيون حضوره، في إلغاء تجارة الرقيق التي "دمّرت أفريقيا طويلاً، وألحقت العار بأوروبا، وألحقت الأذى

بالبشرية". بقيادة أسطول هولندي بريطاني مشترك، نجح اللورد إكسموث في تحرير أكثر من ألف مسيحي عام 1816 بقصف الجزائر، موجهاً ضربة قاصمة لاستعباد الأوروبيين على يد قراصنة البربر، رغم استمرار هجماتهم التي دفعت مؤتمر آخن عام 1819 إلى تهديدهم بأعمال انتقامية قد "تهدد وجودهم". وبينما لم يعد هناك عبيد أوروبيون في الجزائر وقت الغزو الفرنسي، بقي آلاف من العبيد السود، حاول بعضهم الفرار من أسيادهم الأصليين طلباً لحماية المستعمر الجديد، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أحياناً. وفي عام 1839، عندما علم عبد القادر بخيانة زوجته له بتواطؤ اثنين من خدمه، رجل أسود وامرأة سوداء، لجأوا إلى الجزائر. فأمر المارشال فالي بتسليمهم إلى الأمير. على الرغم من صرخات الفقراء ودموعهم وتوسلاتهم بالذبح الفوري بدلاً من تأجيل عذابهم المحتوم، فقد سُلموا وهلكوا بعد ذلك بوقت قصير تحت وطأة تعذيب وحشي 146 في عام 1840، أثار نائب المدعي العام في وهران احتجاجات من مصطفى بن إسماعيل، أحد وجهاء الجزائر، بحجة أنه حرر عبيدًا ينتمون إلى قبيلته: "هذه القضية تهاجم

ديننا وتدمر سلطتنا [...] لقد جعلنا قانوننا سادة على عبيدنا منذ زمن سيدنا نوح [...]". كل واحد منا لديه عبيد، دفعنا ثمنهم من مالنا الخاص. 147 على الرغم من ضغوط مواطنيها الأكثر استنارة لإلغاء الرق في الجزائر في أسرع وقت ممكن، انتظرت فرنسا حتى عام 1848 لتنفيذ هذه الثورة، خشية نفور رعاياها الجدد: "لا أعتقد أننا سيطرنا على العرب لفترة كافية لنتمكن من تبني إجراء من شأنه أن يسيء بشدة إلى مصالح هذا الشعب"، هكذا رد بوجو على المحسنين في عام 1844. 148 أعقب قراءة مرسوم إلغاء الرق في المساجد مناورات قام بها السكان المحليون لإدامة تجارتهم بالعبيد تحت غطاء الإدارة، وذلك بنقل عبيدهم إلى المناطق القبلية والريفية حيث كان الوجود الفرنسي ضئيلاً. تتجلى صعوبة استئصال هذه المؤسسة بالنسبة للإدارة الاستعمارية في وجود ملاك عبيد مسلمين في منطقة الجزائر العاصمة في بداية القرن العشرين، وفي بعض المناطق النائية من الصحراء الجزائرية بعد الاستقلال. 149. وبعد أن حثه البريطانيون عام 1842 على محاربة تجارة البشر، اعترض سلطان المغرب قائلاً إن

شرعية الرق "لا تحتاج إلى دليل أكثر من ضوء النهار"، 150، قبل أن يتخذ من تخلف رعاياه ذريعةً لعدم متابعة مطالب إلغاء الرق: "هذه الإمبراطورية ليست كغيرها من البلدان المتحضرة التي يعيش سكانها في المدن؛ فغالبيتهم هنا من البدو والرحل، الذين لا يستقرون في مكان واحد، بل ينتقلون مع الريح". لا شيء يُمكن أن يُقيّدهم، ومن الصعب عليهم التخلي عن عاداتهم، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالدين151 أغلق الفرنسيون أسواق الرقيق العامة في المغرب عام 1912. ومع ذلك، استمرت تجارة الرقيق السرية لفترة طويلة بعد ذلك152 في المؤتمر العالمي الأول لمناهضة الرق في لندن في يونيو 1840، أصرّ البريطاني جون بورينغ على ضرورة إقناع حكام الشرق "بأن لديهم مصلحة عميقة في إلغاء الرق، وأن ازدهارهم مرتبط ارتباطًا وثيقًا بحرية السود"153 ومع ذلك، تشير كل الدلائل إلى أن هذه الأمنية بقيت مجرد أمنية. في مصر، لم تتراجع تجارة الرقيق فعليًا إلا مع الاحتلال البريطاني بدءًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر. 154 "من هو النبيل، ومن هو العبد، ومن هو السيد - لم يعد بالإمكان معرفة ذلك،

فقد سوّى الكافر كل الفوارق الاجتماعية"، هكذا ترثي قصيدة من آتشيه، تتخذ من إجراءات إلغاء العبودية الهولندية ذريعةً لتشجيع سلطنة آتشيه، في إندونيسيا الحالية، على شنّ حرب مقدسة. 155 عندما دعاه المحتلون الإسبان عام 1861 لتحرير عبيده، أجاب سلطان ماغويندناو بأنه يُفضّل التخلي عن زوجته وأولاده على التخلي عن أسراه، لأنه سيفقد سلطانه بدونهم. 156 في موريتانيا، استخدم علماء الدين تحرير الفرنسيين للعبيد ذريعةً للدعوة إلى الهجرة والحرب المقدسة. 157وفي عام ١٩٢٦، اشتكى مسؤول صومالي بارز إلى مسؤول إيطالي قائلاً: "لقد هرب جميع عبيدنا ولجأوا إليكم، وقد أمرتم بإطلاق سراحهم. نحن مستاؤون من هذا. إنه لا يتوافق مع شريعتنا، إذ يجيز لنا شرعاً سجن العبيد وإجبارهم على العمل." نحن مسلمون حقيقيون، نتبع هدي النبي محمد وجميع الأولياء الصالحين. ١٥٨. نقرأ في كتابات فرانز فانون: "مهمة المستعمر هي أن يجعل حتى أحلام المستعمر بالحرية مستحيلة"، وهو يتجاهل، على نحو متسرع، حقيقة أن المقاومة المحلية للإمبريالية كانت، في كثير من الحالات، مقاومة

لإلغاء الرق. ١٥٩. في زنجبار، اعترض سلطان عُمان، السيد سعيد، عام ١٨٢٦ على دعوات البريطانيين لمحاربة الرق، بحجة أن هذه السياسة قد تجعله عدوًا لجميع المسلمين وتجبره على المنفى. ١٦٠. كان تعزيز السيطرة الأوروبية في المحيط الهندي هو ما أدى إلى تراجع تجارة الرقيق في المنطقة. ١٦١. في أرخبيل جزر القمر، ألغى الفرنسيون الرق جزيرةً تلو الأخرى: في أعوام ١٨٤٧، ١٨٩١، ١٩٠٢، و١٩٠٤ في مايوت، أنجوان، موهيلي، وجزيرة القمر الكبرى. ١٦٢. ردًا على الضغط البريطاني، أكد ملك فارس، محمد شاه، استحالة إلغاء الرق في الأراضي الإسلامية، مُبرزًا الفرق بين المسيحية ودين محمد: "إذا كانت هذه التجارة تُعتبر، وفقًا لدينهم، ممارسةً مُنكرة، فهي مُباحة في ديننا. لماذا تُعتبر الأمور التي أباحها لنا نبينا مُحرّمة؟" وكرر الشاه أن "شراء النساء والرجال يستند إلى شريعة النبي الأخير. لا يُمكنني أن أمنع قومي مما هو مُباح في الشريعة". 163. عجز البريطانيون عن فرض إنهاء الرق في بلاد فارس، فاختاروا قطع إمدادات العبيد عبر إجراءات استهدفت استيرادهم، بهدف القضاء على نظام الرق

نهائياً. ولم يُصدر مرسوم إلغاء الرق هناك إلا عام 1929 من قِبل رضا شاه بهلوي. اتبع البريطانيون الاستراتيجية نفسها مع العثمانيين، ونجحوا في قمع تجارة الرقيق في منطقة الخليج عام 1847، وحظر تجارة الرقيق الأبيض من سواحل جورجيا والشركس عام 1854، وحظر تجارة الرقيق السود إلى كريت ويوانينا عام 1855، والحظر العام لتجارة الرقيق عام 1857، من بين تدابير أخرى، على الرغم من أن العثمانيين لم يلغوا الرق بشكل كامل164 ويذكر المؤرخ إيهود توليدانو: "لم تظهر أي حركة فعّالة لإلغاء الرق في الإمبراطورية العثمانية"، ويجادل بأن السياسة العثمانية تجاه هذه المؤسسة "يمكن وصفها بأنها مقاومة مستمرة - سلبية وإيجابية، وبدرجات متفاوتة من الشدة - للضغوط البريطانية المناهضة للرق". كان يُنظر إلى العبودية على أنها أمرٌ مُسلّم به، وكانت فكرة إلغائها غريبةً عنهم؛ فقد أتت من إنجلترا، ولم تُفهم جيدًا، ولم تُؤثر فيهم إلا قليلًا أو لم تُؤثر فيهم على الإطلاق165 وقد ربط المؤرخ العثماني أحمد جودت باشا ضعف الأتراك مباشرةً بضعف تجارة الرقيق، قائلًا: "فقدت

الدولة قوتها السابقة، واختفى مجد وكرامة كبار مسؤوليها السابقين. ولهذا السبب، بدأ التدخل الأجنبي يظهر جليًا، وتحولت الإمبراطورية العثمانية إلى دولةٍ بائسة. وقد أكد حظر الرقيق السود هذا الوضع بشكلٍ قاطع."166 وبأمرٍ من البريطانيين، لم تخلُ سياسة إلغاء الرق العثمانية من إثارة الثورات، إذ قال: "إن حظر الرقيق يُخالف الشريعة الإسلامية. وبهذه المقترحات، أصبح الأتراك كفارًا." «دماؤهم تُراق، ويجوز استعباد أبنائهم»، هكذا أعلن الشيخ جمال عام ١٨٥٧ من إقليم الحجاز المقدس، الذي كان في الوقت نفسه مزارًا ومستودعًا ضخمًا للعبيد١٦٧ ولم تتخذ دول الخليج، تحت ضغط خارجي، إجراءات فعّالة ضد هذه المؤسسة إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وبينما حاولت بعض الأصوات الإسلامية إضفاء الشرعية على سياسات إلغاء الرق الغربية، فإن تأثيرها محل شك١٦٨ وفي خضم هذا البحر من اللاإنسانية، يُحتفى أحيانًا بالاستثناء التونسي: إذ يُقال إن وصاية تونس كانت أول نظام إسلامي يُلغي الرق بمبادرة منه عام ١٨٤٦١٦٩ لكن الحقيقة مختلفة تمامًا. فأحمد

بك، الذي دعاه القنصل البريطاني توماس ريد للتصدي لهذه المؤسسة، لم يُبطل مبدأ الرق قط. في أحسن الأحوال، زعم أن معايير شرعية استعباد البشر لم تعد مستوفاة أو أنها معرضة للانتهاك بسبب سوء معاملة الأسرى، معربًا عن أسفه لأن وجود العبيد كان ذريعة للتدخل الأوروبي في بلاده. وأخيرًا، لم يتمكن النظام التونسي قط من القضاء على تجارة الرقيق والرق، الذي استمر على الأقل حتى الحماية الفرنسية. وعلى الرغم من الجهود المبذولة للقضاء على العبودية على مدى القرنين الماضيين، لا يزال الرق قائمًا في العديد من البلدان. في سبتمبر/أيلول 2022، قدّر تقرير التقديرات العالمية للرق الحديث، الصادر عن منظمة العمل الدولية والمنظمة الدولية للهجرة ومنظمة "ووك فري" غير الحكومية، عدد المتضررين من الرق الحديث بنحو 50 مليون شخص. ويشير التقرير إلى أن دول الخليج العربي تُشكّل المنطقة التي ينتشر فيها الرق على نطاق واسع، بينما تُمثّل الدول الإسلامية نسبة كبيرة من الدول الأكثر تضررًا من هذه الآفة. استغلال آخر لمعذبي الأرض.

4. التقدميون والبرابرة النبلاء.

يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون.

يسوع المسيح.

"سيضيف كل قرن أنوارًا جديدة إلى أنوار القرن الذي سبقه؛ وهذه التطورات، التي لا

يمكن لأي شيء أن يوقفها أو يعطلها من الآن فصاعدًا، لن يكون لها حدود سوى حدود عمر الكون." بهذه الكلمات المتفائلة، يغلق كوندورسيه أبواب القرن الثامن عشر ويفتح أبواب القرن التاسع عشر. قرن مثالي، مدفوع بقناعة أن البشرية "تسير على الطريق الذي يؤدي مباشرة وبلا شك إلى أفضل العوالم الممكنة". أطاحت الثورة الفرنسية بامتيازات النظام القديم. اجتاحت موجة الصدمة التي أحدثتها أوروبا وهزت أبواب الشرق، الذي استنكر "التعاليم الزائفة" التي روج لها الهراطقة الذين حرموا الفرنسيين من "خشية الله والعقاب". في عام 1798، حذر وزير الخارجية العثماني حكومته من فرنسا الملحدة هذه حيث "سُعي إلى المساواة والحرية بأي ثمن، آملين من خلالها تحقيق السعادة الكاملة في هذا العالم". تبنّت الليبرالية مبدأ القوميات. وازدهرت الصناعة. وتوسّع نطاق التجارة والمدن. وتحسّنت النظافة بالتزامن مع ارتفاع متوسط العمر المتوقع. وأصبحت البرلمانات أكثر فاعلية. وتوقّف التعليم تدريجيًا عن كونه حكرًا على النخبة، بينما اتسع نطاق المستفيدين من التأمين ببطء ولكن بثبات. قبل

ستين عامًا من ثورة أكتوبر، لاحظ فريدريك إنجلز، الذي برز عام 1845 بدراسته لمعاناة الطبقة العاملة الإنجليزية، لماركس، بنبرة تجمع بين الدهشة والاستياء الطفيف، أن "البروليتاريا الإنجليزية تتحوّل أكثر فأكثر إلى برجوازية، لدرجة أن هذه الأمة، الأكثر برجوازية على الإطلاق، تبدو وكأنها تتجه نحو وجود أرستقراطية برجوازية وبروليتاريا برجوازية إلى جانب البرجوازية". هذا السيناريو، المروع لأنه يجعل الثورة الكبرى عتيقة، يمنح القارة العجوز قوة تسمح لها بتوسيع نفوذها إلى عوالم كانت في السابق بعيدة المنال. «أوروبا هي أصغر أجزاء العالم الأربعة، لكنها [...] بلغت من القوة حدًا لا يُضاهى في التاريخ»، هكذا لاحظ جوكور في القرن الثامن عشر. من أروع العوالم الممكنة إلى الكوارث العظيمة، أغوى نمط الحياة الغربي شريحة من النخب الشرقية. «قريبًا سيختفي الحجاب، الذي يزداد رقةً يومًا بعد يوم، عن وجوه النساء، وسيختفي الإسلام معه تمامًا. يتناقص عدد الحجاج إلى مكة يوميًا. والعلماء يسكرون كالسويسريين. إنهم يتحدثون عن فولتير!» هكذا يرثي فلوبير بشدة، وهو يُمعن النظر في القسطنطينية وعاداتها التي

تتلاشى غرابتها تدريجيًا، بينما ترسخ اللغة الفرنسية مكانتها كوسيلة للوصول إلى الحداثة بين الطبقات العليا في الإمبراطورية العثمانية، مما يثير استياء المحافظين. أوروبا في أوج قوتها. لا قوة تستطيع أن تُطيح بها. في عام ١٩١٠، نشر الكاتب البريطاني نورمان أنجيل كتابه الأكثر مبيعًا، "الوهم الكبير"، الذي أعلن فيه نهاية الحرب. يروي ستيفان زفايغ بحنين: "كان أي تحول جذري، أي عنف، يبدو شبه مستحيل في عصر العقلانية هذا". كان ذلك بمثابة تجاهل للطبيعة البشرية، التي مُنحت "هذه القدرة اللامتناهية على إنجاب أطفال ورجال يكرهون النظام الاجتماعي والسياسي الذي يولدون فيه، ويكرهون الهواء الذي يتنفسونه، رغم أنهم يعيشون فيه ولم يعرفوا غيره". حطم القرن العشرون تفاؤل زفايغ ومعاصريه بما حمله من فظائع، ونزعات قومية، وتراجعات، وحروب شاملة، وديكتاتوريات، وإبادات جماعية، بينما انكشفت جرائم النظام الاستعماري ومظالمه أمام أعين الجميع. احتج الطبيب الشهير سيزار لومبروزو عام ١٩٠١ قائلاً: "لقد شهدنا وحشية الحرب تنطلق من أقصى الأرض إلى أقصاها، في

أفريقيا والفلبين والصين، وذلك بسبب شعوب كنا نعتقد في البداية أنها الأكثر تحضرًا، والأكثر إخلاصًا للسلام."١١ وتلاحظ القارة التي تنصب نفسها على واجب تحضير "الأعراق الأدنى" أن البربرية لم تفارقها قط. ثم جاء تصريح سيزار: "أوروبا لا يمكن الدفاع عنها روحيًا وأخلاقيًا."١٢ وعلى الرغم من سخافاته التي جعلت من الاتحاد السوفيتي نموذجًا يُحتذى به، إلا أن سيزار كان محقًا. فالقارة التي كانت مهدًا للعديد من المدن الفاضلة، لا عذر لها على الإطلاق في الغرق في هذا البؤس وتدمير وعد عالم أفضل تخيله الكثير من المثاليين. أزمة الثلاثينيات كبش فداء ملائم لما لا يُغتفر. كانت فرنسا الريفية، التي دمرها الجوع، هي من حررت اليهود وكرست الحرية الفردية كمبدأ لا يُنتهك. كانت أوروبا الأكثر تعليمًا وتصنيعًا هي من أنجبت درومون وكتابه "كفاحي". بدأ انحطاط أوروبا الحضاري قبل أن تكشف عنه الأزمات المالية. احتكار التوبة: القرن العشرون وصمة عار في تاريخ الغرب العظيم. ومن هنا إلى إلقاء اللوم على نفسها في كل شرور العالم، خطوة قصيرة، خطوة تخطوها أوروبا بفرح غريب. يُغفر للسكان الأصليين ذنوبهم،

مثل كريستوفر كولومبوس، الذي ساهم في أسطورة الإنسان البدائي النبيل من خلال مدح هؤلاء الهنود باعتبارهم خالين من كل العيوب: "إنهم لطفاء للغاية ويجهلون ماهية الشر". يحذو مونتين حذوه، وينتقد بشدة أولئك الذين يتخذون من تخلفهم ذريعةً لاستعبادهم، قائلاً: "لذلك، يحق لنا أن نطلق عليهم اسم البرابرة، وفقًا لقواعد العقل، ولكن ليس بالنسبة لنا، فنحن نتفوق عليهم في كل أنواع البربرية". من جانبه، رثى عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي شتراوس هذه المجتمعات "التي دمرتها تلك الكارثة المروعة التي لا يمكن فهمها، والتي كانت، بالنسبة لشريحة كبيرة وبريئة من البشرية، تطور الحضارة الغربية". ولكن ما معنى هذا التسامح السخي مع الحضارات الأجنبية، في حين أن التاريخ هو "سجل جرائم البشرية وحماقاتها ومصائبها"؟ سيرى البعض في ذلك كراهية الذات التي تميز الغرب. في أعماله الرائدة، ناقش الكاتب باسكال بروكنر ببراعة هذه المسيحية غير المستوعبة جيدًا، والتي يعتبرها أصل هذا الجلد الذاتي. لكن قد يكون، في الواقع، أن احتكار الأوروبيين للتوبة ينبع من شعور معاكس: فهم، لافتقارهم

للتواضع، يعتقدون أنهم يتحملون عبء عالم عاجز عن تحمل مسؤولية نفسه. وقد أكد الشاعر شيلر قائلاً: "إن الشعوب التي اكتشفها الملاحون أشبه بأطفال من أعمار مختلفة يحيطون بشخص بالغ". أليس الأطفال، كالمجانين، معفيين من واجب المثول أمام المحاكم؟ في اللحظة التي كانت روما ترزح تحت وطأة الغزوات البربرية، برر سالفيان المارسيلي، الناسك المسيحي، هؤلاء المخربين الأبرياء، لجهلهم بالأخلاق، على عكس الرومان الذين أذنبوا عن علم: "باستثناء تلك القلة من الرومان الذين ذكرتهم للتو، أؤكد أن جميعهم، أو معظمهم، يعيشون حياة أكثر إثمًا وجريمة من البرابرة. لنقارن حياة البرابرة بميولنا وأخلاقنا ورذائلنا. البرابرة ظالمون، ونحن كذلك؛ هم جشعون، ونحن كذلك؛ غادرون، ونحن كذلك؛ باختصار، يتسم البرابرة بشتى أنواع الانحرافات والنجاسة، ونحن كذلك. جميع البرابرة، كما ذكرت سابقًا، إما وثنيون أو زنادقة؛ سأتحدث أولًا عن الوثنيين، لأن ضلالهم هو الأقدم. [...] الساكسونيون قساة، والفرنجة غادرون، والجيبيديون لا إنسانيون، والهون وقحون؛ باختصار، حياة كل هذه الشعوب

البربرية هي الفساد بعينه. ولكن هل رذائلهم تضاهي رذائلنا في الإدانة؟ هل وقاحة الهون تضاهي إجرامنا؟ هل سوء نية الفرنجة يبرر ذنوبنا؟ [...] إذا كذب فرنجي، فما الغريب فيه، وهو يعتبر الكذب أسلوب كلام لا ذنبًا؟ وما المستغرب من تفكير البرابرة بهذه الطريقة، وهم يجهلون الشريعة والله، بينما يفكر معظم الرومان بالمثل، مع أنهم يعلمون تمامًا أنهم يرتكبون الخطيئة؟ [...] فما المستغرب إذن من خداع البرابرة، وهم لا يعلمون أن الخداع جريمة؟ إنهم لا يفعلون شيئًا استخفافًا بالوصايا السماوية، لأنهم يجهلون وصايا الرب. من يجهل الشريعة لا يخالفها. 19. خلافًا للمقولة الشائعة بأن لا أحد يُفترض أنه جاهل بالقانون، فإن البربري يستفيد من ظروف مخففة بسبب جهله بالمعايير الأخلاقية. أما الرومان، فهم لا يُغفر لهم، أولئك الذين ينتهكون المبادئ الأخلاقية التي يُفترض أنهم على دراية بها. ولذلك، فإن التوبة الحصرية تعكس شعورًا بالتفوق وازدراءً للأمم التي تُعتبر عاجزة عن الارتقاء إلى مستوى الحضارة. وبوضع نفسه كفاعل وحيد في التاريخ، كشخص بالغ معزول في عالم يُعتبر غير ناضج، يستأثر الأوروبي

لنفسه بامتياز المثول أمام محكمته.إنّ الغربي، الذي لا يحكم إلا على نفسه، مقتنعٌ بأنه وحده قد بلغ سنّ الرشد ويستحقّ أن يُحاسب، بينما من العبث أن يتوقّع أيّ شيء من الأمم الأخرى الغارقة في وضعها كأقلية. العنصرية، والإمبريالية، والعبودية، والإبادة الجماعية، والديكتاتوريات، ومحاكم التفتيش، وكراهية النساء: في نظر منتقديه، تبدو الفظائع التي طبعت تاريخ الغرب أشدّ وطأةً لأنّ الأوروبيين لم يكن لديهم أيّ عذر، بالنظر إلى مستوى التنوير الذي بلغوه. إنّ إعلان الرواقيين عن وحدة البشرية قبل العصر المسيحي، واقتناع أفلاطون بأنّ النساء والرجال مدعوون إلى نفس التعاليم والوظائف، ويقين ترتليان بأنّ لا الآلهة ولا البشر يُقدّرون الخضوع القسري، وإدانة دانتي للحرب، ومشاريع السلام الكبرى والدائمة التي تتغلغل في الفكر السياسي الغربي - كلّ هذه الإنجازات الأدبية والفلسفية كان ينبغي أن تحمي أوروبا من تجاوزاتها. من حق الأوروبي التائب ألا يغفر لنفسه تقصيره في الالتزام بالمبادئ التي كانت في متناول يده، بالنظر إلى تاريخه الحافل بالإنجازات السياسية والأدبية. ومع ذلك، فهو أكثر تسامحًا

مع إخفاقات العرب والأفارقة وغيرهم من الشعوب، معتقدًا أن مطالبتهم بالمعايير نفسها أمر غير منطقي. بهذا المعنى، يُعدّ الإسلام مناسبًا لهذه الشعوب ذات "العقلية البدائية"، على حد تعبير مسؤول استعماري فرنسي حثّ مواطنيه على عدم محاولة تحويل الأفارقة إلى دين مسيحي يصعب فهمه على هؤلاء المتوحشين21 ولا يُستبعد أن يكون ميل بعض نخبنا اليوم إلى الإسلام مختلفًا عن أشكاله القديمة في أنه لا يزال يتغذى سرًا على هذا النوع من المشاعر المتعالية، وإن نُقل إلى سياق آخر، ولكنه مشبع بازدراء عميق22 وفي مفارقة عجيبة، دعا سعيد أيضًا إلى التسامح مع المجتمعات المسلمة، "المتهمة بالتخلف، وانعدام الديمقراطية، وعدم الاكتراث بحقوق المرأة. لدرجة أننا ننسى أن مفاهيم مثل الحداثة، والتنوير، والديمقراطية ليست مفاهيم بسيطة وواضحة يكتشفها الجميع في النهاية، مثل بيض عيد الفصح المخفي في حديقتهم." 23 ووفقًا لمن يدّعون محاربة الصور النمطية المحيطة بالشرق، فإن بعض الشعوب عاجزة عن بلوغ التنوير. انطلاقًا من هذه الأحكام المسبقة، رأت وزيرة العدل الفرنسية السابقة

أنه من غير الضروري إدراج تجارة الرقيق العربية الإسلامية في الذاكرة الجماعية لفرنسا، التي دُعيت مع ذلك إلى احتضان هويتها التعددية: "يجب ألا نتحدث كثيرًا عن تجارة الرقيق العربية الإسلامية حتى لا يتحمل الشباب العربي كامل وزر أفعال العرب المشينة"، هذا ما أكدته كريستيان توبيرا في عرض لا مثيل له من الازدراء24 يُفترض أن السكان الأصليين غير قادرين على التعامل مع تاريخ أجدادهم بعين ناقدة. وبينما كان من الممكن إحضار الحيوانات أمام قاضٍ في العصور الوسطى، يُحرم الشرقي من كرامة المساءلة بحجة كونه أقلية. مع ذلك، وبالنظر إلى أن المسيحية سبقت الإسلام بعدة قرون في العالم، لا يسعني إلا أن آمل أن يتحرر المجتمع الإسلامي يوماً ما من قيوده، وأن يسير بخطى ثابتة على درب الحضارة، كما فعل المجتمع الغربي، الذي لم تكن المسيحية، رغم صرامتها وتعصبها، عائقاً لا يُمكن تجاوزه. هذا ما اعترض عليه جمال الدين الأفغاني، الداعية الإسلامي، رداً على اتهامه للحضارة الإسلامية بأنها لا تتوافق، في رأيه، مع الروح الفلسفية. هنا، يُعزى الطابع الراقي لأوروبا إلى

عراقة المسيحية، بينما يُقال إن وصول الإسلام لاحقاً يُفسر تخلف المجتمعات الخاضعة له. لقد تحولت هذه الدعوة إلى الصبر، مع مرور الوقت، إلى عبارة مبتذلة خطيرة تُفضي إلى التسامح مع ما لا يُطاق. في فيلمه "الإمام الشاب"، يُظهر المخرج كيم شابيرون، بنصيحة من الباحث الإسلامي رشيد بنزين، شخصيته تقول بنبرةٍ فيها شيء من الانزعاج: "بينما استغرقت المسيحية أربعة قرون لتقبّل النقد، يُطلب من الإسلام إحداث هذه الثورة اللاهوتية في غضون عقود قليلة!". هل يُعقل أن نستنتج أن على المستنيرين التكيف مع المتدينين والسماح لأنفسهم بالتعرض للاضطهاد لبضعة قرون أخرى، إلى أن يتفضل المتعصبون بالإصلاح؟ وعلى أي أساس؟ إن ذريعة كون المسلمين أقلية لا تُعدّ إهانةً للسكان الأصليين الذين اندمجوا سريعًا في الحداثة فحسب، بل تتجاهل أيضًا حقيقة أن الثقافات الأقل تقدمًا لا تتطور بمعزل عن غيرها. بإمكانها، فورًا، إن أرادت، الاستفادة من تاريخ المجتمعات الأكثر تحررًا، فلا حاجة لها لخوض تجاربها ومعاناتها لتتوافق مع معاييرها. كما تتجاهل ذريعة كون المسلمين أقلية حقيقة أنهم لم يعيشوا في

عزلة عن العالم قبل اتصالهم ببقية البشرية، كما فعل سكان أمريكا الأصليون الذين اكتشفوا السفن الشراعية بين عشية وضحاها. ليس صحيحًا، كما يدّعي هذا الشخص الذي ابتكره هولبيك، أن الإسلام "لم يكن ليولد إلا في صحراء قاحلة، وسط بدو قذرين". بل إن الأمر أسوأ من ذلك بكثير. إنه تخريب مُتعمّد. دعونا نؤكد أن الإسلام وُلد في أحد أقدم مفترقات الحضارات. وُلد وفي فمه ملعقة من ذهب. لقد تطور في العوالم اليونانية الرومانية واليهودية والمسيحية، كما يتضح من الإشارات التوراتية والعهد الجديد في القرآن: بعض آيات القرآن كُتبت على يد كُتّاب ذوي معرفة عميقة بالمسيحية ونصوص مسيحية محددة. وهكذا، وراء كتابة آيات كاملة من القرآن، يوجد أناس يمتلكون مهارات ومعرفة تُضاهي تلك التي يمتلكها علماء المسيحية27 من هذه العوالم، استولى الإسلام على أكثر المقاطعات ثراءً وثقافة. وظل المسلمون أقلية في هذا العالم الراقي لفترة طويلة. كان بين أيديهم كل شيء، حرفيًا كل شيء، الإرث غير المادي الذي أنجب أكثر المجتمعات تحررًا. علاوة على ذلك، فإن وصول الإسلام في وقت متأخر بالنسبة

للعقائد والأديان القديمة هو ظرف متفاقم وليس ظرفاً مخففاً بأي حال من الأحوال: فالأفكار الجديدة دائماً ما تكون لها الأفضلية على الأفكار السابقة. «من المناسب أن نعامل خلفاءنا كما عاملنا أسلافنا؛ مع اختلاف أننا اكتشفنا تعاليم أكثر مما اكتشفوا، كما سيكتشف خلفاؤنا أكثر مما نكتشف»، كتب الجاحظ، أي أن مؤسسات البشرية ومعارفها يُتوقع أن تتحسن مع مرور الوقت28 من قال إن النظرة الخطية للتقدم حكرٌ على الغرب؟ إن التمسك بالجمود الفكري في العصور الوسطى أمرٌ، أما البقاء على هذا النهج لعدة قرون بعد داروين فهو أمرٌ لا يُغتفر، بالنظر إلى المزايا التي يمنحها اكتساب المعرفة الجديدة. فكل من يطور نظرية جديدة في القرن الحادي والعشرين في أي مجال يستفيد من حقائق وأخطاء وجهود أسلافه المتراكمة. ويُتوقع منهم صقل تعاليم الماضي دون إنكار التقدم الذي أحرزته الأجيال السابقة. على أي أساس تم إعفاء الأديان من هذا الشرط الأساسي؟ لا يزال من الممكن فهم المقاطع المبتذلة الموجودة في الكتاب المقدس، وخاصة في العهد القديم. يحتوي هذا العمل على العديد من

الأساطير والقصص التي نُسجت قبل عدة قرون من عصرنا. في سياق حضارات الشرق الأدنى القديمة29 وكما أنه من القسوة انتقاد حمورابي لعدم تطبيقه حقوق الإنسان، فمن غير المناسب انتقاد أسطورة سليمان لعدم كتابتها بلغة شاملة. ومع ذلك، فقد مرّ أكثر من ألف عام بين كتابة أسطورة سليمان وتأليف سيرة محمد والقرآن. فترة شهد خلالها العالم ظهور شخصيات مثل هوميروس، وإيسوب، ولاو تزو، وبوذا، وفيثاغورس، وكونفوشيوس، وكليستينيس، وسوفوكليس، وسقراط، وأريستوفان، وأفلاطون، وديموقريطس، وأرسطو، وإبيقور، والإسكندر الأكبر، وأشوكا، وإقليدس، وأرخميدس، وفالميكي، وهليل الأكبر، وفيلو الإسكندري، وبلينيوس الأكبر، ومؤلفي الأناجيل، وغريغوريوس النيصي، وغيرهم الكثير من العظماء الذين يستحيل تكريمهم في عمر واحد. مع ذلك، لم يكن مؤسسو الإسلام جاهلين تمامًا بأرقى التقاليد التي سبقتهم. علاوة على ذلك، كان سبب كتابة سيرة محمد هو "حاجة علماء المسلمين إلى إنتاج نص تاريخي في مواجهة منافسة الأناجيل، وتأكيد، في مواجهة العقيدة المسيحية، على

شخصية نبي تنبأت به الكتب المقدسة السابقة، مساويًا ليسوع دون أن يكون ذا طبيعة إلهية"، كما نقرأ في كتابات المؤرخة فرانسواز ميشو، التي تذكرنا بأن كتّاب سيرة محمد أعادوا صياغة هذه الروايات "بإزالة السمات التي قد تسيء إلى صورة النبي".30 من الواضح أن عملية التبييض الواسعة هذه لم تشمل قمع التعذيب والذبح والحروب والنهب واستعباد النساء والأطفال31 بعيدًا عن كونها مفارقة تاريخية، كان التنديد بأكثر جوانب النبوة الإسلامية شهرة، في الواقع، من عمل أوائل شهودها: "هل يأتي الأنبياء مسلحين من الرأس إلى أخمص القدمين؟" نقرأ في كتاب "دوكترينا جاكوبي"، الذي ألفه في القرن السابع. ٣٢ وهنا يكمن الجانب الأكثر إثارة للقلق في الإسلام: كُتبت بعد مئتي عام من الأحداث التي تدّعي سردها، وتفتقر إلى أي أساس تاريخي، مما يجعل من المستحيل إعادة بناء حياة محمد، إذ كان من الممكن أن تصوّر أقدم سيرة ذاتية باقية شخصية مختلفة تمامًا عن تلك التي رسمها المسلمون. لم ينقل محمد التكنولوجيا إلى البشرية على حساب سلامته الجسدية، كما فعل بروميثيوس. ولم يحمِ الأدب والعلوم،

مثل الإله الآشوري البابلي نابو. ولم يعلّم أتباعه بناء المعابد وزراعة الأراضي، مثل الإله الميزوبوتامي أوانيس. في مقابل روايات الأناجيل التي ينقذ فيها يسوع امرأة من الرجم، يعارض المسلمون بشدة نبيًا يقطع الرؤوس وينهب القوافل ويُجيز عددًا غير محدود من سبايا الجنس. ورغم استنادهم إلى العادات اليهودية، لم يُحسّن مؤلفو القرآن ومُجمّعو أقوال وأفعال محمد الوصايا العشر. بل أعادوا تدوير أكثر معايير اليهودية القديمة تواضعًا وقِدمًا، مثل نبذ الأيقونات، والرجم على الزنا، والقيود الغذائية التعسفية33 ورغم استنادهم إلى الروايات المسيحية، لم يتبنوا موعظة الجبل ولم يُحسّنوها. ورغم وراثتهم للمؤسسات البيزنطية، فقد سمحوا بزواج واغتصاب الفتيات قبل سن البلوغ، بينما كان القانون الروماني يُعاقب على إغواء فتاة دون الثالثة عشرة من عمرها بالبتر34 وإذا كانت سيرة الإسلام تبدأ، على حد تعبير بروديل، بالتاريخ الطويل للشرق الأدنى، فمن باب التقليل القول إن هذا التاريخ قد انحرف عن مساره. وأن هذا الدين قد فوّت فرصة الظهور على الساحة العالمية. إن الاعتقاد بأن التاريخ

العظيم للشرق سيبلغ ذروته في وحي بدوي يتاجر بالرقيق هو، على أقل تقدير، أمرٌ عبثي. لا شيء أكثر إهانة لكرامة الشرق والإنسانية من التفاسير المتعالية التي ترى في ما يُسمى بالوحي القرآني، كما اخترعه المسلمون، نصًا "مُلائمًا بشكلٍ رائع لاحتياجات وظروف اللحظة"35 وفي معرض حديثه عن "المحاولات الدينية الثلاث الكبرى التي بذلتها البشرية لتحرير نفسها من اضطهاد الموتى، وشرور الآخرة، ومخاوف السحر" - والتي هي، بحسب رأيه، البوذية والمسيحية والإسلام - رأى ليفي شتراوس "أنه من اللافت للنظر أن كل مرحلة، بدلًا من أن تُشير إلى تقدم على سابقتها، تُشير بالأحرى إلى تراجع...؛ فالتطور العقلاني هو عكس التطور التاريخي: لقد شق الإسلام عالمًا أكثر تحضرًا إلى قسمين". إن حقيقة أن القرآن الكريم قد اكتمل في القرن العاشر الميلادي تقريبًا، وأن الشريعة الإسلامية قد تبلورت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، أي بعد فترة طويلة من بدء العصر المسيحي، تعني أن المسلمين كان بإمكانهم، بل وكان ينبغي عليهم، صقل إرث العصور القديمة المتأخرة لتطوير قيم أكثر رقيًا من قيم

الأنظمة السابقة. إلا أن العكس هو ما حدث. لم يكتفِ الإسلام بتدمير الحضارة في الشرق، وبالتالي تدمير البشرية جمعاء، بل حاول التستر على جريمته بتشويه صورة الشرق القديم، حتى يتستر الظلام برداء النور. "إن الجزيرة العربية قبل الإسلام، كما يتصورها علماء الإسلام، فوضوية، وأمية، وتكاد تكون وثنية بالكامل." نعلم الآن أن هذه الصورة بعيدة كل البعد عما يكشفه علم الآثار، كما يشير المؤرخ كريستيان روبن، الذي يفسر هذا التناقض بأن علماء المسلمين لم يقصدوا كتابة روايات تاريخية، بل توضيح معنى النص القرآني، والإجابة عن الأسئلة الدينية، وإبراز جميع الجوانب الإيجابية التي جلبها اعتناق الإسلام للمؤمنين. كان منهج هؤلاء العلماء في المقام الأول دفاعيًا38 هكذا يجب أن نفسر الأساطير التي نشرها مؤلفون مسلمون أوائل، والتي تفتقر إلى المصداقية، والتي تزعم أن الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت تدفن الفتيات الرضيعات أحياء، وتحرمهن من أي فرصة للميراث أو شغل مناصب اجتماعية مرموقة، قبل أن ينقذهن محمد من هذه الممارسات39 في الواقع، توجد أمثلة في

الجزيرة العربية قبل الإسلام لنساء امتلكن أراضي، وتم الاعتراف بهن رسميًا في الوثائق القانونية. مُنحن الحق في المثول أمام المحكمة بأسمائهن، وكذلك الحق في الميراث. كان بإمكان النساء الحصول على وثائق قانونية دون الحاجة إلى وصي. وهناك أيضًا أمثلة لنساء عملن كقاضيات في حل النزاعات. تمتعت الملكات والآلهة والنبيات، بالإضافة إلى نساء الطبقة العليا، بمكانة رفيعة وحقوق وامتيازات قانونية. كانت صور الملكات تُطبع على العملات المعدنية، وهنّ يرتدين أثوابًا طويلة مربوطة عند الخصر. من الملكة زبيبي إلى ماوية، مرورًا بمملكة لحيان القديمة، وثّق المؤرخون العديد من الحالات التي شغلت فيها النساء في الجزيرة العربية قبل الإسلام مناصب مرموقة.في جنوب الجزيرة العربية، تُعدّ النساء فاعلات اقتصاديات "يُجرين معاملات عقارية أو مالية، إما لحسابهن الخاص أو بالشراكة مع الرجال. وتؤكد نصوص قصيرة عديدة الحضور القوي للمرأة في الحياة الاقتصادية"42 وترى المؤرخة المصرية ليلى أحمد أن الحضارة الإسلامية طوّرت مفهومًا للتاريخ يُصوّر فترة ما قبل الإسلام كعصر جهل،

ويُقدّم الإسلام كمصدر وحيد للحضارة، وقد استخدمت هذا المفهوم بفعالية بالغة في إعادة كتابة التاريخ، لدرجة أن شعوب الشرق الأدنى فقدت كل معرفة بحضارات المنطقة السابقة. من الواضح أن هذا البناء كان مفيدًا أيديولوجيًا، إذ نجح في إخفاء، من بين أمور أخرى، حقيقة أن وضع المرأة في بعض ثقافات الشرق الأدنى كان أفضل بكثير قبل ظهور الإسلام منه بعده43 ومع ذلك، ورغم قصورهم، فإن دعاة الإسلام عاجزون عن محو جميع آثار أفعالهم المشينة. وليس من النادر أن تفضح المصادر الإسلامية نفسها وتُناقض الصورة المتخلفة للجزيرة العربية القديمة التي يحاولون نشرها. من المثير للدهشة أن نلاحظ أن الأساطير الإسلامية تصوّر خديجة، الزوجة الأولى لمحمد، كسيدة أعمال مزدهرة في هذه الجزيرة العربية المتخلفة والوثنية، وذلك قبل أن يبدأ النبي المزعوم دعوته الكارثية. يمكن تعديل حكمة سيزار: الإسلام لا يُمكن الدفاع عنه.

٥- الرجعيات والاستبداد

الآن، أصبح الأوروبيون على دراية بالعالم أجمع؛ فهم يرسلون سفنهم إلى كل مكان ويستولون على الموانئ المهمة [...].

يجب على الإمبراطورية العثمانية الاستيلاء على سواحل اليمن والتجارة التي تمر عبرها؛ وإلا، فسرعان ما سيحكم الأوروبيون أراضي الإسلام.

عمر طالب، رعية عثمانية من القرن السابع عشر.

"لماذا تخلف المسلمون ولماذا تقدم الآخرون؟" تساءل الدرزي اللبناني شكيب أرسلان في عنوان كتيب نُشر في ثلاثينيات القرن العشرين1 إن ملاحظة أن الشرق غارق في التخلف ليست مجرد فكرة استعمارية مبتذلة، بل إن العالم الإسلامي لم يتوانَ عن إدانتها. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر، نُشرت هناك مجموعة كبيرة من المقالات من قِبل مُصلحين جميعهم يُطورون فكرة مماثلة: "لماذا

تقدمت الأمم الأخرى، وتراجعنا؟"2 "مُتهم مثالي". تماشيًا مع استراتيجية كبش الفداء، كتب فرانز فانون أن ظهور المستعمر يعني "موت المجتمع الأصلي، والخمول الثقافي، وتحجر الأفراد"، مما يُعرّض المجتمعات التي تحتاج إلى مراجعة الذات للخطر3 إن المقولة الشائعة التي تُعزي نجاح الغرب إلى الإمبريالية والعبودية لا تُفسر سبب بقاء المجتمعات الأفريقية والإسلامية، التي شيدت إمبراطوريات شاسعة وتسامحت مع العبودية لفترة أطول، وأحيانًا بنسب أكبر، متخلفة4 ألم يكتب آدم سميث بالفعل في القرن الثامن عشر أن عمل العبيد أقل كفاءة من العمل الحر، بالإضافة إلى كونه غير أخلاقي؟5 ومع ذلك، فإن فكرة أن الأجانب مسؤولون عن بؤس الشرق تلقى صدى لدى شريحة كبيرة من السكان، كما يُشير الاقتصادي الأمريكي من أصل تركي تيمور كوران6 هذا الوهم لا يُفسر الهوة السحيقة التي فصلت الشرق عن الغرب قبل أن يستولي الأخير على الأول: "يبدو أن الاستعمار والإمبريالية، غير مُبررين كأي هيمنة مفروضة بالقوة، "إنها نتيجة للاختلافات بين الأمم أكثر من كونها سببًا لها"، لدرجة أن حتى

منتقدي المجتمعات البرجوازية لم يكونوا غافلين عن هذه التفاوتات، قبل أن يغيروا موقفهم تمامًا7 في عام نشر البيان الشيوعي، اعتبر فريدريك إنجلز غزو الجزائر حدثًا إيجابيًا في مسيرة التقدم: "لقد أجبر غزو الجزائر بالفعل بايات تونس وطرابلس، وحتى إمبراطور المغرب، على سلوك طريق الحضارة. لقد اضطروا إلى إيجاد مهن أخرى لشعبهم غير القرصنة [...]. وبينما قد نأسف لضياع حرية بدو الصحراء، يجب ألا ننسى أن هؤلاء البدو أنفسهم كانوا أمة من اللصوص، وكانت وسائل عيشهم الرئيسية تتمثل في مهاجمة بعضهم بعضًا أو القرويين المستقرين، والاستيلاء على ما يجدونه، وذبح كل من يقاوم، وبيع الأسرى الباقين في سوق الرقيق. تبدو كل هذه الأمم من البرابرة الأحرار فخورة ونبيلة ومجيدة من بعيد، ولكن اقترب منهم وستكتشف أنهم، مثل الأمم الأكثر تحضرًا، يحكمهم التعطش للربح، ولا يستخدمون إلا أقسى الوسائل وأكثرها وحشية. وعلى كل حال، فإن البرجوازي الحديث، بما يحيط به من حضارة وصناعة ونظام، وما يتمتع به على الأقل من قدر نسبي من التنوير، أفضل من

السيد الإقطاعي أو اللص المغير، اللذين ينتميان إلى حالة المجتمع البربرية. 8 وكان صديقه كارل ماركس شديد الانتقاد لحالة الهند عندما استولى البريطانيون على المنطقة:
يجب ألا ننسى أن هذه المجتمعات القروية المثالية، على الرغم من مظهرها البريء، كانت دائمًا أساسًا متينًا للاستبداد الشرقي، وأنها حصرت العقل البشري في إطار ضيق للغاية، جاعلةً إياه أداة مطيعة للخرافات وعبدًا للقواعد المقبولة [...]؛ يجب ألا ننسى أن هذه الحياة النباتية الراكدة غير الكريمة، هذا النوع من الوجود السلبي، من ناحية أخرى، أطلق العنان لقوى تدمير عمياء ووحشية، وجعل القتل نفسه طقسًا دينيًا في الهند [...]، وأن هذه المجتمعات الصغيرة حملت بصمة الطبقات الاجتماعية سيئة السمعة. والعبودية، إذ أخضعوا الإنسان للظروف الخارجية بدلًا من جعله سيدًا، وجعلوا من الدولة الاجتماعية قدرًا محتومًا، وأصلًا لعبادة بدائية للطبيعة، انعكس طابعها المهين في حقيقة أن الإنسان، سيد الطبيعة، ركع وعبد هانومان القرد، وسابالا البقرة [...]. في هذه الحالة، مهما شعرنا بالحزن لرؤية انهيار عالم قديم، يحق لنا أن

نهتف مع غوته: "هل يُعذبنا هذا الحزن، ما دام يزيد من فرحنا؟ ألم يسحق نير تيمور ملايين الأرواح البشرية؟" انقسام تاريخي. بغض النظر عن رأي المرء في خيالات ماركس، فمن الغريب اتهام بونابرت بأنه مسؤول عن جهل المصريين بالطباعة قبل غزوه، وانتظارهم عشرين عامًا بعد رحيله لتبنيها. مع ذلك، اضطر الكاتب المصري الجبرتي، المعارض الشرس لاحتلال بلاده، إلى الاعتراف بالانقسام بين بلاده والفرنسيين: "القرآن الكريم مترجم إلى لغتهم! وكذلك العديد من الكتب الإسلامية الأخرى [...]. لقد رأيت بعضهم يحفظون سورًا من القرآن عن ظهر قلب." يُظهرون اهتمامًا كبيرًا بالعلوم، وخاصة الرياضيات ودراسة اللغات، ويبذلون جهودًا جبارة لتعلم اللغة العربية ولهجتها. يكرسون أيامهم ولياليهم لذلك. يمتلكون كتبًا مخصصة لجميع أنواع اللغات، وتصريفاتها، وأصولها اللغوية. لديهم أدوات فلكية استثنائية ذات تصميم متقن، وأدوات لقياس الارتفاعات، ذات تصميم رائع ومذهل وثمين. كما يمتلكون تلسكوبات لرصد النجوم وقياس امتداداتها وأحجامها وارتفاعاتها واقتراناتها وتقابلاتها، بالإضافة إلى ساعات

مائية وساعات ذات علامات للدقائق والثواني، وكلها ذات تصميم رائع وثمين للغاية، وأشياء أخرى كثيرة.11 وقد لاحظ المصري، بعد أن شهد تجارب علمية غير مسبوقة، أن "هؤلاء الناس يعرفون أشياء كثيرة وتراكيب غير عادية؛ يحققون نتائج لا تُصدق."12 كيف نفسر أن الفرنسيين لم يقولوا الشيء نفسه عن خلفاء الفراعنة؟ يُقدم حوارٌ رواه الطابع أنطوان غالان بين نابليون وشخصيات محلية بارزة إجابةً جزئية: أخبر القائد العام الشيوخ أن العرب قد ازدهروا في العلوم في عهد الخلفاء، لكنهم الآن في جهلٍ مُطبق، ولم يبقَ شيءٌ من معارف أسلافهم. فأجاب الشيخ سعادت أنهم ما زالوا يملكون القرآن، وأن هذا الكتاب المقدس يحوي كل المعارف. فسأل الجنرال: "هل يُعلّم كيفية صنع المدافع؟" فأجاب جميع الشيوخ بثقة: "نعم". يُظهر هذا الرد المزدوج بوضوح حقيقتهم، وما يُمكن أن يكونوا عليه13 على الرغم من قسوة هذا الحكم، إلا أنه يتضاءل مقارنةً بالانتقادات اللاذعة التي وجّهها ابن خلدون للعالم العربي في القرن الرابع عشر: "لقد جعلت عادات وتقاليد الحياة البدوية العرب شعبًا فظًا و..." شعبٌ شرس. أصبحت

الفظاظة جزءًا لا يتجزأ من طبيعتهم [...]. هذا السلوك يعيق تقدم الحضارة [...]. انظروا إلى جميع البلدان التي فتحها العرب منذ القرون الأولى: لقد تلاشت الحضارة، كما تلاشت أعداد السكان؛ حتى التربة نفسها بدت وكأنها قد غيرت طبيعتها. في اليمن، جميع المراكز السكانية مهجورة باستثناء بعض المدن الكبيرة. وينطبق الأمر نفسه على العراق العربي؛ فقد اختفت جميع المحاصيل الجميلة التي غطاها الفرس. اليوم، سوريا مدمرة، ولا تزال إفريقية والمغرب العربي تعانيان من الدمار الذي ألحقه العرب14 ويبدو أن العثمانيين قد لاحظوا هذا التراجع منذ القرن السادس عشر15 ويمكن إيجاد دليل على ذلك في سلسلة من الأعمال، بدءًا من كوجو بك، التي أوضحت بوضوح أسباب هذا التراجع16 وعند زيارته لفيينا في القرن السابع عشر، انبهر العثماني أوليا جلبي بالطواحين والمغازل والعربات وغيرها من الأجهزة الآلية المنتشرة على نطاق واسع للاستخدامات المنزلية والحرفية المختلفة17 وخلال فترة الوصاية، كتب العثماني محمد أفندي باهتمام عن قناة دو ميدي وجسورها وأهوستها، التي تستحق أن تُعدّ من عجائب

الدنيا، وكذلك عن المرصد، حيث فُتن بالأدوات المخصصة لعلم الفلك18 وانطلاقًا من قلقه إزاء التراجع العسكري العثماني، قام مواطنه إبراهيم متفرقكة، وهو منشق من أصل مجري، بـ أشار أبو طالب خان، الذي يدين له المسلمون بظهور الطباعة بعد ثلاثة قرون من غوتنبرغ، في عام 1769 إلى أهمية نشر وتطوير المبادئ والقواعد التي تم ابتكارها مؤخرًا واعتمادها بشكل عام في جيوش ملوك وأمم الناصريين، والتي تم تطويرها تدريجيًا بفضل عناية وتطبيق الأشخاص الحكماء، ووصلت مؤخرًا إلى أعلى درجات الكمال من خلال سلسلة من الاكتشافات الجديدة، وكلها مناقضة للقواعد القديمة19 وفي نهاية المطاف، استعانت الإمبراطورية العثمانية بخبراء أجانب لتحديث جيشها خلال القرن الثامن عشر، لدرجة أن اللغة الفرنسية أصبحت إلزامية في المدارس البحرية والعسكرية الجديدة، ولم يخلُ الأمر من مقاومة محلية، لا سيما من العلماء والإنكشارية الذين تعرضوا في النهاية لمذبحة20 وأثناء تجواله في أوروبا بين عامي 1799 و1803، اندهش أبو طالب خان، وهو هندي فارسي الأصل، من وفرة

المنحوتات في المدن الأوروبية، والتي شبهها بالوثنية، وأعجب بالتقنيات المستخدمة في المطابخ الإنجليزية، والآلات التي تزود لندن بالمياه، والتجارب العلمية التي بدت "كالسحر"، و... المصانع التي تشير إلى الرغبة في تحسين حياة الناس: "في إنجلترا، أصبح معظم العمل سهلاً للغاية بمساعدة الميكانيكيين؛ ونتيجة لذلك، انخفضت أسعار السلع انخفاضًا كبيرًا. يُشيد الفارسي بهذه الاختراعات التي توفر "الكثير من الوقت والجهد لدرجة أن خادمين في إنجلترا يقومان بعمل خمسة عشر عبدًا في الهند". وبالخوض في العلوم السياسية، يُشير إلى أن التشريع البريطاني هو نتاج مداولات وليس أمرًا إلهيًا: حتى القوانين الجزائية يُلغى أو يُعدّل من قِبل البرلمان؛ لأن المسيحيين، على عكس أنظمة اليهود والمسلمين، لا يعترفون بأنهم تلقوا قوانين تتعلق بالشؤون الدنيوية من السماء، بل ينسبون لأنفسهم الحق في وضع الأنظمة التي تتطلبها متطلبات العصر. 22 ومما يثير اهتمامه أيضًا الحياة الفكرية الإنجليزية، وجمعياتها العلمية حيث تُفحص الاختراعات الجديدة بينما تُحسّن تلك المعيبة، ناهيك عن "تلك الصحف

التي بدونها ستكون حياتهم لا تُطاق". 23 في الوقت الذي أدلى فيه الفارسي بهذه الملاحظات، كانت معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة تتراوح بين 20 و50% في الدول الأوروبية الكبرى، و25-30% في اليابان، و15-25% في الصين، لكنها لم تتجاوز ٣٪ من سكان الدولة العثمانية٢٤ بالكاد بلغ متوسط عدد الكتب المطبوعة سنويًا من قبل العثمانيين ٢٨٥ كتابًا في عهد الخلافة عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩)، بينما تراوح إنتاج الكتب السنوي في فرنسا بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ كتاب في نهاية الإمبراطورية الأولى٢٥ خلال التعداد الثاني للجمهورية التركية عام ١٩٤٥، بلغت نسبة الأمية ٩٥٪ و٨٩٪ بين الأكراد والعرب، و٧٦٪ بين الناطقين بالتركية، و٥١٪ بين اليونانيين، و ٤٠٪ بين الأرمن٢٦ نحو مهمة التمدين. وهكذا، فإن الاستعمار الغربي "ليس هذا هو السبب الرئيسي الذي يمكن أن يعزو إليه المرء أوجه القصور لدى الرجال وكسل العقول في البلدان الإسلامية"، وفقًا لناشط الاستقلال الجزائري مالك بن نبي٢٧ أليس هذا دليلًا على زيف الادعاء بأن كل هل يُعدّ الاعتقاد بأن الحضارات متساوية ضربًا من ضروب الترف؟ لا يُمكن

لمن وضعتهم المصائب في أضعف الثقافات أن يتبنّوا هذا التحيز، وإلا سيُفنون دون أن يُرضوا أحدًا. باستثناء ربما السياح الذين يسعون إلى التعاسة هربًا من حياتهم اليومية، مثل فلوبير، الذي أرعبه تحديث تركيا: "إن مثال المرأة الأوروبية مُعدٍ. سيأتي يومٌ تبدأ فيه [النساء التركيات] بقراءة الروايات [...] كل شيء يُعاني من آثار الزمن، في كل مكان!"28 وإذ كان سيلفان ليفي، المستشرق والأستاذ في كوليج دو فرانس، مُدركًا لأهمية مهمة التمدين، وفي الوقت نفسه يُدين الظلم الذي يُرتكب باسمها، فقد أصرّ على ضرورة أن تُقدّم أوروبا نموذجها بلباقة لا بوحشية: "يجب أن نُقدّم هذه الحضارة كما نُقدّم سلعنا الأخرى في السوق المحلية. [...] دعونا نترك للسكان المحليين حرية الاختيار وفقًا لذوقهم، في وقتهم، وفي الوقت الذي يُناسبهم."29في الواقع، شهد التاريخ المضطرب للاستعمار الأوروبي ازدهارًا لدى بعض السكان الأصليين لحماسٍ كبيرٍ لمساهمات الغرب: «أنا مقتنعٌ بأنه كلما توطدت علاقاتنا مع السادة الأوروبيين، كلما تقدمنا في الأدب والشؤون الاجتماعية والسياسية»، هكذا قال الهندوسي رام موهان

روي، أحد رموز التحديث الهندي، الذي أيد الوجود البريطاني، مفضلًا إياه، في رأيه، على الأنظمة التي سبقته: «إن العناية الإلهية [...] قد دفعت البريطانيين إلى كسر نير هؤلاء الطغاة المسلمين، وإلى وضع البنغاليين المضطهدين تحت حمايتهم»، كتب في رسالة إلى ملك إنجلترا، ليقارن الوجود البريطاني بأمراء المغول الأخيرين الذين انغمسوا في أبشع الفظائع. 30 وبصفته من دعاة استيعاب المعرفة الأوروبية لإحياء ثقافته، فقد انجذب رام موهان روي إلى فولتير وديفيد هيوم، من بين شخصيات أخرى من عصر التنوير. وفي تحولٍ عن موقفه، انتقد، في رسالةٍ إلى حاكم الهند، ويليام بيت أمهرست، افتتاح مدرسةٍ لتعليم اللغة السنسكريتية في كلكتا بدلاً من مؤسسةٍ مُخصصةٍ لنقل المعرفة الغربية، قائلاً: "إن نظام التعليم السنسكريتي سيكون الأنسب لإبقاء البلاد في جهل، إذا كانت هذه هي سياسة المجلس التشريعي البريطاني". ومع ذلك، ولأن هدف الحكومة هو تحسين مستوى السكان الأصليين، فقد شجع على نظام تعليمي أكثر ليبراليةً وتنويرًا، يشمل الرياضيات والفلسفة الطبيعية والكيمياء وغيرها

من العلوم المفيدة. وأعرب روي عن أسفه لاستخدام الميزانية الإمبراطورية المخصصة لتعليم السكان الأصليين في دراسة تقاليد محلية عفا عليها الزمن، قائلاً: "كنا نأمل أن يُستخدم هذا المبلغ لتوظيف أوروبيين موهوبين ومدربين لتعليم سكان الهند الأصليين الرياضيات والفلسفة الطبيعية والكيمياء وعلم التشريح، وغيرها من العلوم المفيدة التي أتقنتها الدول الأوروبية لدرجة رفعتها فوق سكان بقية أنحاء العالم [...]. لكننا نجد الآن أن الحكومة تُنشئ مدرسة لتعليم اللغة السنسكريتية تحت إشراف علماء هندوس لتدريس معارف منتشرة بالفعل في الهند." لا يمكن لهذه الندوة [...] إلا أن تُشوش أذهان الشباب بتفاصيل نحوية دقيقة وفروق ميتافيزيقية ذات فائدة محدودة، إن وُجدت، لأصحابها وللمجتمع31 كان الحصول على تعليم إنجليزي مع تجاوز البعثات التبشيرية المسيحية، التي كانت تُثير افتتانًا خطيرًا بين هندوس كلكتا، هو ما دفع نخبهم - وليس السلطات الاستعمارية - إلى المبادرة بتأسيس الكلية الهندوسية عام 181732 مقاومة التقدم: ينبع فشل العالم الإسلامي برمته خلال الحقبة

الاستعمارية من رفضه الاهتمام الكافي بالأفكار الجديدة، حتى لو كان ذلك يعني الاستناد إليها كحجج لمكافحة مظالم الهيمنة الأوروبية. وقد أعربت السلطات الفرنسية في الهند الصينية عن أسفها قائلة: "إن السكان الأصليين الذين تلقوا تعليمهم على أساليبنا وأفكارنا هم أخطر أعداء سلطتنا وأكثر المؤيدين إصرارًا للحكم الذاتي"33 ومع ذلك، كان التحديث الذي طرأ على النخب الشرقية أكثر سطحية بين هؤلاء المسلمين، الذين كانوا على اتصال بالغرب لفترة أطول من الثقافات الأخرى. من بين جميع الشعوب الأصلية اليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية والوثنية والمسلمة التي خضعت للحكم الأوروبي في شتى أنحاء العالم، كان أتباع محمد من بين أكثر الشعوب انغلاقًا على الأفكار الجديدة. فعلى الرغم من بعض محاولات التحديث، "خفتت الرغبة في التمسك بالإسلام، والتي طغت، بطريقة ما، على البحث عن الآخر"34 وفي الهند، كما يشير المستشرق لويس فريدريك، بينما تجنب المسلمون المدارس الإنجليزية، أدرك الهندوس سريعًا مزايا التعليم الغربي. ووفقًا لتقارير من أواخر القرن التاسع عشر، كان التحاق

المسلمين بالمدارس البريطانية ضئيلاً للغاية. فقد ذكرت صحيفة بنغالية أنه في الفترة من 1858 إلى 1875، لم يحصل سوى 157 مسلمًا على شهادة البكالوريوس في الآداب (المعادلة للبكالوريا الفرنسية) مقارنة بـ 3155 هندوسيًا. على الرغم من الجهود البريطانية لمعالجة هذا الوضع، ولا سيما من خلال لجنة التعليم التي تأسست عام ١٨٨٢، والتي شجعت المسلمين على مواصلة التعليم عبر إنشاء منح دراسية ودعم جمعيات متخصصة، إلا أن التقدم المحرز كان ضئيلاً. فبينما بدأت بعض العائلات الثرية بإرسال أبنائها إلى المدارس البريطانية، ظلت غالبية المسلمين من الطبقتين المتوسطة والدنيا ملتزمة بالتعليم القرآني التقليدي٣٥ وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين، وبينما ازداد التحاق النساء المسلمات بالمدارس الابتدائية الهندية بشكل طفيف، كنّ غائبات تمامًا تقريبًا عن الجامعات. ففي عام ١٩٣٥، كان هناك ٣٠٠ امرأة مسلمة في مؤسسات التعليم العالي، مقارنة بـ ٥٥٠٠ امرأة هندوسية: نسبةً إلى عدد السكان، كانت احتمالية التحاق النساء الهندوسيات بمؤسسات التعليم العالي ستة أضعاف احتمالية التحاق

النساء المسلمات بها٣٦ وفي الشرق الأدنى، يعاني المسلمون من نقص التمثيل في مدارس الإرساليات المسيحية، وهو ما يُعزى جزئيًا إلى ظهور طبقة برجوازية محلية. في عام ١٩١٤، في سوريا العثمانية، قامت البعثات الكاثوليكية الفرنسية، المفتوحة لجميع الأديان، بتعليم ما يقارب ٥٠ ألف طالب، لكن نسبة المسلمين فيها لم تتجاوز ٨.٧٪ في منطقة يشكلون فيها أكثر من ٨٠٪ من السكان٣٧ وفي مصر، كان ٢٥ ألف طالب استقبلتهم المدارس الكاثوليكية الفرنسية عام ١٩١٤ من المسيحيين السوريين اللبنانيين في الغالب٣٨ واستمرت هيمنة هذه الفئة الأخيرة خلال فترة ما بين الحربين، تلتها فئات أخرى كالكاثوليك واليهود والأجانب والأقباط والمسلمين٣٩ وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وأثناء تقييمه لأولى المدارس الفرنسية التي أُنشئت في الجزائر، لاحظ المدير جنتي دي بوسي بخيبة أمل: "جميع السكان المحليين الذين يأتون يهود؛ وهناك إصرار من جانب المسلمين على عدم إرسال أبنائهم". باءت جميع دعواتي وملاحظاتي، وكل ما استطعت إخبارهم به عن سخاء الحكومة تجاه شعبهم، بالفشل. كان وعد القاضي

والبلدية لي بالتدخل عبثًا: لم يُثمر شيئًا. 40. في عام 1860، لاحظ رئيس الجامعة ديلاكروا أن "الزعماء العرب يجب دائمًا التوسل إليهم لإرسال أطفالهم، وهناك بعض الذين يضطر الجنرالات إلى ممارسة ضغط معين عليهم لحملهم على قبول منحة دراسية". ٤١ في المغرب، تصف الكاتبة ليلى هواري، في روايتها السيرية، الأحكام المسبقة التي تعيق حصول جيل كامل على التعليم: "في أول يوم دراسي، وللأسف، التقيت بوالدي. احمرّ وجهه غضبًا، وأمسك بي من أذني، وجرّني إلى المنزل، وهو يصرخ بأنه ما دام حيًا، لن يذهب أي من أبنائه، وخاصة فتاة، للدراسة مع هؤلاء الكفار الفرنسيين. لقد اكتفوا بأخذهم وطننا منا؛ والآن يُبعدون الشباب عن الدين بمعرفتهم." ٤٢ في عام ١٩٢١، كتب مسؤول استعماري في جزر القمر بنبرة يائسة: "إن إهمال تدريس القرآن في مدارس الدول الإسلامية يعني استبعاد جميع الأطفال [...]. لقد فشلنا فشلًا ذريعًا [...]. مدارسنا، التي فقدت مصداقيتها لأنها تُدرّس القرآن، تُقدّم صورةً مُخزية." ماذا يمكن أن يقال عن منهجٍ، في بلدٍ تأسسنا فيه منذ عام 1841، ترك 142 طفلاً في مؤسساتنا من

أصل عدد طلاب يزيد عن 12000؟ 43 لم تكن المدارس القرآنية والصوفية التي أشرفت على الجماهير المحلية، ولا المؤسسات الإسلامية العليا، في عجلة من أمرها لاكتساب الأفكار الحديثة، كما استطاع الأوروبيون أن يفعلوا عندما استولوا على العلوم اليونانية العربية من طليطلة. ٤٤ في الجزائر، كان اليهود أكثر تقبلاً للأفكار الحديثة قبل حصولهم على الجنسية الفرنسية ثم المواطنة: «أطفالهم يرتادون مدارسنا، ويتحدثون لغتنا، ويرتدون زيّنا: دون أن يفقدوا روحهم الطبقية، يصبحون كُتّابًا لدى المحامين، وموثقين، وموظفين في الإدارات؛ لقد تم إطلاعهم بالفعل على تشريعاتنا»، كما لاحظ البارون جان جاك بود في عام ١٨٤١.٤٥ وبحلول نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر، بلغ عدد الطلاب اليهود المسجلين في الجزائر العاصمة ١٧٠٠ طالب؛ درس ٨٠ منهم في ثانوية المدينة عام ١٨٥٤، بينما لم يتجاوز عدد الطلاب المسلمين هناك ١٢ طالبًا.٤٦ بالإضافة إلى مؤسسات المستعمر، كانت هناك مبادرات التحالف الإسرائيلي العالمي، الذي تمثلت مهمته في جلب «شعاع من النور» ليهود الشرق في بيئات تدهورت أحيانًا بفعل قرون

من القمع والجهل، على حد تعبير أحد ممثليه. ٤٧ في أرض الإسلام، كانت مهمة التمدين إذًا لم يقتصر الأمر على المسلمين فحسب، بل على نطاق أوسع بكثير، ولم يتوانَ اليهود الغربيون عن استنكار انحطاط إخوانهم في الشرق، الذين أذهلتهم الهيمنة الإسلامية. ففي عام 1955، عشية استقلال محميتي المغرب وتونس، "تراوحت نسبة التحاق الأطفال اليهود بالمدارس بين 60 و90% في تونس والمغرب (100% في الجزائر)، مقارنةً بنسبة 14% فقط من الأطفال المسلمين"48 وباعتبارهم أكثر ميلاً إلى فرنسا من المسلمين، قدّم اليهود الجزائريون التماساً إلى نابليون الثالث عام 1860 للاعتراف بهم كمواطنين فرنسيين. نحن الموقعون أدناه، يهود الجزائر الأصليون، نناشد جلالتكم إعلاننا فرنسيين. مستلهمين قبل كل شيء من مشاعر الامتنان والحب لفرنسا، التي أنقذتنا من طغيان قمعي وهمجي لا يوصف؛ ومتأثرين أيضاً بالتغيير الذي أحدثه الغزو في مستوانا الفكري وعاداتنا، لاقت هذه الرغبة دعماً قوياً بين نخبة الفرنسيين المقيمين في الجزائر49 يتناقض هذا الإعلان مع العريضة التي قُدِّمت بعد ثلاثين عامًا من قِبَل 1700 من

وجهاء المسلمين في قسنطينة: "أعزّ ما نتمناه، وأغلى ما نُحب، هو الحفاظ على شريعتنا"50 ورفضًا لأي اندماج ثقافي مع الغرب، أصرّ العالم بن باديس (1889-1940) قائلًا: "الأمة الجزائرية والإسلامية ليست فرنسا. إنها لا تعرف كيف تكون فرنسية. ولا ترغب في أن تصبح فرنسية". لم يكن بإمكانها أن تصبح فرنسا، حتى لو أرادت ذلك51 في عام 1938، أكدت جمعية علماء فرنسا مجددًا أن التخلي عن الوضع الشخصي الإسلامي يُعدّ ردة، وهو ما يرقى، وفقًا للشريعة الإسلامية، إلى إدانة المرشحين المسلمين للحصول على الجنسية الفرنسية بالإعدام أو نبذهم52 في تونس، قوبل تسهيل شروط حصول التونسيين على الجنسية الفرنسية في ثلاثينيات القرن العشرين بحملة ترهيب استهدفت المسلمين الذين اختاروا أن يصبحوا فرنسيين53 في سوريا الانتدابية، بينما سعت فرنسا إلى تحرير الوضع الشخصي للسكان، واجهت معارضة من النخب السنية التي رفضت المساواة بين الأديان ودعت إلى استمرار الحق في اغتيال من تركوا الإسلام54 كُتب الكثير عن استبعاد السكان الأصليين من العملية السياسية في

الجزائر من قِبل المستعمر، متجاهلين رفض هؤلاء السكان تبني قيم المستعمر55 ولكن كيف هل يُعقل منح الجنسية لشعوب معادية للمبادئ التي تقوم عليها؟ إنها الأبوية الاستعمارية. لم يكن الإسلام القوة الوحيدة القادرة على عرقلة التقدم، بل أُضيف إلى الجهل المحلي جبن وأبوية القوى الإمبريالية. أوروبا، رغم وضعها نفسها تحت راية التنوير والتقدم، لم تتحلَّ بالشجاعة قط، مهما قال منتقدو الاستعمار "العلماني"، لمهاجمة دين محمد مباشرةً بردٍّ قاطع، معتبرةً المسلمين ضيقي الأفق لدرجة لا تسمح بإخضاعهم لنقد الأديان السماوية. "العلمانية ليست سلعة قابلة للتصدير"، كما يقول المثل. وبدلًا من إظهار نفس الالتزام بالعلمانية كما في فرنسا، أهدرت فرنسا المال العام بين السكان المحليين على تمويل المدارس القرآنية والمدارس الدينية لكسب تأييد الشيوخ والعلماء وغيرهم من الدجالين الإقطاعيين الذين استمدوا مكانتهم من معتقدات سخيفة، بدلًا من تخصيص هذه الأموال لتعليم علمي وعلماني57 في عام ١٩٢٣، احتج حاكم النيجر، جول بريفي، على الدعم المالي المخصص لتعليم القرآن وما

اعتبره منافسة غير عادلة مع المدارس المسيحية٥٨ وخلال اجتماع لجنة في مجلس الشيوخ حول تعليم السكان الأصليين، طلب إميل كومب، الراديكالي الذي طرد لاحقًا آلاف الكاثوليك من فرنسا في مطلع القرن العشرين، من المعلمين "إظهار أقصى درجات الاحترام لمعتقدات الطلاب وأولياء أمورهم، والامتناع بدقة عن أدنى انتقاد للقرآن"٥٩ وفي المغرب، حظر هوبير ليوتي، مهندس الحماية الذي كان ينظر إلى أي مسلم متأثر بالثقافة الغربية على أنه منبوذ، المبشرين المسيحيين من الإقليم، وفصل مسؤولًا تربويًا بتهمة رغبته في نشر إعلان حقوق الإنسان والمواطن في المدارس المغربية، بحجة عدم المساس بالتقاليد المحلية٦٠ لم يحقق هذا التبجيل الزائف لدين محمد هدفه حتى. فالخطاب الإسلامي الذي تسعى أوروبا إلى ترويضه ينتهي به الأمر إلى الإفلات من قبضتها، بينما يفقد وجهاء الدولة المُستَغَلّون سلطتهم. إلى تيارات أكثر حرفية61 قد تغفو الخرافات وتُبقي العالم الإسلامي متخلفًا، إذ يسعى "المصلحون" المسلمون إلى تبرئة الإسلام من مسؤوليته عن مشاكل مجتمعاتهم، مفضلين اتهام تفسير

خاطئ للدين: لقد أهلكنا أقلامنا وأصواتنا بالكتابة والتكرار بأن مصائب المسلمين لا تُعزى إلى دينهم، بل إلى البدع التي أدخلوها عليه، وإلى كونهم يرتدون الإسلام كمعطف فرو مقلوب. هكذا عبّر السوري رشيد رضا (1865-1935)، الذي دعم الملكية السعودية (التي تأسست عام 1932) في نهاية حياته، وكأنه يُطمئننا بشأن ماهية الإسلام الحقيقي62 ولكن كيف نفسر أن العديد من الدول التي لم تتبنَّ هذا الدين قطّ تتحسن أوضاعها؟ بالنسبة للداعية المصري الشهير يوسف القرضاوي، وهو شخصية بارزة في حركة الإخوان المسلمين، فإن الخطر الأكبر الذي يهدد الدول الإسلامية ليس الاستبداد والبؤس السائدين فيها بقدر ما هو "هيمنة الثقافة الغربية على عقول الكثير من أبنائها، وخاصة أولئك الذين يديرون المؤسسات الثقافية ويحددون التوجه الثقافي لبلداننا."63 أخذ أسوأ ما في الغرب والبدء من جديد. ذروة ضلال المجتمعات الإسلامية: من بين جميع المذاهب الأجنبية التي تؤثر على السياسة الحديثة، لا ينجو من طائفيتها إلا أشدها ضرراً.من المثير للدهشة أن نلاحظ أنه بينما يندد الناس في العالم الثالث

من حيث المبدأ بكل أشكال "الأبوية" الغربية، فإنهم غالبًا ما يتوجهون عمليًا بحماس إلى ماركسيي أوروبا [...] ليسألوهم عن سر مستقبلهم، أو حتى عن إرشادات حول كيفية الاستعداد له64 إلا أن ماكسيم رودنسون مخطئ في عزوه هيبة الماركسية اللينينية إلى فقر المجتمعات الإسلامية، أو إلى مناهضة الاتحاد السوفيتي للاستعمار، أو إلى انتصاره على النازية، الذي كان له أثر كبير بعد عام 1933 في الشرق العربي65 لا تفسر هذه الحقائق انخفاض جاذبية الأفكار الليبرالية عندما أظهرت أمريكا، التي لم تكن أقل انتصارًا، ازدهارًا أكبر من الكتلة الشيوعية، ووضعت مناهضة الاستعمار على جدول الأعمال العالمي 66 أخيرًا، ألم تقم روسيا والصين أنفسهما بغزو أراضٍ إسلامية، وممارسة هيمنة قاسية على المسلمين؟67 في الواقع، تمتعت الاشتراكية بميزة على منافسيها: فمن خلال تعديل فكر ماركس، عزا خلفاؤه ثروة أوروبا إلى إخضاع لقد سعى الشرق إلى إرضاء كبرياء وحقد الدول النامية. فبينما احتضنت عقلياته القبلية بسهولة نقد الفردية البرجوازية، وجد الشرق في هذه الكتابة الجديدة تفسيراً ملائماً

لبؤسه: فلم يعد ينبع من أخطائه الخاصة، بل من البراءة التي انتهكها معتدٍ أجنبي. لجأ الشرق إلى معسكر المضطهدين، متجنباً أي نقد ذاتي. صاغ هوية جديدة لنفسه، ووضع نفسه في الجانب الصحيح من التاريخ، ومحا جرائم ماضيه بضربة قلم، واستغل ندم أوروبا المتلهفة للمغفرة. في صورته المشوهة، قدمت الماركسية ذريعة "علمية" للحسد من الغرب - ذريعة أكثر مصداقية لأنها لاقت صدى لدى المستعمر السابق. مرت تناقضات اليوتوبيا الاشتراكية دون أن يلاحظها أحد: فقد أخضعت ظهورها لمرحلة من التطور أعلنت أنها عاجزة عن البدء بها. كما ينص البيان الشيوعي، فإن المجتمعات البرجوازية وحدها هي التي تستطيع أن تجذب "الأمم البربرية وشبه المتحضرة" إلى "تيار الحضارة". حظيت هذه الفكرة بمكانة مرموقة، وألهمت تجارب جماعية متنوعة، من الجزائر إلى أقصى بقاع أفريقيا جنوب الصحراء، مرورًا بمصر وسوريا والعراق، إلا أن جميعها أثبتت أنها أقل نجاحًا من سابقتها، لأسباب لم يُعرها الاقتصاديون اهتمامًا يُذكر69 ومن الجدير بالذكر أن جان بول سارتر أكد أن مستوى المعيشة في الاتحاد

السوفيتي قبل عام 1965 كان أعلى بنسبة 30 إلى 40 بالمئة من نظيره في فرنسا، في حين أن بناء جدار برلين، قبل سقوطه بخمسة وثلاثين عامًا، كان إشارة إلى فشل نظام استخدم أبراج المراقبة لاحتجاز المستفيدين منه70 وهكذا، في الشرق، "تم أخذ أسوأ ما في الغرب ودمجه في مجتمع ذي طابع ديني ثقافي"، كما أشار كاستورياديس71 عند مشاهدة خطاب القاهرة الشهير عام 1953 الذي سخر فيه ناصر من شخصية دينية أرادت فرض الحجاب على النساء المصريات قسرًا، قد يجد البعض عزاءً في الإشارة إلى أنه على الرغم من فشل الاشتراكية الشرقية في تحقيق الازدهار، إلا أنها سمحت بعلمنة مهدت الطريق لـ طريق الحرية72 لكن هذا التوجه العلماني الظاهري اقتصر على النخب الحضرية، ولم يكن سوى مظهرٍ زائفٍ للعلمانية: لم يكن هناك فصلٌ حقيقيٌ بين المجالين السياسي والديني، بل بالأحرى خضوعٌ للمؤسسات الدينية، التي ضمرت بلا شك، لجهاز السلطة، بهدف السيطرة الاجتماعية، أو لإظهار توافق الإسلام مع العقيدة القومية الرسمية، بل والاشتراكية73

حتى أن ناصر فرض التعليم الديني الإسلامي في جميع المدارس بموجب مرسومٍ صدر عام 195774 الآن، إن العلاقة بين الحاكم المستبد والرجل المعمم هي ما يسميه الكاتب الفرنسي التونسي ألبرت ميمي لعبة خداع، وهي لعبةٌ أخرجها المخرج المصري السويدي طارق صالح ببراعةٍ في فيلمه التشويقي "مؤامرة القاهرة" عام 2022. إنه سباقٌ لمعرفة من سيتفوق في النهاية على الآخر. يعلم الطاغية أن الرجل المعمم يتمتع بمكانةٍ غير مرغوبٍ فيها بين الجماهير. عجز عن القضاء عليه، فأمره بتمجيد حكمه. لكن حتى أكثر الدكتاتوريين استبدادًا لا يملك سيطرة كاملة على أرواح رعاياه، فهم يستسلمون لخطب تدّعي أنها أكثر أصالة من التصريحات الرسمية. ويتسع نطاق هذه الخطب بفضل مليارات الدولارات المتدفقة من دول الخليج، الغنية بثروات النفط، حيث تتنافس مختلف الطوائف للسيطرة على "فضاء المعنى الإسلامي". الاستبداد والتراجع: شهد العالم الإسلامي ثورة صامتة، "انتصار نسخة سلفية من الإسلام على حساب تفسير آخر محتمل للرسالة الدينية"، كما يخبرنا عالم السياسة

برنارد روجيه77 وقد أعقب التحديث السطحي للشرق خلال الحقبة الاستعمارية عودة إلى ما يشبهه دعاة مثيرون للجدل بإسلام مُنقّى من التأثيرات الأجنبية. بفضل بيئتها الثقافية الخصبة، تُهيمن هذه الطوائف على قادة العالم الإسلامي، الذين يُجبرون على تقديم تنازلات لها للبقاء في السلطة، وتجنب مصير الزعيم المصري أنور السادات، الذي اغتيل لرغبته في السلام مع إسرائيل. إن تراجع الأخلاق الذي تُسببه هذه الطوائف مُرعبٌ للغاية، لأنه يُؤثر على شعوب لم يسبق لها أن حظيت بمثل هذا المستوى من التعليم والتحضر والتواصل، وبالتالي، لم تُخدَم بهذا القدر من ثراء سوق الأفكار. يُشير البروفيسور ستيفن بينكر إلى أن "العالم الإسلامي، ظاهريًا، لم يتأثر بانخفاض العنف"، موضحًا أن الاعتقاد السائد بأن الإسلام يمارس العنف، والذي تمكنت مجتمعات أخرى من التخلص منه، يستند إلى بيانات إحصائية78 فقط 3% من أصل 1.9 مليار مسلم يعيشون على هذا الكوكب يعيشون في أنظمة أكثر ليبرالية من المتوسط العالمي79 في الدول غير الإسلامية، يتمتع المسلمون بأكبر قدر من الحقوق والحريات، دون أن يبدو أن هذا يُزعج

من يُكافحون الإسلاموفوبيا. وبينما تتباهى أغلبية ضئيلة من الدول غير الإسلامية بكونها ديمقراطية، فإن عدد المجتمعات الإسلامية التي تُرسّخ الحرية يُمكن عدّه على أصابع يد واحدة. وفقًا لمنظمة الشفافية الدولية غير الحكومية، تُظهر الدول الإسلامية مستويات أعلى من الفساد المتصور مقارنة بالمتوسط العالمي: فعلى مقياس من 0 إلى 100، حيث يشير 0 إلى مستوى عالٍ من الفساد، يبلغ متوسط درجة الدول الإسلامية 32 مقارنة بالمتوسط العالمي البالغ 42 في عام 2024.80 إن الأحكام المسبقة التي تُعزى التمثيل المفرط للدول الإسلامية بين الأنظمة الاستبدادية إلى فقرها لا تعكس ببساطة السبب والنتيجة. كما يتجاهلون حقيقة أنه مع تساوي الثروة، يترسخ الاستبداد بسهولة أكبر في الدول الإسلامية81 والأسوأ من ذلك، على عكس الدول غير الإسلامية حيث توجد صلة بين الحرية والازدهار - فالأولى هي مصدر الثاني في الدول التي تفتقر إلى الموارد الطبيعية - يشير عالم الاجتماع رود كوبمانز إلى أن أغنى دول العالم الإسلامي تميل إلى أن تكون الأكثر استبدادًا: فالازدهار في العالم

الإسلامي لا يؤدي إلى مزيد من الديمقراطية [...] حتى في أفقر الدول غير الإسلامية، توجد حرية أكبر بكثير مما هي عليه في العالم الإسلامي82 وبينما تتحمل جميع فئات السكان، بمن فيهم المسلمون، وطأة هذا الاستبداد، فإن بعضها أكثر عرضة للخطر، مثل النساء والأقليات الجنسية والثقافية. وفي حين أن المثلية الجنسية يُعاقب عليها في أقل من ثلث الدول غير الإسلامية، فإنها تُعاقب عليها في ثلثي الدول الإسلامية83 وباستثناء أوغندا، فإن جميع الدول التي يُعاقب فيها على المثلية الجنسية بالإعدام هي دول إسلامية. على صعيد حقوق المرأة، تقع معظم الدول ذات الأغلبية المسلمة في النصف الأدنى من تصنيفات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية والأمم المتحدة والمنتدى الاقتصادي العالمي بشأن المساواة بين الجنسين84 وقد أعربت منظمة هيومن رايتس ووتش في تقرير لها عام 2023 عن أسفها قائلة: "لا تزال العديد من دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط تمنع النساء من التنقل داخل بلادهن أو السفر إلى الخارج دون إذن من الرجل"85 ومن بين الدول العشرين الأكثر تضررًا من زواج الأطفال،

والتي حددتها منظمة "فتيات لا عرائس" النسوية غير الحكومية، نصفها دول مسلمة86 وفي أفريقيا جنوب الصحراء، التي تضم غالبية الدول ذات أعلى معدلات الزواج المبكر، يبدو أن هذه الممارسة أكثر انتشارًا بين المسلمين مقارنةً بالجماعات الدينية الأخرى87 ووفقًا لمشروع "إحصاءات المرأة"، فإن الدول ذات الأغلبية المسلمة ممثلة تمثيلًا زائدًا بين الدول التي تفتقر إلى تشريعات تجرّم الاغتصاب الزوجي وختان الإناث، ووفقًا لليونيسف، فإن هذه الدول من بين الدول الأكثر تضررًا من ختان الإناث. التشويه88 وينعكس سوء معاملة النساء أيضًا في المؤشرات التعليمية والصحية. فمعدلات معرفة القراءة والكتابة لدى الإناث أقل من معدلات معرفة القراءة والكتابة لدى الذكور في الدول ذات الأغلبية المسلمة مقارنةً بالمناطق الأخرى. حتى أن متوسط العمر المتوقع الذي تتمتع به النساء عادةً على الرجال أقل في الدول ذات الأغلبية المسلمة89 ومع ذلك، يبدو أن المسلمين أكثر حرصًا على إدانة الإسلاموفوبيا من إدانة القمع داخل مجتمعاتهم. يلخص الكاتب كامل داود هذه المهزلة ببراعة عندما يلاحظ أنه "في البلدان التي يشكلون

فيها أقلية، ينشغل المسلمون بحقوق الأقليات. أما في البلدان التي يشكلون فيها أغلبية، فلا تتمتع الأقليات بأي حقوق". في دراسةٍ حول التوزيع العالمي للاضطهاد الديني، يُشير الباحث الأمريكي جوناثان فوكس إلى أن 63% من الأقليات الدينية الأكثر اضطهادًا في العالم تعيش في دول ذات أغلبية مسلمة90 ولا تزال هذه الأرقام تُغفل غير المؤمنين: "إن الحرية التي تبدو الأبرز والأكثر تهديدًا هذه الأيام في أجزاء كبيرة من العالم هي، في الحقيقة، حرية عدم تكريم أي إله والعيش كما يشاء المرء"، كما لاحظ عالم السياسة الفرنسي اللبناني جيلبرت أشقر91 ومن بين 71 دولة تُجرّم التجديف، 32 دولة ذات أغلبية مسلمة، كما يُشير الباحث أحمد كورو، الذي يُوضح أيضًا أن جميع الدول التي يُعاقب فيها على التخلي عن الدين بالإعدام هي دول ذات أغلبية مسلمة92 وتُشير أرقام فوكس إلى أن المسلمين هم أقل الأقليات الدينية اضطهادًا في العالم لأسباب طائفية، بينما المسيحيون هم أكثر الأقليات الدينية اضطهادًا. الأقليات93 "من بين 38 دولة يواجه فيها المسيحيون تمييزًا خطيرًا، 24 دولة منها ذات أغلبية مسلمة،" كما يشير كوبمانز94

يلاحظ فوكس أن متوسط مستويات التمييز الديني في الدول ذات الأغلبية المسلمة أعلى بنحو أربعة أضعاف من مثيلاتها في الدول ذات الأغلبية المسيحية. ويضيف: "حتى الدول ذات الأغلبية المسيحية في الكتلة السوفيتية السابقة، والتي تشهد أعلى مستويات التمييز الديني في العالم المسيحي، تُظهر تمييزًا دينيًا أقل من متوسط الدول ذات الأغلبية المسلمة."95 في جنوب آسيا، ودون مبالغة، فإن وضع الأقليات في الهند أفضل منه في بنغلاديش أو باكستان. في الشرق الأوسط، تتجاهل المنظمات غير الحكومية التي تتهم إسرائيل بالفصل العنصري والإبادة الجماعية، بشكل غريب، الإشارة إلى أن عدد المواطنين العرب والمسلمين المزدهرين هناك يفوق عدد الإسرائيليين الآمنين في العالم الإسلامي بأكمله مجتمعًا. في حين أن العرب والمسلمين الإسرائيليين يشغلون أرفع المناصب في البلاد ويتمتعون بواحد من أعلى معدلات متوسط العمر المتوقع في العالم، في العالم العربي، من باب التقليل القول إن المجتمعات المحيطة لا توفر الفرص نفسها لأغلبياتها كما توفرها لأقلياتها، ولا سيما لليهود الذين طُردوا من

العالم الإسلامي بمئات الآلاف خلال القرن العشرين96 وبينما، كما هو الحال في جميع المجتمعات، هناك مجال للتحسين في إسرائيل، ومن المناسب دعم التيارات الليبرالية ضد المتطرفين، فإن أهم الجهود المبذولة لتهدئة المنطقة لا تقع على عاتق الدولة اليهودية. وأخيرًا، تجدر الإشارة إلى أنه من بين نحو اثنتي عشرة دولة يواجه فيها المسلمون تمييزًا كبيرًا بسبب دينهم، ينتمي ما يقرب من نصف هذه الدول إلى فرع آخر من الإسلام97 دين السلام والمحبة. يكمن الخلل الرئيسي في نظرية صراع الحضارات في أنها تقلل من شأن العنف الذي تمارسه ثقافة ما على نفسها. إن الإرهاب الإسلامي الذي يبتلي المجتمعات الغربية ليس سوى قطرة في محيط مقارنة بالوضع في العالم الإسلامي، الذي يمثل الغالبية العظمى من الهجمات التي يرتكبها مسلمون لا يلتزم أحد بتعاليم الإسلام بشكل كافٍ. في عام 2005، تجاوز عدد الهجمات وضحايا العنف الإرهابي في الدول الإسلامية ضعف مثيله في بقية دول العالم مجتمعة98 ولمدة عقد على الأقل، ضمت قائمة أخطر الجماعات الإرهابية جماعات

إسلامية بشكل شبه حصري99 وتشير مؤسسة ابتكار السياسات إلى أن 86% من الهجمات الإسلامية و89% من الوفيات الناجمة عنها منذ عام 1979 وقعت في دول إسلامية100 وهذا كافٍ لدحض التفسيرات الأوروبية المركزية للإرهاب الإسلامي، الشائعة بين المعلقين عديمي الضمير101 فالعالم الإسلامي ليس فقط في حالة حرب مع نفسه، بل هو أيضاً محصور بما أسماه هنتنغتون "حدود الدم"102 وتُعد الدول الإسلامية من بين أكثر الدول عدوانية على وجه الأرض. وبافتراض تساوي جميع العوامل الأخرى، تُجبر الدول الإسلامية نسبة أكبر من سكانها على الخدمة في جيوشها مقارنة ببقية دول العالم. تخصيص المزيد من الرجال والثروة للمجهود العسكري103 لديهم ميل أكبر لاستخدام القوة في الأزمات الدولية. فبين عامي 1928 و1979، بينما لجأت الدول الإسلامية إلى العنف لحل 53.5% من أزماتها، استخدمته المملكة المتحدة لحل 11.5% فقط من أزماتها، والولايات المتحدة لحل 17.9%، والاتحاد السوفيتي لحل 28.5%. ومن بين القوى الكبرى، تُعد الصين وحدها أكثر ميلاً للعنف من الدول الإسلامية: فقد استخدمت

العنف لحل 76.9% من أزماتها104 في تسعينيات القرن الماضي، أظهرت البيانات التي جمعها عالم السياسة تيد روبرت غور أن المسلمين كانوا ممثلين تمثيلاً زائداً في الصراعات بين الطوائف: باختصار، كان هناك ثلاثة أضعاف عدد الصراعات بين الحضارات التي تضم مسلمين مقارنة بالصراعات بين الحضارات غير الإسلامية. كما كانت الصراعات داخل الإسلام نفسه أكثر عدداً من الصراعات الداخلية داخل أي حضارة أخرى، بما في ذلك الصراعات القبلية في أفريقيا105 لا تزال الدول الإسلامية ممثلة تمثيلاً زائداً بين الدول التي تشهد نزاعات مسلحة اليوم106ومع ذلك، يُعطي المسلمون انطباعًا بالتساهل مع هذا العنف المستشري في مجتمعاتهم: فمن الأسهل العثور على احتجاجات دامية ضد رسوم كاريكاتورية لنبيهم تُنتج في الخارج من العثور على تحركات ضد الفظائع المرتكبة في مجتمعاتهم107 وقد أكد باراك أوباما في الأمم المتحدة عام 2014: "الإسلام يدعو إلى السلام. ويتطلع المسلمون في جميع أنحاء العالم إلى العيش بكرامة ووفقًا لمبدأ العدل" 108 فهل هذا هو السبب في أن الولايات

المتحدة تُقيّد الهجرة إليها ولا تتجاوز نسبة المسلمين فيها 1%؟ علاوة على ذلك، تُفنّد استطلاعات الرأي هذه التصريحات المُنمّقة سياسيًا التي يُرددها القادة لطمأنة أنفسهم، مُخاطرين بتضليل مواطنيهم. ففي استطلاع نُشر عام 2013 من قِبل مركز بيو للأبحاث حول عدة دول إسلامية، يبدو أن القيم الظلامية والاستبدادية تحظى بشعبية مُقلقة هناك. تبلغ النسبة المتوسطة للمسلمين المؤيدين لتطبيق الشريعة الإسلامية 84% في جنوب آسيا، و 77% في جنوب شرق آسيا، و74% في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، و64% في أفريقيا جنوب الصحراء، و18% في جنوب وشرق أوروبا، و12% في آسيا الوسطى. ومن بين هؤلاء، تبلغ النسبة المتوسطة للمسلمين المؤيدين لإعدام من يرتد عن الإسلام 76% في جنوب آسيا، و56% في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، و27% في جنوب شرق آسيا، و13% في جنوب وشرق أوروبا، و16% في آسيا الوسطى. وكثيراً ما يزعم من يحاولون إثارة الجدل أن لكل ثقافة ودين متطرفين، ويتجنبون عمداً التساؤل عن سبب ارتفاع نسبتهم في بعض المجتمعات. يكشف مشروع

"انتصار الظلامية: مسح القيم العالمية"، وهو مشروع بحثي دولي يستقصي معتقدات العديد من المجتمعات، أن إعطاء الأولوية للدين على العلم في أوقات الصراع أمر شائع في العالم الإسلامي، بينما يُعدّ رأيًا للأقلية في الدول غير الإسلامية109 كما أن الأحكام المسبقة التي تُقلل من فائدة التعليم العالي للنساء مقارنةً بالرجال، والتي تُنكر قدرة المرأة على الأداء بنفس كفاءة الرجل في الحياة السياسية أو الاقتصادية، أكثر انتشارًا في العالم الإسلامي منها في أي مكان آخر110 الفساد، والخرافات، والاستبداد، والتعصب، والحروب، وازدراء المعرفة العلمانية، والاختلاف، ونصف البشرية: وكما تساءل شكيب أرسلان، فلا عجب أن تبقى المجتمعات التي تبتلع هذا المزيج السام على هامش الحضارة. إن تدني مستوى إنجازات المجتمعات الإسلامية ليس نتيجة مؤامرة خارجية بقدر ما هو نتيجة قيم غير ملائمة. في عام 1970، بلغ متوسط دخل الفرد في الدول ذات الأغلبية المسلمة ثلثي دخل الفرد في الدول غير المسلمة. بحلول عام 2015، انخفض هذا الدخل إلى أقل من النصف: اتسعت الفجوة بين الإسلام وبقية

العالم على مر العقود111 ومن بين أكثر 100 شركة عالمية قيمة من حيث رأس المال السوقي، تبرز شركة نفط أسسها أمريكيون قبل أن تؤممها السعودية، وهي الشركة الوحيدة من دولة إسلامية112 وقد أعرب البنك الإسلامي للتنمية عن أسفه في عام 2008 قائلاً: "إن الدول الـ 57 ذات الأغلبية المسلمة تضم ما يقرب من 23% من سكان العالم، ولكن أقل من 1% من العلماء الذين ينتجون أقل من 5% من العلوم، ولا يحققون سوى 0.1% من الاكتشافات البحثية الأصلية في العالم كل عام"113 وبالمثل، لم ينتج العالم الإسلامي سوى حوالي 1% من الحائزين على جائزة نوبل114 ووفقًا للمنظمة العالمية للملكية الفكرية، في عام 2016، سجلت الدول الإسلامية 65 براءة اختراع لكل مليون نسمة. مقارنةً بستة أضعاف في الدول غير الإسلامية، تُخصص الدول الإسلامية موارد أقل بثلاث مرات للبحث العلمي مقارنةً بالدول غير الإسلامية، وتُنتج كتبًا أقل بأربع مرات للفرد الواحد مقارنةً ببقية العالم115 تُفسر هذه النقائص سبب معاناة الدول الإسلامية في مواجهة التحديات الكبرى في عصرنا، مثل

القضايا البيئية: إذ تحتل معظمها مراتب متدنية في مؤشر الأداء البيئي الذي وضعه باحثون من جامعتي ييل وكولومبيا116 ورغم أن العنف والفقر ليسا حكرًا على المسلمين، إلا أن المقارنات الإقليمية لا تصب في مصلحتهم أيضًا. يشير كوبمانز إلى أنه في عام 2015، كان متوسط دخل الفرد في دولة إسلامية في آسيا يزيد قليلًا عن نصف دخل الفرد في دول آسيا غير الإسلامية. وفي العام نفسه، بلغ متوسط دخل الفرد في أفريقيا الإسلامية 62% من دخل الفرد في أفريقيا غير الإسلامية. تتفاقم الفجوة بشكل ملحوظ في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى: فقد انخفض متوسط دخل الفرد في الدول الإسلامية من 70% إلى 33% من نظيره في الدول غير الإسلامية منذ عام 1970. وفي الدول المختلطة، ليس من النادر أن يكون أداء السكان المسلمين أقل من نظرائهم غير المسلمين. ففي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، 42% من المسلمين لا يتلقون أي تعليم رسمي، مقارنةً بـ 19% من أفراد الأقليات غير المسلمة117 وأشار مركز بيو للأبحاث في عام 2016 إلى وجود فجوة كبيرة وواسعة النطاق في التحصيل العلمي بين

المسلمين والمسيحيين في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. ووفقًا لجميع مؤشرات الالتحاق بالمدارس، فإن البالغين المسلمين في المنطقة - رجالًا ونساءً - أقل تعليمًا بشكل ملحوظ من نظرائهم المسيحيين. فعلى سبيل المثال، تزيد احتمالية عدم حصول المسلمين على تعليم رسمي في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بأكثر من الضعف (65% مقابل 30%). علاوة على ذلك، ورغم ازدياد نسبة البالغين الحاصلين على تعليم رسمي في العقود الأخيرة، اتسعت الفجوة بين المسلمين والمسيحيين عبر الأجيال، ويعود ذلك أساسًا إلى عدم مواكبة المسلمين للتقدم التعليمي الذي أحرزه المسيحيون118 وأمام هذه النقائص، ورغم قرون من التقدم، لا يزال العالم الإسلامي يخلط بين الحل والضرر. فبحسب مسح القيم العالمية، يُعدّ المسلمون المجموعة الأكثر أهمية للدين119 وقد أعرب الكاتب ألبرت ميمي، في لحظة صفاء ذهني عام 2004، عن خشيته قائلًا: "ليس من المؤكد أنه لو أُجريت انتخابات حرة حقًا في جميع أنحاء العالم العربي، لما انتصر المتشددون"120 وقد أكدت الانتفاضات

العربية هذه المخاوف. فبدلًا من أن تُجسّد مُثل الحرية، كما ادّعى البعض121 فقد غذّت تيارات خطيرة، من بينها تنظيم الدولة الإسلامية ووحشيته التي لا تحتاج إلى وصف. يُعطي العالم الإسلامي انطباعًا بأنه يتأرجح بين طرفي نقيض. فالثورة الإيرانية أطاحت بالشاه ليحل محله من هو أسوأ منه. وأعقب الغزو السوفيتي والأمريكي لأفغانستان صعود حركة طالبان. كما استفاد أحد أعضاء تنظيم القاعدة السابقين من سقوط بشار الأسد. ومن المؤسف أيضًا أن نلاحظ أن العلل التي تُصيب الإسلام لا تُقلل من جاذبيته. ويشير مركز بيو للأبحاث إلى أن الإسلام كان أسرع الأديان نموًا بين عامي 2010 و2020، نظرًا لارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الارتداد 122 وبالنظر إلى تيارات الرأي السائدة في المجتمعات الإسلامية ومستويات العنف التي تتسامح معها، فإن تزايد نسبة المسلمين في العالم، إن لم يُكبح جماحه، سيُمثل أحد أكبر التحديات التي تواجه السلام والازدهار العالميين في السنوات القادمة. ولذلك، كان من المفترض أن يدفع انتهاء الحقبة الاستعمارية الأوروبية شعوب الشرق نحو

الازدهار. كان من الممكن على الأقل أن تُعرّفهم بتفاهات الوجود، حيث يمتزج سعادة الإنسان وشقاؤه، على حد تعبير الكاتب ألبرت ميمي123 بدلاً من ذلك، دأب المسلمون على إدامة المعتقدات والمؤسسات المسؤولة عن الانحطاط الذي رثوه رغم ذلك. ولكن لم يكتفِ العالم الإسلامي بتحويل مهد الحضارة إلى قبرها، بل إنه يمدّ حدود جحيمه إلى أكثر البلدان ازدهارًا، كالمُحرقين الذين يُدمرون الحدائق الغنّاء في طريقهم.

6 هجوم على العالم الحر

نحن لسنا سوى شعب الأمس، وقد ملأنا بالفعل الإمبراطورية، ومدنكم، وجزركم، وحصونكم، وبلداتكم، ومجالسكم، ومعسكراتكم، وقبائلكم، ودوائركم، وقصوركم، ومجلس شيوخكم، والساحات العامة.

بدايات ترتليان الخاطئة: علم مؤلف هذه السطور ذات يوم أن والده، وهو في الأصل من جزر القمر، عارض استقلال أرخبيله الأصلي: "لم نكن مستعدين لتحمّل تلك المسؤوليات"، كما اعترف بهدوء. باستخدام دهاءه للحصول على جواز سفر وهو لا يزال قاصرًا، نال هذه الوثيقة الثمينة التي سمحت له بالسفر والاحتفاظ بالجنسية الفرنسية التي كان يعتز بها، والتي سيفقدها آخرون بندمٍ لا يجرؤون دائمًا على الاعتراف به. بعد سنوات، فقدت والدته، التي بقيت في أرخبيل يفتقر إلى الخدمات الأساسية بقدر ما يزخر بالمساجد، حياتها في البحر أثناء محاولتها الوصول إلى مايوت بحثًا عن الرعاية الطبية. بعد انتهاء فترة الحداد، عادت الحياة إلى مسارها، دون تغيير يُذكر. لم تُسمع سوى أصوات قليلة تعبّر عن استنكارها لحال أمة سمحت بحدوث هذه المأساة، بعد نصف قرن من الاستقلال. وكأن هذه المأساة قدرٌ محتوم لا مفر منه، لا يمكن لأي مجتمع تجنبه بحكم أفضل. وهكذا، بقيت شوارع هذا البلد الضيقة، ومنازله الهشة تحت أسقفها المصنوعة من الصفيح المموج التي صدأت بفعل هواء البحر، جامدة، بعيدة كل

البعد عن تيارات عالم متغير. في الشمال، لم يقتصر أثر انتهاء الحرب الجزائرية على طرد ملايين من المستوطنين الفرنسيين واليهود والحركات، الذين كانوا يدركون تمامًا انعدام الأمن الذي سيعقب انتهاء الحكم الفرنسي، في انتهاك لاتفاقيات إيفيان التي كان من المفترض أن تضمن "حماية أشخاصهم وممتلكاتهم". في الوقت الذي طرد فيه الجزائريون الأوروبيين، وجد الكثير منهم ملاذًا بين غير المسلمين للاستفادة من الأمن الذي لم يكن متاحًا في وطنهم الجديد. لا بد من الاعتراف بأن هذه الأمة وُلدت، كغيرها الكثير، تحت وطأة سوء الفهم. كان يُعتقد أن بؤساء الأرض يناضلون من أجل المساواة التي حرمتهم منها أوروبا. كتب فرانز فانون: "ليس هناك شخص مُستعمَر لا يحلم، ولو مرة واحدة في اليوم، بأن يحل محل المُستعمِر". هذا على الأقل يُشير إلى أن الأول سيُحاكي فضائل الأخير. بدافع من نوايا نبيلة، اعتقد الرسل وغيرهم من مؤيدي حركة الاستقلال أنهم يعملون من أجل عالم أفضل. «نريد أن نرى هذا البلد حراً مستقلاً، بمساعدة فرنسا. حينها، ستتمكن فرنسا من الاعتماد علينا وعلى الإسلام أجمع»، هكذا أعلن الناشط

الاستقلالي مسالي الحاج، الذي قضى نحبه في فرنسا بسبب استبعاده من الحركة التي ساهم في تأسيسها. وقد أُبيد أنصاره على يد جبهة التحرير الوطني خلال حرب الاستقلال، التي حصدت فيها هذه الجبهة ضحايا من السكان الأصليين أكثر مما حصدته من الفرنسيين. وقد خاب أمل الإنسانيين عندما اكتشفوا أن الجزائريين أبعد ما يكونون عن الرغبة في استبدال الحكم الاستعماري بنظام أكثر احتراماً، على عكس الكونفدراليين الذين ثاروا ضد لينكولن باسم حقهم في امتلاك السود.
«على النساء العودة إلى الكسكس»، هكذا أصر محمد خضر، أحد قادة جبهة التحرير الوطني، بعد انتهاء الثورة4 أما بالنسبة للفرنسي بيير مايوت، المولود في الجزائر، فلم يكن الأمر يتعلق بالنضال من أجل الاشتراكية، أو الإصلاح الزراعي، أو تحرير المرأة، أو الحريات الديمقراطية. كان الأمر يتعلق بتحرير أرض الإسلام من وجود الكفار، واستئناف الاسترداد الذي يعود تاريخه إلى الحروب الصليبية. كان الأمر يتعلق بالجهاد. في تلك السنوات الأولى للاستقلال، أدركتُ أن جبهة التحرير الوطني لن تحظى بدعم الجماهير

بشعارات الديمقراطية والثورة والعلمانية والحداثة، باختصار، بالشعارات الغربية التي خصصتها لسياستها الخارجية5 ويؤكد هذا الشعور تصريحات الرئيس بن بلة، الذي أكد أن الإسلام السياسي يمنح الجزائر والعالم العربي "أفضل فرص التحرر الحقيقي"، وذلك قبل عشر سنوات من اندلاع حرب أهلية أودت بحياة أكثر من 150 ألف شخص، عقب قرار الجزائريين تسليم زمام بلادهم لجبهة الإنقاذ الإسلامية6 وقلةٌ، مثل الناشط الاستقلالي مصطفى الشرف، حذروا من أن "الإسلام يحمل في طياته ثقل تلك القيم الخاصة بحضارة ريفية عتيقة، والتي من شأنها أن تُبطئ تحديث البلاد"7 فشل الاستقلال: غارقةً في التخلف بسبب تمسكها بالخرافات وخياراتها الخاطئة، ومُقوَّضة بالفساد والصراع، عانت العديد من هذه الدول الجديدة من نزيف في قواها الحيوية، مما سبب إحراجًا كبيرًا لقادتها. منذ ثلاثينيات القرن العشرين، إبان الموجة الأولى من الهجرة إلى ما كان يُعرف آنذاك بـ"العاصمة"، ربط القادة الوطنيون الجزائريون ضرورة الاستقلال الوطني بحل قضية الهجرة. فقد رأوا أن استقلال الجزائر

كافٍ لوقف الهجرة والسماح بـ"عودة" الجزائريين لبناء بلادهم. [...] ولكن، بعد تحقيق الاستقلال عام ١٩٦٢، لم تتحقق توقعات "العودة". ويقر ميثاق الجزائر لعام ١٩٦٤ الصادر عن جبهة التحرير الوطني بأن "أسباب الهجرة الجزائرية إلى أوروبا [...] مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمستوى التنمية". ولا يمكن الحد منها أو إبطاؤها، بل لن تتوقف إلا بزوال أسبابها الرئيسية٩ ولكن يجب أولًا تحديد هذه الأسباب. يأسف الكاتب الفرنسي المغربي طاهر بن جلون قائلاً: "اليوم، أصبحت دول المغرب العربي مكتفية ذاتياً، ولكن ليس تماماً، إذ لا يزال الإنسان يُزيل الغابات من هذه الأرض. ويستمر رأس المال الكبير في استنزاف الأرض بشكل منهجي من أثمن مواردها: شعبها. ويتكرر عنف الأمس الاستعماري اليوم بطريقة أشد فتكاً، حيث تتفاقم متطلبات الحاجة (البطالة في بلدان المنشأ) بتواطؤ البرجوازية المحلية."10 عند قراءة هذا النص، قد يظن المرء أن الشركات الأوروبية قد جابت قرى المغرب العربي لاختطاف الرجال، على غرار الأتراك الذين كانوا يختطفون المسيحيين المُعدّين لحرس السلطان. إن عزو الهجرات

إلى إرث الاستعمار أو الحاجة إلى إعادة الإعمار هو تضليل للجميع وإجحاف بحق المتضررين. بالتأكيد، تكرر نمط فرار الشعوب التي كانت مُستعمَرة إلى القوة الاستعمارية السابقة في أماكن كثيرة. فقد استقر العديد من الباكستانيين في إنجلترا. كانوا يفرون من أمة ولدت من رحم تقسيم دموي، تميز بتبادل السكان لفصل المسلمين عن الهندوس: "إن فكرة أن الهندوس والمسلمين يمكنهم إنشاء أمة مشتركة هي مجرد حلم"، هكذا أعلن مؤسس باكستان، محمد علي جناح. في الواقع، لم يتسامح الهندوس مع الهندوس إلا عندما سيطروا عليهم. ومع ذلك، تمكنت دول أخرى من قلب الوضع لصالحها.على سبيل المثال، هاجر عدد أقل من السنغافوريين إلى مواقع البناء الأوروبية. كان من الصعب للغاية توظيفهم في وظائف متدنية المهارة بأجور زهيدة، حتى لو كانت أجورهم أعلى من تلك الموجودة في دول الجنوب العالمي. ولسبب وجيه: فالمدينة الدولة، التي لم يتوقع الكثيرون نجاحها بعد انفصالها عن ماليزيا، تُعد الآن من أغنى الأماكن على وجه الأرض، بينما كان دخل الفرد فيها بالكاد أعلى من نظيره في أفريقيا

قبل ستين عامًا13 إن الإرث الاستعماري ليس لعنة تُحكم على السكان الأصليين بالفقر الدائم، كما يتضح من تقدم آسيا. خاصةً وأن بعضهم لم يبدأ من الصفر. ففي نهاية حرب الاستقلال، كانت الجزائر تمتلك 10,000 كيلومتر من الطرق المعبدة، و4,300 كيلومتر من السكك الحديدية، و10 موانئ من بينها 3 موانئ ذات أهمية دولية، و20 مطارًا مدنيًا، و 16,000 كيلومتر من خطوط الجهد العالي، و 30,000 سرير في المستشفيات، بالإضافة إلى بنية تحتية أخرى. 14 وكما كان النزوح الريفي حلاً للفقراء الباحثين عن حياة أفضل، فإن الوجود الإسلامي في الغرب ينبع من فشل الاستقلال، إن صحّ التعبير عن هذا المصطلح للدول التي استبدلت الهيمنة الأجنبية بنير الطغاة المحليين. تصدير الخرافات: وهكذا، حزنت أوروبا على فقدان مستعمراتها أسرع من حزن الدول المستعمرة سابقاً على أوروبا، التي لا تزال بالنسبة للكثيرين أضمن وسيلة لإطعام عائلاتهم في أوطانهم. 15 كان من المفترض منطقياً أن يؤدي فشل حركات الاستقلال إلى ثني الوافدين الجدد عن العادات التي منعت أسلافهم من الفرار من الفقر

والظلم، ودفعهم بدلاً من ذلك إلى تبني عادات مجتمعاتهم الجديدة، التي وفرت لهم أماناً لم يكن متاحاً في بلدانهم الأصلية. في المدرسة الثانوية، أتيحت لي الفرصة لمقارنة مصير الفتيات في بلدي بمصير الفتيات الفرنسيات. [...] نحن، فتيات أوائل الستينيات، كانت أمامنا نماذج حياة أكثر إغراءً من نماذج آبائنا وأمهاتنا، الذين كانوا يجذبوننا كالمغناطيس. وهكذا، ودون أن ندري، كنا نُهيئ أنفسنا لصراع ثقافات وأجيال سيحصد ضحايا أكثر بكثير مما كان الفرنسيون يتخيلونه - ولا يزالون عاجزين عن تخيله. هذا ما يمكن قراءته في كتابات ديورا، المغنية الفرنسية من أصل قبائلي، التي هددها إخوتها بسبب زواجها من فرنسي16 للأسف، لم تحدث ثورة المحدثين ضد القدماء. على الأقل، لم تصل إلى النطاق الذي تستحقه. فقد اختار الكثير من المنفيين إدامة تقاليدهم الرجعية بتكرار مطالب عبثية: مساجد، ومدارس قرآنية، وغرف صلاة في أماكن العمل لاستحضار إلههم المتوهم، ناهيك عن الحق في ارتداء ملابس تُذكّر بعصر آخر17 العنف، والقبلية، والظلامية: هذه الآفات التي تُعاني منها العالم الإسلامي قد نُقلت إلى قلب أوروبا،

بمباركة قادتها. "ماذا تتوقعون مني أن أفعل إذا أصبحت فرنسا مُسلمة؟" أجاب وزير التعليم الفرنسي ليونيل جوسبان أحد الصحفيين عام ١٩٨٩: "لقد أنهينا نحن الفرنسيين حروبنا الدينية منذ زمن طويل، ومع ذلك لم تسمح لنا قرون عديدة بنسيان فظائعها. من منا يرغب في رؤية حروب جديدة تندلع على أرضنا؟" وقد أثار هذا الأمر قلق المؤرخ فرناند بروديل إزاء هذه الموجة الجديدة من الهجرة، التي بدت أكثر عداءً للقيم المحلية من الموجات السابقة. وكانت أولى شرارات هذه الحرب، التي شُنّت في قلب المجتمعات الليبرالية، قضية سلمان رشدي. فبعد ثلاثة قرون من إعدام توماس أيكنهيد، آخر بريطاني حُكم عليه بالإعدام بتهمة التجديف عام ١٦٩٧، وُضعت مكافأة على رأس مواطن بريطاني آخر، وُلد هو نفسه في عائلة مسلمة، بتهمة السخرية من نبي مزعوم لا يُعرف عنه شيء تقريبًا. علاوة على ذلك، لم يصدر هذا الحكم عن السلطات المحلية، ولم يكن بإمكان الشخص المعني الطعن فيه بشكل قانوني. بل صدر على بُعد ٤٠٠٠ كيلومتر من لندن، من قِبَل زعيم إيران المتطرف، الذي منحته فرنسا اللجوء قبل عقد من الزمن بدلًا

من طرده. قلةٌ أدركت مغزى هذه السابقة. فقد كانت المجتمعات الإسلامية تكتفي حتى ذلك الحين باغتيال أو اضطهاد أبرز عقولها المستنيرة داخل حدودها، تاركةً لهم على الأقل مخرجًا واحدًا. ولكن، ولأول مرة، باتت شريعة محمد تمنح نفسها الوسائل لتطبيقها على البشرية جمعاء، المحاصرة داخل سجن الإسلام. وكما عبّرت الناشطة البنغلاديشية تسليمة نسرين ببراعة، فإن هذه المناورات تُنبئ منتقدي الإسلام بأنهم لن يكونوا في مأمن في أي مكان، لا سيما بعد أن يتحرروا هم أنفسهم من هذا الدين21 إلا أن هذا التنديد كان سيبقى حبرًا على ورق لولا ترحيب أوروبا بهذا العدد الكبير من المسلمين المستعدين للمشاركة في هذه المحاكمة، كما يتضح من آلاف المتظاهرين الذين طالبوا برأس رشدي في شوارع إنجلترا وفرنسا دون أن تتكرم الدول المعنية بطردهم قسرًا. أظهر استطلاع رأي نُشر في 20 أكتوبر/تشرين الأول 1989 أن 28% من المسلمين البريطانيين أرادوا موت سلمان رشدي، بينما دعا ما يقرب من ثلثيهم إلى إتلاف أعماله علنًا22 أيد المغني الشهير كات ستيفنز، الذي اعتنق الإسلام، حكم

الإعدام على رشدي دون أن يواجه أي عواقب من النظام القضائي البريطاني23 قال إقبال سكراني، سكرتير المجلس الإسلامي البريطاني، قبل أن تمنحه ملكة إنجلترا لقب فارس بعد بضع سنوات: "لا شك أن الموت رحيم جدًا به"24 لم تقتصر هذه الحرب على إنجلترا، بل شُنّت في كل مكان ضد أولئك الذين ساعدوا في نشر أعماله. قُتل مترجمه الياباني، وأُطلق النار على ناشره النرويجي، وطُعن ناشره الإيطالي. كان الغرب يشهد تراجعاً غير مسبوق: "عندما كنت في باريس، كان كتابٌ يُفنّد قدسية النبي يسوع، وهي العقيدة التي تُشكّل أساس المسيحية، على وشك النشر". ونظراً لشعبية هذه الفكرة، يبدو أنه طُبع أكثر من مئتي ألف نسخة. «لم يكن لحظر قراءة الكهنة لهذا الكتاب أي أثر»، هكذا روى خير الله أفندي العثماني في ستينيات القرن التاسع عشر، متحدثًا عن كتاب رينان «حياة يسوع»، الذي، رغم تعرضه لعقوبات مهنية ظالمة، لم يخشَ على حياته قط25 وبينما اكتسب عالمنا، بعد كل هذا السفك للدماء، الحق في التساؤل عن الأديان، فإن ممارسة حرية الضمير تُعرّض المرء مرة أخرى

لمخاطر كان يُعتقد أنها من الماضي. «إن التنديد بالإسلام في فرنسا لا ينطوي على أي خطر، باستثناء اكتساب شهرة سيئة بسهولة»، هذا ما أكده الصحفي آلان غريش، بعد خمسة عشر عامًا من هذه الحادثة26 في العام الذي نُشرت فيه هذه السطور، قُتل المخرج السينمائي ثيو فان جوخ على يد مسلم في هولندا، اغتيل بسبب إخراجه فيلمًا ينتقد وضع المرأة في بلاد الإسلام. كما تلقت زميلته، آيان حرسي علي، ذات الأصل الصومالي، تهديدات بالقتل. فهربت من الوطن الذي رحب ذات يوم بديكارت، وجدوا ملجأً في الولايات المتحدة، ليصبحوا "أول لاجئ من أوروبا الغربية منذ المحرقة"، على حد تعبير رشدي، الذي نُفي هو نفسه إلى أمريكا قبل أن يقع فريسة للتطرف الإسلامي27 أوروبا، التي تفتخر ببناء وحدتها على حماية الأقليات، تعود لتصبح مرة أخرى منطقةً يضطر فيها أشجع الأفراد إلى الفرار هربًا من اضطهاد دين أجنبي28 ثم جاء العنف الذي حصد أرواح أكثر من مئة شخص في أعقاب "قضية الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية"، من بين فظائع أخرى ارتُكبت باسم الخرافة نفسها. في أعقاب هذه الأحداث،

وُضع رسام الكاريكاتير الدنماركي كورت ويسترغارد والفنان السويدي لارس فيلكس، إلى جانب زميليهما فليمنغ روز وكارستن جوست، تحت حماية الشرطة مدى الحياة. ودفع صحفيو شارلي إيبدو لاحقًا الثمن الأغلى لدفاعهم عن حرية انتقاد الأديان، ويضطرون الآن إلى العمل من مكان سري لتجنب التعرض لمذبحة ثانية. كما أُمر مديرها السابق، فيليب فال، الخاضع أيضًا للحماية، بتركيب خزنة في شقته. في عام 2018، اقترحت السلطات عليه مغادرة البلاد لفترة قبل منحه حماية مشددة. هذا وضع غير مسبوق في ديمقراطياتنا منذ نشأة الصحافة29 ووفقًا لإحصاءات داخلية لجهاز الحماية، فإن "ثلث مهام الحماية الشخصية اليوم تتعلق بأفراد أدلوا بتصريحات عدائية أو ناقدة أو ساخرة تجاه الإسلام أو الإسلاموية أو المسلمين"30 أسلمة النظام السياسي الأوروبي. صاغ البروفيسور جيل كيبل مصطلح "الجهادية المناخية" لوصف هذا التهديد المنتشر الذي يخيم على مجتمعاتنا31 وهو تهديد لم يزد تدفق السكان المعادين لقيمهم إلا من حدته: "ربما يوجد اليوم في أوروبا عدد من المتعاطفين مع

الجهاديين يفوق ما كان عليه قبل عشر سنوات"، كما قدر الباحث هوغو ميشيرون في يناير 2025[32] ليس من قبيل المصادفة أن رواية الكاتب ميشيل ويلبيك، حظي فيلم "الخضوع"، الذي يصوّر وصول مسلم إلى رئاسة الجمهورية دون أدنى مقاومة، باهتمام دولي واسع[33] لكن الواقع أشدّ فتكًا من الخيال. ففي سياق ساخر، يصوّر الفيلم استيلاءً إسلاميًا على السلطة عبر الانتخابات، واعتماد الشريعة الإسلامية في البرلمان قبل نشرها في الجريدة الرسمية. ومع ذلك، لا يحتاج المتعصبون لمحمد إلى التواجد في قلب المؤسسات لترسيخ سلطتهم، بل يكفيهم بلوغ كتلة حرجة لتنهار الحرية تحت وطأة العدد، حتى يُجبر الخوف مجتمعاتنا على استيعاب معاييرهم، ولو بشكل غير رسمي: "في بنغلاديش والهند، صدرت ضدي عشر فتاوى على الأقل حتى الآن." على الرغم من أن هذه الأفعال محظورة بموجب القانون في كلا البلدين، إلا أن المتشددين الذين يصدرونها لديهم أتباع كثر لدرجة أنهم لا يعانون أبدًا من نقص المتطوعين لتنفيذها، كما كتبت نسرين. وفي أوروبا أيضًا، تتزايد المؤشرات على تقلص

حدود الحضارة. ففي عام 1995، أعقب مقتل خالد كلكال، أول إرهابي مسلم نشأ في فرنسا، اشتباكات بين السكان المحليين والشرطة في ضواحي ليون، موقع أولى أعمال الشغب "العرقية" في سبعينيات القرن الماضي. وفي عام 2001، نقل كتاب "الأراضي المفقودة للجمهورية" شهادات معلمين واجهوا تصاعد التمييز الجنسي وكراهية المثليين ومعاداة السامية بين تلاميذ المدارس الفرنسية من ذوي الثقافة الإسلامية. وفي عام 2004، أكد مفتش التعليم الوطني جان بيير أوبين هذه التجربة في تقرير، مشيرًا إلى هذه "الحقيقة المذهلة والقاسية: في فرنسا، الأطفال اليهود - وهم الوحيدون في هذا المجتمع - الوضع - لم يعد بالإمكان تعليمهم في أي مدرسة. في عام 2006، قررت دار نشر بيلين طمس وجه النبي محمد في كتب التاريخ لطلاب المرحلة المتوسطة استجابةً لمخاوف من حدوث اضطرابات36 في أوائل عام 2020، اضطرت مراهقة إلى الانسحاب من المدرسة وتعرضت لحملة تشهير بسبب انتقادها لشخصية خيالية 37 بعد بضعة أشهر، قُتل مدرس لأول مرة في التاريخ الفرنسي على يد مسلم، بتواطؤ من

بعض الطلاب، بسبب الدرس الذي كان يُدرّسه 38 تكررت هذه الجريمة بعد ثلاث سنوات39 يقول أربعة من كل خمسة معلمين إنهم يخشون مواجهة مواقف قد تنطوي على نزاعات مع بعض الطلاب فيما يتعلق بمعتقداتهم الدينية. ويقول أكثر من نصفهم إنهم فرضوا رقابة ذاتية على أنفسهم خوفًا من وقوع حوادث. «لم يعد أي مستوى تعليمي، أو تخصص، أو مادة دراسية، أو منطقة بمنأى عن ذلك»، هذا ما أشار إليه أوبين في عام 2023، مُلفتًا الانتباه إلى أن الاحتجاجات الدينية تتضاعف في المناطق التعليمية ذات الأولوية، والتي تتميز بكثافة سكانية عالية من المسلمين 40 فماذا عسانا أن نفهم حال أمة يخشى فيها من يُفترض بهم نقل قيمها على حياتهم؟ وهكذا، تُهيأ جميع الظروف لما أسماه رئيس فرنسي سابق «تقسيم» البلاد41 ولا يقتصر هذا التدهور الحضاري على فرنسا وحدها. فالمملكة المتحدة تُقدم أحد أبرز الأمثلة على انحلال دولة كانت يومًا ما من معاقل الديمقراطية الليبرالية. لقد أصبحت هذه الدولة، التي أجبرت العديد من الدول على معالجة قضية العبودية خلال القرن التاسع

عشر، قاعدة خلفية للجهاد الدولي، لدرجة أن عاصمتها لُقبت بـ«لندنستان»: فقد استفاد الجهاديون ودعاة الكراهية من التسامح المروع هناك، مما سمح لنظام بيئي متطرف بالتجذر في إنجلترا42 في عام 2008، أثار رئيس أساقفة كانتربري جدلاً واسعاً عندما زعم أن تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين سيصبح أمراً لا مفر منه في المسائل المدنية 43 والآن، وصل انتشار الإسلام إلى درجة أن نظام "العدالة" في الدولة التي ابتكرت قانون المثول أمام القضاء (Habeas Corpus) يُسرع في محاكمة لاجئ تركي بتهمة حرق القرآن من ملاحقة العصابات الباكستانية المتخصصة في اغتصاب الفتيات البيض، ناهيك عن العملاء الذين تستروا على جرائمهم44 ولم تكتفِ المملكة المتحدة بنفي رشدي، بل شعرت في عام 2018 بأنها مُلزمة برفض طلب اللجوء لامرأة باكستانية مسيحية مُهددة بالقتل في بلدها الأم، بسبب وجود متطرفين على الأراضي البريطانية45 وعلى الرغم من ذلك، لا يجد الإنجليز أي مشكلة في إسناد الإشراف على نظامهم التعليمي إلى إسلامي يدعو شخصية سعودية بارزة إلى مدارسه

متضرعاً إلى الله أن "يقضي على اليهود"46
وفي بعض الحالات، تكون الشرطة البريطانية
أسرع في يُفضّل اعتقال النشطاء الذين يُهينون
حماس أو حزب الله على اعتقال من يدعون
علنًا إلى قتل اليهود في الشوارع47 في الوقت
نفسه، يظهر رئيس الوزراء الاسكتلندي
السابق، بلا خجل، إلى جانب زوجة الديكتاتور
التركي أردوغان في منظمة تُعنى بتعزيز نفوذ
الإسلام في مجتمعاتنا، بينما يدعو زعيم حزب
العمال الاسكتلندي الأقليات من شبه القارة
الهندية إلى السيطرة على الحكومة والمدارس
في تجمع رُفع فيه علم "جمهورية" باكستان48
يبدو الأمر كما لو أن البريطانيين، من خلال
سلبيتهم تجاه هذه الطابور الخامس، يُنفّذون
عن قصد مقولة نائب الرئيس الأمريكي بأن
المملكة المتحدة قد تُصبح أول دولة إسلامية
تمتلك أسلحة نووية، إذا استُبعدت باكستان
49بعد أن رحّبت بلجيكا بجالية مغربية وتركية
كبيرة، وأوكلت إدارة شؤون العبادة الإسلامية
إلى السعوديين بحكمة، باتت تدرك أن بعض
أحيائها أصبحت معقلاً للإرهاب، لدرجة أن
المملكة، إلى جانب الدول الاسكندنافية، تُعدّ
من بين الدول الغربية التي أرسلت أكبر عدد

من الجنود إلى داعش نسبةً إلى عدد سكانها 50 وعلى التلفزيون البلجيكي الرسمي، يشرح المسؤولون المنتخبون بهدوء رغبتهم في إقامة دولة إسلامية في أرض روبنز، بينما يتبوأ إسلاميون لا يتحدثون الفرنسية ويفرحون باغتيال رسامي الكاريكاتير أعلى المناصب المحلية، دون أن يطالب أحد بطردهم51 ويسمح برلمان بروكسل لإمام باكستاني بتلاوة سور من القرآن داخل جدرانه تدعو إلى اعتناق الكفار للإسلام، مُخاطراً بتحويل هجاء هولبيك إلى فيلم وثائقي52 وتكتشف دول البنلوكس أن بعض مدارسها تعاني من تعصب طلابي. والمعلمون، وفي اعتراف بالعجز، يقررون نقل مباراة كرة قدم تضم إسرائيليين إلى المجر التي يرأسها فيكتور أوربان. 53. لقد بلغ غسل الدماغ في هذا البلد مستوىً جعل صحفية بلجيكية، للحكم على أخلاقية ارتداء الفتيات الصغيرات للحجاب، لا تستند إلى الآداب العامة، بل إلى الشريعة الإسلامية التي، كما تقول، تجيزه من سن البلوغ، بين التاسعة والثانية عشرة: "تُعتبر هذه اللحظة، بطريقة ما، اللحظة التي تصبح فيها الفتاة امرأة قادرة على التمييز. لا أحد في الصحيفة مستاء من

الجرائم التي يمكن أن يبررها هذا المنطق." ٥٤. في ألمانيا، ينصح قائد شرطة برلين اليهود والمثليين بتوخي الحذر في بعض الأحياء العربية. ٥٥. الدولة التي فتحت أبوابها لأكثر من مليون مسلم دون أي رقابة تكتشف الآن وجود حدود في قلب بلد غوته، حيث أصبحت المظاهرات التي ينظمها آلاف المتعصبين المؤيدين للخلافة أمراً شائعاً. ٥٦. الدولة التي تفخر بثقافة الترحيب لديها تشهد الآن مسلمين مقيمين في كولونيا يدعون بلا خجل ممثلاً عن طالبان، بينما تهرب جارية سابقة لتنظيم الدولة الإسلامية إلى العراق بعد لقائها معذبها قرب شتوتغارت. ٥٧. في الدنمارك، يتبنى البرلمان، تحت ضغط من ائتلاف من الأنظمة الديكتاتورية الإسلامية، قانوناً يتعارض مع حرية التعبير ويحظر حرق القرآن. ٥٨. في السويد، حيث يكفي حرق القرآن لإشعال حي بأكمله، تسارع السلطات إلى مقاضاة من يُزعم أنهم يجدفون بدلاً من أولئك الذين يهددونها، والذين سيقتلون في نهاية المطاف أحد أفرادها أمام محكمة محلية. يدين رفيقه59 هذه الحالات الكارثية ليست سوى عينة من الشذوذات التي اعتاد عليها الأوروبيون. إنها تستحق كتابًا كاملاً

مخصصًا لها. من المسؤول؟ يشير ميشيرون إلى أنه بدلاً من استخلاص الدروس اللازمة من هذه الشذوذات، سعت كل دولة إلى تفسير التعصب الإسلامي من خلال محاكمة نظامها الخاص، دون أن تدرك أن هذا التعصب يتجلى في سياقات مختلفة60 ونقرأ في كلمات فيرجيني ديبانت عن منفذي شارلي إيبدو: "أحببتُ يأسهم أيضًا". طريقتهم في القول - أنتم لا تريدونني، لا تريدون رؤيتي، تظنون أنني سأعيش حياتي منحنيًا في غيتو، أتحمل عدائكم دون أن أزعج أسبوع تسوقكم أو جولة الجولف الخاصة بكم - سأقتحم واقعكم اللعين الذي أكرهه لأنه لا يستبعدني فحسب، بل يضعني أيضًا في السجن ويحكم على جميع أبناء شعبي بعار الفقر المدقع61 هذا النثر لا يقتصر الأمر على كونه ينضح بالوصاية، بل يتجاهل حقيقة أن الفقر لم يكن يومًا القاسم المشترك بين أتباع محمد المتعصبين. ففي دراسة أجراها باحثان على 1200 مسلم في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، لاحظا أن التمسك بالأصولية يزداد مع ازدياد ثروة أسر المستجيبين62 الوضع الاجتماعي والاقتصادي "ليس عاملًا أساسيًا في التمسك بالأصولية"63 ألم يكن الغرب أفقر

من العالم الإسلامي اليوم عندما أعلن حقوق الإنسان ووضع أسس الديمقراطية الحديثة؟ في حين أن عصرنا غارق في دعوات التفكيك، لدرجة أن مكافحة العنصرية والتمييز الجنسي تبرر تغيير عناوين الروايات أو قواعد الإملاء، فمن الغريب أنه لا يزال يرفض الاعتراف بخطر خرافة تمجد قاتلًا. قد يدعي أعداء حضارتنا اتباع الكتاب والنبي والإله نفسه الذي تنشر قوانينه الخراب أينما وُجدت، لكن الجبن يجعل من السهل إلقاء اللوم على قصور الغرب بدلًا من آفات المجتمعات الإسلامية، على الرغم من يتبين للجميع من النظرة الأولى أن هؤلاء لا يملكون دروسًا في التسامح ليقدموها للأول. خفة عقول المسلمين التي لا تُطاق: "إن الخلط بين مجتمع بأكمله - من حيث الأصل أو الثقافة أو المعتقد - وبين أفعال قلة من الأفراد الذين يدّعون تمثيله أو الاستفادة منه، هو تمهيد للظلم". يقول الصحفي إدوي بلينيل، معارضًا الانتقادات الموجهة للإسلام مع التزام الصمت حيال وضع الحريات والأقليات في العالم الإسلامي: "إن السماح لمثل هذا الخطاب بالتجذر من خلال صمتنا هو بمثابة تعويد ضمائرنا على الإقصاء، وترسيخ شرعية التمييز

وقبول الخلط"64 ولكن إذا كانت مجتمعاتنا مذنبة باللامبالاة تجاه الأحكام المسبقة التي تحملها، فماذا يُقال عن سلبية المسلمين في مواجهة الجرائم التي لا تُحصى والتي تُرتكب باسمهم؟ من الشائع بالفعل التقليل من مسؤولية الإسلام أو خطورته بحجة أن الظالمين الذين يدّعون تمثيله هم أقلية. تتجاهل هذه الفكرة الشائعة حقيقة أن التاريخ هو دائمًا نتاج حفنة من الأفراد ذوي الدوافع65 لاحظ المؤرخ ألفونس أولارد، مشيرًا إلى البلاشفة الذين غيّروا مصير روسيا والعالم: "كل ثورة هي نتاج أقلية"66 ألم يكن الفاتحون الذين أسلموا الشرق، في أصولهم، أقلية ضئيلة غارقة في عالم تهيمن عليه "القوى" "من الشر والظلام"، كما يُعلن المفكر المغربي علي الكتاني بفخر؟ 67 ألم يُمثل الجهاديون الذين حوّلوا سوريا إلى أرض خراب 0.3% فقط من السكان المحليين؟ 68 تُصبح الأقليات الفاعلة أكثر خطورة لأن المجتمعات التي تنشأ منها - والتي تُشكل مصدر تجنيدها - لا تُبدي أي مقاومة. قال ألبرت أينشتاين: "لن يُدمر العالم من قِبل من يرتكبون الشر، بل من قِبل من يشاهدونهم دون أن يفعلوا شيئًا". هذا بلا شك

هو السبب في حث الألمان على التفكير في الجرائم التي تسامحوا معها، على الرغم من أن عملاء الرايخ الثالث لم يُشكلوا سوى جزء صغير من الشعب الألماني. 69 ومع ذلك، فإن الجانب الأكثر إزعاجًا في الوضع الحالي هو صعوبة تمييز أي علامات على السخط والانفصال عن الفظائع التي لا تُحصى والتي ارتُكبت باسمهم، ضمن المجموعة الكبيرة من ما يُسمى بالمسلمين المعتدلين، من خلال إدانة النصوص والتقاليد التي يُطبقها المتعصبون بإخلاص شديد. 70 في عام 2003، كانت الدول الغربية مواقع بعض أكبر المظاهرات في التاريخ الحديث ردًا على الغزو الأمريكي للعراق71 لا يوجد ما يُماثل هذه الاحتجاجات الداخلية في الغرب في العالم الإسلامي، حيث تكفي الرسومات لحشد الجماهير. وبينما أعقب الهجوم على شارلي إيبدو مظاهرة دولية في باريس، أشار البعض إلى قلة وجود الفرنسيين من أصول مهاجرة مسلمة. لا تحظى مؤسساتنا بدعم أي مجتمع مدني إسلامي جدير بهذا الاسم، على الرغم من الهجمات المستمرة التي تتعرض لها. تساءلت صحيفة "لا كروا" مخاطبةً أحد علماء الدين الذين

يعملون الآن لصالح دكتاتورية جزر القمر: "لماذا يوجد عدد قليل جدًا من الأئمة في فرنسا القادرين على إيصال رسالة تهدئة؟"73. في وسائل الإعلام الغربية، يتناقض ندرة الشخصيات والمنظمات الإسلامية التي تُكرس وجودها لمحاربة الآفات التي لا تُحصى والتي تنتشر في الإسلام مع وفرة المُتحدثين المُتعصبين المُتخصصين في التنديد بالإسلاموفوبيا، مثل دكتاتور متعطش للدماء سيشعر بالسخط إزاء النفور الذي يُثيره نظامه، أو هذا الإمام الذي يستغل ذكرى... اغتيال صامويل باتي للتنديد بما يُزعم من وصم المسلمين، وليس الإرهاب الذي استشرى في المدارس بسبب أفعال شريحة كبيرة منهم. 74. في فرنسا، يواجه المسلمون الذين يبحثون عن معلومات حول دينهم، سواء عبر الإنترنت أو في المكتبات الإسلامية، في الغالب خطابًا أصوليًا، كما أوضح فريق برنارد روجيه، الذي يستنكر الغياب شبه التام للموارد الليبرالية أو النقدية التاريخية. 75. بعد ثلاث سنوات من التسلل إلى 70 مسجدًا فرنسيًا، كشف صحفي يستخدم اسمًا مستعارًا أن الأصولية لا تقتصر على المؤسسات التي

تصنفها السلطات على أنها متطرفة: إذ يدعو إمام في مسجد بالدائرة الحادية عشرة في باريس إلى الخلافة، وتوزع مؤسسة أخرى في لْهِي ليه روز كتبًا تدعم الاغتصاب الزوجي، بينما يقدم مسجد آخر في كريتيل لمصليه كتبًا تبرر زواج الأطفال القسري. 76. "إن الإسلام المستنير، أو المفكرين الإسلاميين الجدد إن وُجدوا، يكافحون لإيجاد موطئ قدم لهم بين المسلمين الفرنسيين"، هذا ما جاء في تقرير رسمي. 77. ولأنّ ذلك سيكون كارثيًا على الإسلام وعلى من يستمدون قوتهم من الخرافات، فإنّ المنهج التاريخي النقدي للنصوص الإسلامية غائبٌ تمامًا في الأوساط الإسلامية، لدرجة أنّ إحدى وسائل الإعلام الفرنسية تعتبر فكرة أنّ القرآن من صنع البشر "ثورية". 78. وقد صرّحت المؤرخة جاكلين شابي بغضب: "لقد أنتجت الديانات التوحيدية الأخرى، المسيحية واليهودية، تاريخها النقدي. ولكن إذا بحثت عن تاريخ نقدي لبدايات الإسلام، فلن تجد شيئًا [...]". علماء المسلمين، التاريخ النقدي، لا يعرفون ما هو 79. حتى أكثر الهيئات الإسلامية رسمية في فرنسا وأوروبا تتحد في إنكار الآفات التي تبتلي

دينهم، مثل إمام المسجد الكبير في باريس الذي يرفض وصف حماس بأنها جماعة إرهابية، أو تصنيف الجزائر كديكتاتورية، أو الاعتراف بوجود معاداة سامية شرسة داخل الإسلام: كل هذه المواقف ترقى إلى منح الضوء الأخضر للظالمين والمتعصبين 80. هذا اللامبالاة لا يمكن إلا أن تغضبنا، نحن أتباع سارتر: ألم نتعلم أن اللامبالاة تجاه الشر هي خيار وأن بعض الصمت هو تواطؤ؟ والأسوأ من ذلك، أنه على عكس رفض الأوروبيين للمشاعر القومية بسبب الجرائم المرتكبة باسمها، وعلى عكس موجات التخلي عن المعمودية التي تشهدها الكنائس المسيحية مع كل فضيحة تطالها، يُضاعف المسلمون من مظاهرهم في تأكيد إيمانهم، بينما تُعرض الجرائم التي يُحرض عليها أمام الجميع81 ويزداد هذا التباهي ريبةً عندما يُنسب إليه المتشددون هدف التبشير والترهيب 82 لم نشهد من قبل هذا الكم من المؤسسات الإسلامية، والحجاب، والرجال الملتحين، والمنتجات الحلال، والمطالب، والمكتبات، والمدارس، وصلوات الشوارع، والتدخلات الإسلامية في الشركات والخدمات العامة، كما هو الحال الآن، منذ أن أصبحت صور قطع

الرؤوس، والجلد، والرجم، والإعدام خارج نطاق القانون، والاضطهاد، والاعتداءات التي يرتكبها المسلمون في جميع أنحاء العالم متاحة للجميع. إن حظر عرض الرموز الدينية في المدارس الحكومية الفرنسية، والذي يُندد به باستمرار في الصحافة الدولية، أمرٌ لا يُفهم دون الأخذ في الاعتبار ازدياد ارتداء الرموز الإسلامية بعد أحداث 11 سبتمبر، فضلاً عن الضغط الذي مارسه المتشددون على أقرانهم المعتدلين أو غير المؤمنين. ثمة تناقضٌ صارخٌ في التباهي بشعارات عقيدةٍ تنشر الخراب أينما حلت. وكأن المرء يسير تحت راية جماعة كو كلوكس كلان، وهي جماعةٌ عنصريةٌ بيضاء، بينما يُفاجأ بنظرات الشك والريبة. حتى وإن كان كل فردٍ مسؤولاً عن أفعاله هو لا عن أفعال أفراد مجتمعه، فمن المنطقي أن نتوقع من مجتمعٍ لطخته شذوذه أن يُظهر على الأقل بعض الانزعاج الملموس. وهذا ينطبق أكثر على أولئك الذين يُقدّرون السمعة الجماعية، لدرجة أنهم يُمثلون نسبةً كبيرةً بين مرتكبي جرائم "الشرف". وبدلاً من كبح جماح هذا الحماس التبشيري، يبدو أن الآفات المرتبطة بالدين الإسلامي تُغذيه. كما أن رفض الإسلام

متجذر في وضع العالم الإسلامي، فإن انعدام الثقة بالمسلمين يتغذى على اللامبالاة التي يبدونها تجاه مساوئ ثقافتهم، وكأنهم استسلموا لها. أما فيما يخص الطوابير الخفية والانفصالات الثقافية، فبينما رحبت أوروبا بأعداد كبيرة من المسلمين، لم تخفِ الجماعات الأصولية رغبتها في منع اندماجهم. ولذا، تحث منظمة الإيسيسكو، التابعة لمنظمة التعاون الإسلامي، على "تحصين الأجيال الثانية والثالثة وحتى الرابعة من هذه المجتمعات، التي استقرت خارج العالم الإسلامي، ضد الذوبان الثقافي وفقدان هويتها الإسلامية". وقد رددت دول المنشأ نفس هذا الشعور، إذ كانت حريصة على تشكيل طابور خامس داخل المجتمعات الغربية لممارسة الضغط ومنع انتشار القيم السليمة في الجنوب العالمي: "أنصحكم، فيما يخص شعبي المغاربة، بعدم محاولة التحايل على قوانين الجنسية، لأنهم لن يكونوا فرنسيين بنسبة 100%. أؤكد لكم ذلك"، هكذا صرّح الملك الحسن الثاني ملك المغرب ساخرًا للصحفية آن سنكلير، بعد عامين من تصريحه بأن "الهجرة يجب ألا تُسهم في الاندماج". إن حقيقة حلّ قضية الحجاب

الشهيرة في كريل بتدخل ملك أجنبي نذرت بالمشاكل التي ستواجهها مجتمعاتنا. ويُقابل الضغط المُمارس على الشتات الإسلامي تشويه سمعة أولئك الأكثر اندماجًا في القيم الديمقراطية. إن اضطهاد الديكتاتورية الجزائرية المستمر للكاتبين كامل داود وبوعلام صنصال هو مثال واحد من بين أمثلة أخرى على مناورات هذه الأنظمة 89. ومع تزايد الهجمات على الغرب، والتلويح بتهديد الصراع "بين الصليب والهلال"، استمر الرئيس التركي أيضًا في دعوة الجاليات المقيمة في أوروبا إلى عدم الاندماج بينما يشجعهم على التصرف كأعداء في الداخل: "أفهم جيدًا أنكم ضد الاندماج".«لا يمكننا أن نتوقع منكم الاندماج. الاندماج جريمة ضد الإنسانية»، هكذا صرّح زعيم دولة تخلّصت من أقلياتها بهدف توحيد الأناضول، ولا تتوانى عن استغلال التركيبة السكانية التركية للابتزاز الانتخابي وتهديد الحكومات الأوروبية90 إن الشكوك الموجهة ضد الأقليات بشأن عدم الولاء تُعيد إلى الأذهان ذكريات أليمة في أوروبا. مع ذلك، سيكون من الإجرام تجاهل الجناة الذين يُعلنون جهارًا رغبتهم في استخدام المجتمعات المعارضة

لتدميرنا. هل قلتَ «اليمين المتطرف»؟ يكتب المؤرخ جون تولان، الذي لا يرى ضرورة للاستشهاد بأي دراسات لدعم ادعائه: "إذا كانت الهجرة إلى أوروبا تُشكّل مشكلة للقوميين اليمينيين المتطرفين والأصوليين المسلمين، فربما يعود ذلك إلى أنها تُؤتي ثمارها"91 هل يُمكن القول إن اندماج الأتراك ناجحٌ عندما تُصوّت الجاليات المُقيمة في أوروبا لصالح أردوغان الإسلامي أكثر من مواطنيهم الذين بقوا في تركيا؟92 في الانتخابات التركية الأخيرة، حصد الرجل الذي قضى أربعة أشهر في السجن في بلاده لتصريحه بأن "المآذن ستكون حرابنا، والقباب خوذاتنا، والمساجد ثكناتنا، والمؤمنون جنودنا" ما بين 67% و75% من الأصوات في الجولة الثانية في فرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا مُنافسًا مُنافسه الكمالي93 كيف يُمكن ألا يُنظر إلى هذا على أنه بادرة عدائية تجاه المجتمع المُضيف؟ في فرنسا، تحظى السلطة الفلسطينية وحماس - وهما فصيلان استبداديان - بصورة إيجابية لدى 59% و19% من المسلمين على التوالي، مقارنةً بـ 10% و3% من عامة السكان. ويعتبر ما يقرب من نصف المسلمين احتجاز الأطفال

في الأنفاق، والقتل المتعمد للمراهقين وتقطيع أوصالهم أثناء رقصهم في مهرجان، أعمال مقاومة ضد النشاط الاستيطاني الإسرائيلي، مقارنةً بـ 10% من عامة السكان. ويزداد الدعم للفصائل الإسلامية الاستبدادية والأعمال الوحشية مع ازدياد الممارسة الدينية94 ولا تُعتبر آراء المسلمين أكثر ليبرالية أو تقدمية في قضايا السياسة الداخلية. إذ يقول 63% من المسلمين في فرنسا إن المثلية الجنسية مرض أو انحراف، مقارنةً بـ 14% من الكاثوليك و10% من غير المؤمنين. ويُرجّح أن يقول المسلمون، بثلاثة أضعاف مقارنةً ببقية المجتمع، إن "العنف ضد المثليين مفهوم في بعض الأحيان". عند سؤال المسلمين الفرنسيين عما إذا كان ينبغي على المرأة طاعة زوجها، أجاب 56% منهم بالإيجاب، مقارنةً بـ 5% من بقية السكان. ويعتقد أكثر من نصف المسلمين الفرنسيين أن اليهود يتمتعون بنفوذ مفرط في الاقتصاد والسياسة والإعلام، مقارنةً بما بين ربع وخُمس السكان عمومًا. كما أن المسلمين أكثر عرضةً بثلاث مرات تقريبًا من بقية السكان للتعبير عن كراهية تجاه اليهود وتحميلهم مسؤولية الأزمات

الاقتصادية97 بعد قضية ميلا - الفتاة المراهقة التي أُخرجت من المدرسة ووُضعت تحت حماية الشرطة بسبب إهانات وُجهت إلى كائن غير مرئي - كشف استطلاع للرأي أن 34% فقط من المسلمين يؤيدون الحق في انتقاد أي معتقد ديني أو رمز أو عقيدة، حتى وإن كان ذلك بشكل مفرط، مقارنةً بـ 50% من السكان الفرنسيين98 بعد خمس سنوات من الهجوم على صحيفة شارلي إيبدو، أيّد ثلثا المسلمين الفرنسيين الدعوى القضائية المرفوعة ضد الصحيفة لنشرها رسومًا كاريكاتورية للنبي محمد، مقارنةً بخُمس السكان عمومًا. علاوة على ذلك، أفاد 18% من المسلمين بأنهم لا يدينون مرتكبي الهجمات، مقارنةً بـ 8% من بقية السكان. كما أفاد 40% منهم بأنهم يفضلون معتقداتهم الدينية على القيم الجمهورية، مقارنةً بـ 17% من بقية الشعب الفرنسي99 وعلى عكس بقية المجتمع، يعارض المسلمون بشدة الحياد الديني لموظفي الحكومة، وهم أكثر مقاومةً لمكافحة نفوذ الأصوليين في المجتمع. على الرغم من الانتهاكات التي تُحرض عليها في كل مكان، ترتفع نسبة المسلمين الذين يُعلنون

أنهم يعتبرون قوانين دينهم أهم من القانون العام إلى 57% بين الفئة العمرية 15-24 عامًا 100 ويعتبر 42% فقط من المسلمين أن احترام مبدأ العلمانية أمرٌ ضروري، حتى لو كان ذلك يُسيء إلى أولئك الذين لا يستطيعون التعبير عن معتقداتهم كما يشاؤون، مقارنةً بـ 85% من عامة السكان101 ولا يُعرب 16% من المسلمين عن إدانة كاملة لمرتكب جريمة اغتيال دومينيك برنارد في أكتوبر 2023، مقارنةً بـ 5% من عامة السكان. ترتفع هذه النسبة إلى 31% بين المسلمين المتعلمين 102 أما فيما يتعلق بالمعرفة، فإن المسلمين أكثر ميلاً من غيرهم إلى التشكيك في سلطة العلم: إذ يُفضّل 76% منهم الدين على العلم عندما يتعارضان حول خلق العالم، مقارنةً بـ 22% بين أتباع الديانات الأخرى و19% بين عامة الشعب الفرنسي103 هل يُفسّر استخفافهم النسبي بالمعرفة العلمانية جزئياً زيادة احتمالية فشلهم الدراسي؟104 في المملكة المتحدة، يُؤيّد ما يقرب من ثلث المسلمين عقوبة الإعدام للمرتدين105 وتعتقد أغلبية طفيفة من المسلمين أن المثلية الجنسية يجب أن تكون غير قانونية، مقارنةً بـ

5% من عامة السكان. المسلمون أكثر ترجيحًا بسبع مرات من غيرهم للقول بأن على النساء طاعة أزواجهن دائمًا106 بعد عام من الجدل الدائر حول الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية، اعتقد أكثر من ثلثي المسلمين البريطانيين أنه يجب محاكمة من نشروا تلك الرسوم ومن يسيئون للإسلام. يقول خُمس المسلمين البريطانيين إنهم يتعاطفون مع بن لادن. بعد مجزرة شارلي إيبدو، قال أكثر من ربع المسلمين البريطانيين إنهم يتعاطفون مع دوافع القتلة107 في بلجيكا، خلصت دراسة استقصائية واسعة النطاق لطلاب المدارس الثانوية في بروكسل إلى أن المسلمين أكثر ترجيحًا بثلاث مرات من غير المؤمنين لتبني معاداة السامية وكراهية المثليين والتحيز الجنسي108 في حين يربط البعض، ممن لا يتبنون آراءً متشددة، رفض الإسلام باليمين المتطرف، فإن المسلمين في الواقع هم الأكثر تقبلاً للقيم المنسوبة تقليديًا إلى هذا الموقف السياسي. بالمقارنة، يمكن الخلط بين الحركات القومية والشعبوية اليمينية الأوروبية ونوادي مؤيدي حركة 1968109 علاوة على ذلك، فإن أولئك الذين يربطون رفض الإسلام

بالفاشية يجهلون افتتان أدولف هتلر بدين محمد: "إننا نعاني من سوء الحظ لعدم امتلاكنا الدين الصحيح. [...] إن الدين الإسلامي [...] سيكون أكثر ملاءمة من هذه المسيحية، بتسامحها المتساهل"، هكذا صرّح لوزير دفاعه، ألبرت شبير110 دينٌ مُحرِّضٌ للجريمة بشكل خاص. وهكذا، يُشكِّل المسلمون أكثر الجماعات كراهيةً للأجانب، ومقاومةً للعلم، وحرية الضمير، والتعددية، والمساواة، وفصل الروحاني عن الدنيوي. إنهم أكثر كراهيةً للمثليين، وتحيزًا جنسيًا، ومعاداةً للسامية، وظلاميةً من المتوسط، ويتسامحون مع العنف بسهولة أكبر. كيف يُمكننا أن نستغرب من تمثيلهم المفرط في إحصاءات الجريمة؟ تتراوح تقديرات نسبة المسلمين الفرنسيين في السجون بين 20% و60%11 وفي ألمانيا، تبلغ نسبة المسلمين في السجون الألمانية حوالي 20%، وتتجاوز أحيانًا 50% في مراكز احتجاز الأحداث112 وشملت الجنسيات العشر الأكثر شيوعًا بين مرتكبي جرائم الاغتصاب والاعتداء الجنسي الأجانب في ألمانيا عام 2017 ثماني دول إسلامية113 وفي هولندا، بلغت نسبة المسلمين في السجون الهولندية

وجنوح الأحداث 20% و26% على التوالي عام 2008114 وفي أمستردام، أظهرت دراسة أجراها علماء اجتماع، استنادًا إلى بيانات الشرطة لعام 2007، أن 36% من المشتبه بهم الذين تم القبض عليهم بتهمة ارتكاب أعمال عنف ضد المثليين كانوا من أصل مهاجر مغربي115 وفي بلجيكا، قُدِّرت نسبة المسلمين في السجون عام 2015 بـ 35%. وشكّلت 7.6% من إجمالي السكان116 في سويسرا، أظهر التعداد الفيدرالي لعام 2000 أن المسلمين شكّلوا ما يقرب من ربع المسجونين في سويسرا، بينما يمثلون أقل من 5% من السكان117 في عام 2009، كشفت الشرطة النرويجية أن المهاجرين من أصول غير غربية مسؤولون عن "جميع حالات الاغتصاب المبلغ عنها" في أوسلو118 في حين وصف رئيس الجمهورية الفرنسية، في عمل جبان، تصاعد الأعمال المعادية للسامية بأنه غير مبرر، تجدر الإشارة إلى أن المسلمين ممثلون تمثيلاً زائداً بين مرتكبي العنف المعادي للسامية في جميع دول أوروبا الغربية119 من اغتيال إيلان حليمي إلى مقتل ميريل نول، بما في ذلك مذبحة أوزار هاتوراه، قُتل جميع اليهود

الفرنسيين الذين قُتلوا لكونهم يهودًا على يد مسلمين منذ بداية القرن الحادي والعشرين. القرن. أسطورة "العيش المشترك". يُضاف إلى هذه الحقائق غير المُرضية لأنصار الاندماج الناجح رفض المسلمين للزواج المختلط. حذّر فرناند بروديل قائلاً: "بدون زواج مختلط، لا اندماج". وكتب مسالي حاج عن الجزائر الفرنسية، حيث كانت المجتمعات تنظر إلى بعضها البعض بريبة: "لم يكن من الممكن رؤية أي امرأة فرنسية مع شاب عربي دون المخاطرة بالتعرض للمشاكل. كل شيء تقريبًا يخضع للحب. باستثناء الاستعمار". مع ذلك، تجنّب وصف المصير الذي ينتظر النساء الجزائريات في علاقات مع غير المسلمين120 والباقي معروف. اليوم، يُرجّح أن يرفض المسلمون في فرنسا فكرة الزواج من شخص من دين آخر ضعفَ احتمال رفضها لدى عموم السكان الفرنسيين121 حاول البعض المبالغة في عدد هذه الزيجات، مثل عالم الأنثروبولوجيا إيمانويل تود، الذي زعم عام 2009 أن "السكان من أصول مسلمة في فرنسا هم عمومًا الأكثر علمانية واندماجًا في أوروبا، بفضل ارتفاع معدل الزيجات المختلطة"122

فندت عالمة الديموغرافيا ميشيل تريبالات هذه الخرافات، التي ركزت على جوازات سفر الأفراد بدلًا من أصولهم123 من بين جميع الجماعات المهاجرة الموجودة في فرنسا، يُعدّ المسلمون من بين القلائل الذين ما زالوا يرفضون الزواج بعد جيلين، بينما يميل أحفاد المهاجرين الأوروبيين والأفارقة المسيحيين والهندو صينيين إلى الزواج من خارج ديانتهم. الأفراد الوحيدون من أصول مسلمة الذين يميلون إلى الزواج من خارج ديانتهم هم نتاج زواج مختلط وعلماني. تُعدّ هذه الفئة استثناءً 124 يُبيّن هذا أن الانقسامات ليست عرقية، ولا استعمارية، ولا جغرافية، بل ثقافية، وقبل كل شيء، دينية، حيث يرتبط الإسلام بكراهية الأجانب بشكل أكبر. في هولندا، بينما ترتبط أغلبية طفيفة من ذوي الأصول الكاريبية ونسبة كبيرة من ذوي الأصول السورينامية بعلاقات مع هولنديين أصليين، فإن أقل من 10% من ذوي الأصول التركية والمغربية في هذا الوضع 125 كما تُلاحظ هذه العقلية المنغلقة بين غالبية أحفاد المهاجرين المغاربة والأتراك في بلجيكا126 في المملكة المتحدة، بينما تزيد احتمالية زواج أحفاد المهاجرين الأوروبيين من

خارج مجموعتهم عشرة أضعاف مقارنةً بزواجهم من داخلها، فإن ذوي الأصول الباكستانية والبنغلاديشية -وهم مسلمون في الغالب- تزيد احتمالية زواجهم من داخل مجموعتهم 7.9 أضعاف مقارنةً بزواجهم من خارجها. أما الأفراد من أصول هندية وكاريبية، فيظلون يميلون إلى الزواج من داخل مجموعتهم في الغالب، ولكن بدرجة أقل. تزيد احتمالية زواجهم داخل مجموعتهم الأصلية بمقدار 1.5 و1.3 مرة على التوالي مقارنةً بالزواج من خارجها127 في الدنمارك، عام 2002، كانت 62.7% من الزيجات التي عقدها دنماركيون من أصول غير غربية مع شركاء مقيمين في الخارج128 يُلاحظ هذا الميل نحو الانغلاق في جميع المجتمعات الأوروبية، حيث "تقف أهم الحواجز بين الأغلبية السكانية والمجتمعات المسلمة"129 وكما يشير الفيلسوف آلان فينكيلكروت، فإن كثرة الدعوات إلى العيش المشترك "تعكس استياء مجتمع يرى اختفاء هذا الشيء"130 لذا، فإن الدول التي رحبت بأعداد كبيرة من المسلمين لا تتجه نحو التمازج الثقافي والتهجين الذي يُحتفى به غالبًا. بل تواجه بدلًا من ذلك انتشار

مجتمعات معادية، كما يتضح من مستويات العزل السكني التي تؤثر بشكل خاص على الأقليات الإسلامية. حثّ يوسف القرضاوي، المتشدد الديني، المسلمين على إنشاء أحياء معزولة خاصة بهم حتى لا يذوبوا في المجتمعات الليبرالية131 في معظم المدن الأوروبية، يُعدّ المسلمون من بين أكثر الفئات عزلة، بل وأحيانًا أكثر عزلة من الموظفين والعمال132 في هولندا، أظهر الجغرافي ساكو موسترد أن الأتراك والمغاربة يتركزون بكثافة أكبر في أحياء معينة من أمستردام وروتردام ولاهاي مقارنةً بالأشخاص من أصل سورينامي 133 في عام 2021، تحدّت امرأة منتقبة من ضواحي مونبلييه، في مقطع فيديو انتشر على نطاق واسع، رئيس الجمهورية بشأن نقص التنوع العرقي والثقافي في حيٍّ لم يعد اسم بيير موجودًا فيه134 وبصدقٍ مُلفت، أوضحت أنها سجّلت ابنتها في مدرسة كاثوليكية. بسبب التنافر المعرفي، لم يخطر ببال هذه المرأة حسنة النية، التي عرضت، بدافع التوافق، رموز دين ينشر الخراب أينما حلّ، أن أفضل طريقة لإنقاذ أطفالها من البيئة التي استنكرتها هي تجنب تكرارها. عالمٌ تائه. إن الهجرات التي

نشهدها اليوم لا تجعل مجتمعاتنا أكثر انفتاحًا. يعلق عالم السياسة الهولندي بول شيفر قائلًا: "إن الآراء التقليدية التي يحملها العديد من المهاجرين تُشكك فجأة في جميع الأفكار المتعلقة بمكانة المرأة، ويُعاد الطعن في حق الفرد في التعبير عن رأيه بحرية. فجأة، نجد أنفسنا نتحدث مجددًا عن التجديف وتحريم ترك الدين". حتى لو كانت هذه قناعات عرفناها في تاريخنا، فإن الاضطرار إلى إعادة التأكيد على التحرر الذي شهدناه قبل خمسين عامًا ليس تقدمًا بالتأكيد135 تتراجع جودة مؤسساتنا مع ازدياد عدد المسلمين وانخفاض نسبة غير المسلمين. إن حقيقة أن المجتمعات غير الإسلامية توفر للمسلمين ظروف معيشية أفضل من تلك التي يوفرها العالم الإسلامي، تشير إلى أن هذه العملية لا تصب في مصلحة أحد. وبينما نتجادل حول كيفية توصيف نظرية الاستبدال العظيم التي صاغها الكاتب رينو كامو، يعلن أعداء الغرب جهارًا رغبتهم في تدمير الأساس الأنثروبولوجي الذي أنجب أكثر الحضارات انفتاحًا والحداثة التي استفادوا منها هم أيضًا: "أناشد إخواني وأخواتي في أوروبا. لا تنجبوا ثلاثة أطفال، بل خمسة، لأنكم مستقبل

أوروبا!" هكذا صرّح الرئيس التركي لأنصاره.إن هذا الإعلان عن حرب ديموغرافية ليس حالة معزولة. فقد صرّح الداعية المصري القرضاوي قائلاً: "دخل الإسلام أوروبا مرتين، وخرج منها مرتين. ولعلّ الفتح القادم، بمشيئة الله، سيكون عن طريق الدعوة والفكر. فليس كل بلد يُفتح بالسيف بالضرورة". "لا نريد لفت الأنظار بالقول إننا نسلم الغرب، لأن ذلك لا يخدم مصالحنا"، هكذا صرّح شكيب بن مخلوف، الرئيس السابق لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا، في إحدى وسائل الإعلام السعودية عام 2011. وأضاف: "إذا رفعنا معدل المواليد، فسيمثل المسلمون 10% من سكان بريطانيا و20% من سكان فرنسا بحلول عام 2050، بغض النظر عن أي تغييرات في سياسة الهجرة. لسنا جماعة ضغط صهيونية". ويؤكد المؤثر محمد حجاب، الذي يتابعه أكثر من مليون شخص على مواقع التواصل الاجتماعي، والذي لا يزال وجوده في إنجلترا غير واضح، قائلاً: "قوتنا لا تكمن في قدرتنا على التأثير على السياسيين، بل في أعدادنا". بين عامي 1970 و2014، ارتفع عدد المساجد في فرنسا من 100 إلى 2300

مسجد. خارج الإمبراطوريات الاستعمارية، كانت نسبة المسلمين في دول أوروبا الغربية في نهاية الحرب العالمية الثانية أقل من 0.2%. وبحلول عام 2025، ستتجاوز هذه النسبة 5%، مع وجود تباينات كبيرة. بين الدول، تصل النسبة إلى 10% في فرنسا. ورغم أنها تبدو متواضعة، إلا أن هذه الأرقام تشير إلى أن الإسلام هو الدين السائد في عدد متزايد من الأحياء. فقد شهدت مقاطعة سين سان دوني، وهي المقاطعة ذات الكثافة السكانية المسلمة الأكبر في فرنسا، ارتفاعًا في عدد سكانها المسلمين من 0% إلى 40% أو 50% في أقل من قرن، لدرجة أن الصراعات قد نشأت حتى داخل جهاز الشرطة، حيث يتردد بعض الضباط في العمل مع النساء 140 ومن المصادفة أن هذه المنطقة لديها أعلى معدل دوران وظيفي في فرنسا الكبرى ضمن الخدمة المدنية، لدرجة أن الحكومة تقدم مكافآت استثنائية لتشجيع موظفيها على البقاء 141 هذه التحولات الديموغرافية تمنح الإسلام بالفعل ثقلًا سياسيًا كبيرًا، محليًا ووطنيًا، لدرجة أن العلوم السياسية تُعرّف صوت المسلمين بأنه "صوت حاسم"، قادر على التأثير في

الانتخابات142 "في عام 2012، فاز فرانسوا هولاند على نيكولا ساركوزي بثلاث نقاط [...] وحصل على 90% من أصوات المسلمين، لذلك يمكننا يقول الكاتب حكيم القروي، مبتسمًا، في حديثه مع باسكال بونيفاس: "إنّ القول بأنّ فرانسوا هولاند انتُخب من قِبل المسلمين"، على الرغم من توثيقه وجود شريحة كبيرة من المسلمين الذين تخلّوا عن القيم الجمهورية، وهو ما يُعدّ مثالًا صارخًا. يُفسّر هذا الضغط الانتخابي سبب تهميش مكافحة معاداة السامية، والدفاع عن العلمانية، وحرية التعبير، وحقوق المرأة، وحقوق الجماعات الأخرى المضطهدة من قِبل الإسلام - وعلى رأسها الأشخاص من أصول مسلمة الذين اندمجوا في الثقافة الغربية - بشكل متزايد من قِبل السلطات والأحزاب السياسية. فمن ميلا إلى رشدي، مرورًا بحرسي علي، واليهود الذين أُخرجوا من المدارس العامة، فضلًا عن احتجاز صحفيي شارلي إيبدو، فإنّ حقيقة أنّ الخوف وضرورة النفي يقعان باستمرار على ضحايا التعصب وليس على المتعصبين أنفسهم، تُشير بوضوح إلى المسار الكارثي الذي تسلكه حقوق الإنسان في أوروبا.

وعلى الصعيد الدولي، فإنّ استخدام قادتنا لوجود أعداد كبيرة من الجزائريين على الأراضي الفرنسية كذريعة لتجنّب المواجهة، يُعدّ أمرًا غير مقبول. إن وجود نظام ديكتاتوري يضطهد معارضيه في الخارج، ويسجن الكتاب والصحفيين الفرنسيين، ويرفض استعادة أخطر مواطنيه - في حين كانت مثل هذه الإساءات تستوجب في السابق ردود فعل قاسية - هو أحد مؤشرات تفكك المؤسسات الجمهورية وقدرتها على حماية المواطنين الشرفاء من المعتدين144 ووفقًا لتوقعات مركز بيو للأبحاث، قد تصل نسبة المسلمين في أوروبا إلى ما بين 7 و14% على مستوى القارة بحلول عام 2050، مع تباينات كبيرة: من 13 إلى 18% في فرنسا، ومن 9 إلى 20% في ألمانيا، ومن 10 إلى 17% في المملكة المتحدة، ومن 8 إلى 14% في إيطاليا، ومن 11 إلى 18% في بلجيكا، وقد تصل إلى ما بين 11 و30% في السويد145 إن حقيقة أن أقلية مسلمة صغيرة تمارس بالفعل نفوذًا على المؤسسات الديمقراطية لا تدع مجالًا للشك في الزوال الذي ينتظرها إذا لم تتخذ مجتمعاتنا إجراءات فعّالة. إحباط هذه التوقعات من خلال

الشروع الفوري في نزع الإسلام عنها بكل الوسائل المشروعة. فرق تسد، اتحد أو تهلك. يُقال إن أحد النبلاء البيزنطيين قد أعلن: "عمامة السلطان خير من التاج اللاتيني!" عندما كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية مهددة بالزوال على يد الأتراك. ورغم أن هذا الإعلان يُرجح أن يكون ملفقًا، إلا أنه يرمز إلى عجز أوروبا وبيزنطة عن التوحد ضد العثمانيين، ويعود ذلك تحديدًا إلى خلافاتهم اللاهوتية العقيمة. وكانت نتيجة هذه الخلافات الداخلية القضاء على الشرق اليوناني الروماني بعد قرون من التآكل التدريجي على يد الإسلام. ثمة جو بيزنطي في الطريقة التي تتشاجر بها مجتمعاتنا على قضايا تافهة، مما يسمح بموت الظروف التي تُمكّنها من إجراء نقاش سلمي. مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، نبذت الدول الأوروبية خلافاتها الداخلية لمواجهة العدو المشترك بجبهة موحدة. تخلى الكاثوليك والبروتستانت واليهود والاشتراكيون والتقليديون فجأة عن مظالمهم. اختفت سكاكين الكراهية، وكأنها بفعل السحر. وساد الصمتُ النزاعاتُ التي لا تُحصى تحت السماء الكئيبة. وأعلن الجميع: "لن أقف، ولو سرًا، في

طريق أي شيء يعمل من أجل إنقاذ الأمة".
دون تجميل اللحظة التي انتحرت فيها أوروبا باسم الأمة، تبقى الحقيقة أن النضال ضد أسلمتها يتطلب اتحادًا مقدسًا مماثلًا، إذ تتجاوز المخاطر الانقسامات الحزبية. فالمشاحنات التافهة بين اليمين واليسار حول قانون العمل، وإرث مايو 1968، والمساواة بين الجنسين في الشركات، وتماثيل القديس ميخائيل في الساحات العامة، أو حتى إعطاء الأولوية للطاقة النووية على طاقة الرياح والطاقة الشمسية، لا تُقارن بموجة ستجرف الجميع إن لم يتم إيقافها. وكما يُذكّرنا ريموند آرون: لكي نمنح كل فرد مجالًا خاصًا لاتخاذ القرارات والاختيار، لا يزال من الضروري أن يرغب الجميع، أو معظمهم، في العيش معًا وأن يعترفوا بنفس منظومة الأفكار كحقيقة، وبنفس صيغة الشرعية كصحيحة. قبل أن يكون المجتمع حرًا، يجب أن يكون 147. وبالتالي، فإن ما يُسمى مجازًا "الانفصالية الإسلامية"، ولكنه في الواقع ليس سوى النتيجة المنطقية لأسلمة المجتمع، هو التهديد الرئيسي للأمة، كما تُؤكد أجهزة الاستخبارات بلا هوادة. 148 بمعنى آخر، تستحق الأحزاب السياسية التي لا

تضع هذه القضية على رأس أولوياتها أن يعاقبها ناخبوها. أما أولئك الذين يعتقدون، في الواقع، أن مجتمعاتنا ستظل تتمتع برفاهية الجدال حول آليات تطبيق العلمانية، ومكافحة العنصرية، أو حتى سن التقاعد في بلد يواصل فيه الإسلام توسيع نفوذه، فهم مخطئون خطأً فادحاً. وهم ساذجون بنفس القدر أولئك الذين يضعون التهديدات الخارجية قبل هذه المخاطر الداخلية، كما لو أن أوروبا التي أضعفها الإسلام ستكون قادرة على الدفاع عن وحدتها وحلفائها ضد الغزاة الأجانب. فكما دمر الإسلام الشرق بانتصاره على حضاراته القديمة، فإن الطريقة التي تم بها القضاء على الحركات التقدمية في العالم الإسلامي، بعد أن تقربت أحياناً من المتعصبين، لا تدع مجالاً للشك فيما سيؤول إليه حال البرجوازية البوهيمية ومُثلها في أوروبا التي تشهد أسلمة. ويقع على عاتقهم وحدهم أن يدركوا، قبل فوات الأوان، أن الخطاب التقدمي الذي يستخدمه الأصوليون لإغوائهم، بينما يساوون بين خصومهم واليمين المتطرف، ليس إلا فخاً مصمماً للإيقاع بهم. وتقسيم مجتمعنا من أجل حكم أفضل149 ومع مرور الوقت، سيصبح من الصعب والمكلف بشكل

متزايد التحايل على نظام تقسيم المناطق المدرسية، واللجوء إلى أحياء متجانسة، في قلب فرساي أو غيرها، هربًا من العادات التي يتظاهر المرء بتقديرها150 وبطبيعة الحال، فإن النضال ضد أسلمة مجتمعاتنا مفتوح أيضًا أمام المسلمين الذين يعلنون دينهم من خلال التوافق الأسري - والذي لا يسع المرء إلا أن يأمل في أن ينفصلوا عنه يومًا ما - لكنهم يعلمون، في قرارة أنفسهم، أن حياتهم وحياة أحبائهم ستكون أقل متعة إذا اكتسب دينهم نفوذًا من خلال إزاحة المؤسسات التي يستفيدون منها: "المسلمون هم أول ضحايا الإسلام". "تحرير المسلم من دينه هو أفضل خدمة يمكن تقديمها له"، هذا ما أكده إرنست رينان بحق. لقد حان الوقت للتخلص من متلازمة ستوكهولم. فمن جوليان، كونت سبتة، الذي سهّل الفتح الإسلامي لإسبانيا، إلى رونالد ريغان، الذي سلّح الجهاديين الأفغان ضد السوفييت، مرورًا بفرانسيس الأول، الذي عقد تحالفًا مع الإمبراطورية العثمانية ضد آل هابسبورغ، ولا ننسى الفصائل المسيحية التي ساعدت الأتراك في فتح القسطنطينية، فإن تاريخ الغرب حافل بأتباع الإسلام السذج. لا

يخون المرء إلا من أقرب الناس إليه. لذا، لن يكون هناك نقص في أولئك الذين، مدفوعين بكراهية الذات أو سوء التقدير السياسي، سيرحبون بالتحولات المذكورة آنفًا. بالنسبة لأولئك الذين يعملون - بوعي أو بغير وعي - على إخضاع أنفسهم للإسلام، فإن جميع التغييرات متساوية، على أساس أن مجتمعاتنا لم تكن يومًا ثابتة: غزوات، ثورات، الطاعون العظيم، حروب أهلية وحروب عالمية، غزو ثم خسارة الإمبراطورية الاستعمارية، والهجرة الريفية، وحق المرأة في التصويت، وذروة المواليد، والتعليم الجماهيري، واختفاء العديد من المهن، وانهيار الممارسات الدينية والوظائف الدينية، وتراجع الزواج لصالح المعاشرة، وانتشار وسائل منع الحمل الحديثة، والطلاق بالتراضي، وإلغاء الخدمة العسكرية، وتزايد وصول المرأة إلى مناصب المسؤولية، وبناء أوروبا، وتقلص مساحة الأرض بفعل ثورة النقل، وحوسبة المجتمع، والتواصل عبر الشبكات الاجتماعية، والأوبئة، واضطراب المناخ [...]. قائمة التحولات التي هزت تاريخنا باستمرار طويلة152 هذا ما يجادل به عالم الاجتماع فرانسوا هيران بين محاضراته في

كوليج دو فرانس، متجاهلاً الخطر الذي تشكله الاضطرابات الحالية بإشارة من يده. يتطلب الأمر جرأة معينة للاحتفاء بالحضور المتزايد للأيديولوجيات والأفراد الأكثر مقاومة للحضارة الحديثة من غيرهم من خلال عقد مقارنة مع جائحة أهلكت نصف القارة. وفقًا للرجل الذي تلاعب بفكرة إعادة إحياء التجديف بعد قطع رأس صموئيل باتي، ينبغي على المسيحيين اللبنانيين، الذين تم تهميشهم في دولة كانت تُعرف بسويسرا الشرق، أن يضعوا محنهم في سياقها الصحيح: ألم تحل ثقافتهم محل التقاليد الوثنية قبل ألف وخمسمائة عام؟ إننا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سيدافع فيها فرانسوا هيران عن تدمير تماثيل بوذا في باميان أو إغراق جزر المالديف بالمياه المتصاعدة بحجة أنه لا ينبغي لأي شيء أن يعيق مسيرة التاريخ وأن المناخ لطالما تطور. هذه الكلمات على الأقل لها ميزة تأكيد ملاحظة تم حظرها بالأمس تحت طائلة الموت الاجتماعي: تشهد أوروبا اضطرابات أنثروبولوجية غير مسبوقة منذ سقوط روما، جارفة معها الانقسامات والصراعات والأخلاق والعادات والمناظر الطبيعية والأفكار والمؤسسات التي، بعد الكثير

من المآسي والتضحيات، صاغت في نهاية المطاف العبقرية الغربية التي تدين لها البشرية بالفضل. في ذلك الوقت، رسم الشاعر أوغست دي شاتيون، وهو يتجول في منتصف الصيف على جزيرة سان دوني، في أبيات شعرية رقيقة، "هؤلاء السيدات يتكئن على الصفصاف، يُظهرن أكتافهن الجميلة"، تفسح المجال لبيت آخر تُشير فيه المدينة المجاورة إلى توترات جديدة: ففي الحي الذي دُفن فيه ملوك فرنسا، تتعرض عالمات الآثار، اللواتي يرتدين قمصانًا بلا أكمام، للمضايقة من قِبل السكان الذين ينتقدون ملابسهن، التي يعتبرونها غير محتشمة، وجرأتهن في ممارسة مهنة يعتبرونها حكرًا على الرجال155 على بُعد خطوات قليلة من الكنيسة التي شُيّدت فوق قبر أول أسقف لباريس، تعرض واجهات المتاجر تماثيل لفتيات محجبات، بينما يعرض متجر كتب، مقابل أحد أقدم منازل المدينة، نصوصًا تُشيد بالأيديولوجية السعودية كتبها واعظ يُدافع عن العبودية. لم يعد حي لا شابيل الباريسي هو المكان الذي خلّده الكاتب ألبرت سيمونين، الذي يروي قصة طفولة متواضعة، حيث قامت النساء، في موجة من التحرر،

بتقصير تنانيرهن، وأرضعت الأمهات أطفالهن في الأماكن العامة بحرية طبيعية. والآن، يتم تداول عريضة. هناك للتنديد باختفاء النساء من الشوارع، ضحايا الإهانات التي قيلت "بكل لغة". مرسيليا، حيث روى بانيول نوبات غضب والده المعادية لرجال الدين التي ازدهرت خلال النزاعات العائلية، يقودها الآن مسؤول منتخب يدّعي أنه يشعر وكأنه في بيته في ظل الديكتاتورية الجزائرية، قبل أن يمتدح الطاغية الذي يرأسها157 أما مدينة فوكايا، التي كانت مسرحًا لقصة حب ماريوس وفاني، فتظهر، في رواية واقعية قاتمة، كجبهة في الحرب ضد الجهاد، بينما تجعل الجريمة المنظمة من هذه المدينة مختبرًا لدولة مخدرات158 بروكسل، التي كانت تُعجب في السابق بحياتها الليلية التي تُذكّر بباريس، وقاعدتها البلدية، وبرجها الشامخ الذي ترتفع بجانبه مجموعة من أبراج الأجراس والقباب والأسقف الحادة ذات الألوان الزاهية، تُحيط بها الآن مناطق يسودها جو كئيب. لقد حلّت الأزياء السعودية محلّ السيدات اللواتي كنّ يرتدين قبعاتهنّ المزينة بشرائط زرقاء لحضور قداس الأحد، كما رسمها الكاتب كاميل ليمونييه، وهو أمر يلفت

انتباه المسافرين المغادرين من محطة هذه المدينة، حيث تُقام دورات تدريبية. مراكز تدعو إلى قتل المثليين 159. شارع دي كاتر فان في مولينبيك، الذي سُمي تكريمًا لملهى ليلي يحمل الاسم نفسه، أصبح ملجأً للمتعصبين الذين سفكوا الدماء في حفل موسيقي. برمنغهام، التي كانت تُحتفى بها من قبل المسافرين كبلدية رائعة حيث الطبقة العاملة مدفوعة بالإيمان بالعلم والتقدم، تُحوّل مكتباتها القوطية الجديدة إلى مساجد يشرح فيها رجال ملتحون كيفية رجم النساء بشكل صحيح، دون أن تُزعجهم السلطات، بينما تحظر المدارس هناك الموسيقى، لكنها تُنظم رحلات إلى المملكة العربية السعودية 160. مهد البرلمانية، قصر وستمنستر، يفقد عضوًا في البرلمان بعد تلقيه تهديدات بالقتل بسبب معارضته لحماس، لكنه يكسب متعصبين يطالبون بسن قانون التجديف 161.في هذا البلد حيث يكفي مجرد استخدام المعلم لرسوم كاريكاتورية للنبي محمد في الفصل لإجباره على الاختباء، تُشدد وكالة الصحة الوطنية على الفوائد الاقتصادية لزواج الأقارب وتحث على عدم وصم هذا التقليد قبل أن تتراجع أمام الاحتجاجات اللاحقة162 حتى

دور السينما تستسلم لضغوط المتعصبين، فتلغي عروض الأفلام التي تمجد ابنة نبيهم المزعوم163 في عام 2010، أثار السياسي الليبرالي الهولندي فريتس بولكستين فضيحة بنصحه اليهود بالفرار من موطن سبينوزا164 بعد خمسة عشر عامًا، نُفذت عملية مطاردة مُخطط لها مسبقًا لليهود في قلب أمستردام، مما أجبر السلطات الإسرائيلية على تنفيذ إجلاء طارئ لمواطنيها165 في ألمانيا، مدينة هامبورغ، مسقط رأس برامز وفاني وفيليكس مندلسون، مسرحٌ لاحتجاجات تلاميذ المدارس الذين يقاطعون دروس الموسيقى التي يعتبرونها غير أخلاقية. ١٦٦. في الوقت نفسه، يشكو أستاذٌ من برلين من سلبية رؤسائه في مواجهة وابل الإهانات المثلية التي يتعرض لها من طلابه. ١٦٧. من خلال السذاجة والجبن والجهل، وباسم مفهومٍ خاطئٍ للتسامح، دمرت أوروبا في غضون عقودٍ قليلة نسيجًا اجتماعيًا استغرق بناؤه قرونًا. "أفقنا ليس الاستبدال العظيم بل التجديد العظيم"، هكذا صرخ فرانسوا هيران في نوبة حماسٍ مرعبةٍ بقدر ما هي شمولية. من هناك إلى الاعتقاد بأن هذا "التجديد العظيم" سيؤدي إلى ولادة أفضل

العوالم الممكنة، لا توجد سوى خطوة واحدة، خطوة لا يُقدم عليها إلا المجانين.

خاتمة: ترك الإسلام.

نحن الحضارات نعلم الآن أننا فانون.

بول فاليري، من أجل جمهورية راديكالية.

في كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، كتب توكفيل: "أنزل محمد من السماء، ووضع في القرآن، ليس فقط العقائد الدينية، بل أيضًا المبادئ السياسية، والقوانين المدنية والجنائية، والنظريات العلمية. أما الإنجيل، على النقيض، فلا يتحدث إلا عن العلاقات العامة للبشرية مع الله ومع بعضهم البعض. ولا يُعلّم شيئًا آخر، ولا يُلزم بالإيمان بشيء. وهذا وحده، من بين ألف سبب آخر، يكفي لإثبات أن الدين الأول من هذين الدينين لم يستطع أن يهيمن طويلًا في عصر التنوير والديمقراطية، بينما يُقدّر للثاني أن يسود في هذه القرون كما في غيرها".
تنبأت هذه النبوءة المتفائلة بالانحدار الحتمي لأكثر المعتقدات استبدادًا، وانتصار أسمى العادات. في ذلك الوقت، لم يكن الإسلام يُمثّل سوى عُشر البشرية تقريبًا؛ أما اليوم، فيُمثّل ربعها. ويُشكّل الضغط الذي تُمارسه الخرافات الإسلامية على المجتمعات الغربية خطرًا غير مسبوق: ألا وهو مُشاهدة زوال مبادئها دون أن يكون لها حولها أي حيلة. لنواجه الحقائق: "لا يوجد دليل على أن الثقافات المفيدة للبشرية ستنجح وتنتشر حتمًا، بينما تختفي الثقافات الأقل فائدة"، كما يشير المؤرخ يوفال نوح

هراري. إن الإيمان بحتمية التقدم ليس إلا وهمًا آخر يجب تبديده بلا هوادة. رأى عالم الاجتماع الإيطالي فيلفريدو باريتو التاريخ مقبرةً للأرستقراطيات؛ وهو أيضًا ضريح الحضارات المتفوقة التي جرفتها ثقافات أقل رقيًا. أين كانت ستكون أفغانستان والعراق وسوريا ومصر والمغرب العربي بأكمله لو لم يُطيح الإسلام بالحضارات الأصلية التي سبقت عبادة القرآن؟ ينتصر الظلام بسهولة أكبر عندما تتخلى الأمم المتحضرة عن الدفاع عن التنوير الذي جعلها عظيمة ونقله، تاركةً الساحة لأكثر التقاليد ظلمةً. "أليس من المخجل أن يكون للمتعصبين حماسة ولا يكون للحكماء؟" تساءل فولتير بغضب. لقد حان الوقت لوضع حد لهذه الإهانة. أسطورة الإصلاح أم وهم الإسلام الليبرالي الخطير: مجتمعاتنا، التي تدّعي وضع العقل فوق كل اعتبار، تخدع نفسها. إنها تختلق عصرًا ذهبيًا إسلاميًا يُدنس الثقافات التي دمرها المسلمون، ثقافات كان من الممكن أن تُقدم بلا شك إسهاماتٍ أغنى بكثير للبشرية. إذ تُطاردها ذكريات ماضيها الاستعماري، وتُخاطر بنسيان تاريخ الإمبراطورية وتجارة الرقيق في العوالم غير الغربية، فتُقنع نفسها بأن الإسلام لا

علاقة له بالجرائم التي ارتُكبت باسمه. تبحث عن الكراهية في كل ثنايا تاريخها، لكنها ترفض إدانتها حيثما تظهر جهارًا. ولطمأنة نفسها، ولإضعاف صورة المسلمين، تختلق تمييزًا بين الإسلام والإسلاموية، في حين أن هذا المفهوم الغربي المُستحدث لا يلقى صدىً يُذكر في العالم الإسلامي، لدرجة أن فكرة "محاربة الإسلاموية" تُثير إشكاليات في فهمها هناك. إنّ أكثر المقترحات جرأةً المطروحة اليوم لتهدئة المسلمين، وعلاقاتهم مع جيرانهم، والمجتمعات المضيفة لهم، تتلخص في صياغة "إسلام ليبرالي": دعوة المؤمنين أو إجبارهم على تجريد دينهم من أبعاده القانونية والسياسية، وهو ما يُعدّ بمثابة اعترافٍ بعدم توافقه مع الحضارة الحديثة. هذا الوهم موضوعٌ متكررٌ منذ زمن المواجهة بين الإسلام والعالم المعاصر. ففي وقتٍ مبكرٍ من القرن التاسع عشر، كتب إسماعيل أوربان، أحد أتباع سان سيمون، والذي كان مصدر إلهامٍ لسياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر: "طالما لم يُحقق السكان الأصليون فصلاً جذرياً بين الروحي والدنيوي، وطالما تتعارض عبادتهم وعقائدهم الدينية مع قوانيننا، فلا يمكن منحهم لقب

مواطنين فرنسيين. يجب أن يصبح القرآن بالنسبة لهم كتاباً دينياً بحتاً، دون أي تأثيرٍ على التشريعات المدنية. هذا التقدم ليس مستحيلاً. فقد خرجت شعوبٌ أخرى من أنظمةٍ ثيوقراطيةٍ وخضعت لحكمٍ علمانيٍ دون التخلي عن معتقداتها. لقد فشل المستعمر." واجه الإصلاحيون الذين حاولوا ذلك مصائر أكثر مأساوية: نبذ المصري علي عبد الرزاق، الذي تحدى البعد السياسي لدينه، وإعدام السوداني محمود محمد طه شنقًا عام 1985، الذي ناضل ضد الشريعة الإسلامية في بلاده. وتلخص جاكلين شابي الأمر قائلة: "في العالم الإسلامي، لا يوجد مؤرخون نقديون، لأنهم يخاطرون بحياتهم". إن الادعاء بأن أي دين سيستوعب في نهاية المطاف الحريات الحديثة لمجرد أن المسيحية فعلت ذلك هو سذاجة خطيرة. فكل دين يولد في سياق أنثروبولوجي فريد. وكما لا يمكن وضع الجاينية على نفس مستوى ديانات ما قبل كولومبوس، لا يمكن الخلط بين المسيحية - التي هي في جوهرها يهودية متأثرة بالثقافة اليونانية - وبين دين يضم، بالإضافة إلى جذوره اليهودية المسيحية، تأثيرات زرادشتية ومانوية وبدوية. فمثل هذه

الخلطات المتنوعة لا يكون لها نفس التأثير على صحة المجتمعات التي تستوعبها. قال ألبير كامو: "لطالما كانت رفاهية الشعب، على وجه الخصوص، ذريعةً للطغاة". أي عقيدة، دينية كانت أم علمانية، حتى أكثرها ظاهريًا إنسانية، قد تُحرض على ارتكاب المعاصي. لقد ارتُكبت جرائم كثيرة باسم الحرية والمساواة والإخاء، دون أن يفكر أحد في استغلال هذه المآسي كذريعة لتشويه سمعة هذه القيم النبيلة. فبينما تُخون بعض الجرائم المُثل العليا التي تدّعي التمسك بها، تُطبقها جرائم أخرى تطبيقًا صارمًا. على عكس جماعة كو كلوكس كلان، التي تتجاهل إلى حد كبير موعظة الجبل، يُطبق أعضاء داعش النصوص الإسلامية تطبيقًا دقيقًا. بحسب الباحثة الإسلامية آن ماري ديلكامبر: "مع احتمال الإساءة، يجب أن نتحلى بالشجاعة لنقول إن الأصولية ليست داءً في الإسلام، بل هي جوهر الإسلام. إنها التفسير الحرفي والشامل والكامل لنصوصه التأسيسية. إن إسلام الأصوليين والإسلاميين ليس إلا إسلامًا قانونيًا يلتزم بالمعايير السائدة. وهكذا، فإن أكثر المسلمين انفتاحًا وحداثةً، وأكثرهم حرصًا على تطور الإسلام، يصطدم

حتمًا بالقرآن. ورغم وجود مسلمين محترمين، فإن تحضرهم لا يرتبط بالضرورة بالدين الذي يعتنقونه. فالناس لا يعيشون دائمًا وفقًا للقيم التي يدّعونها." كغيرها من الثقافات، شهدت المجتمعات الإسلامية فترات من تراجع قيمها، لا سيما منذ احتكاكها بأوروبا الحديثة: "سيصبح الشرق قريباً مجرد شمس. في القسطنطينية، يرتدي معظم الرجال أزياءً أوروبية؛ تُقام فيها عروض الأوبرا؛ وتوجد قاعات قراءة، ومتاجر قبعات، وما إلى ذلك. في غضون مئة عام، سينهار الحريم تدريجياً، تحت وطأة الروايات المسلسلة وعروض الفودفيل"، هكذا كان فلوبير قلقاً، خشية ألا يتمكن من إشباع شغفه بالغرابة بسبب زوال الشرق القديم9 لكن الكاتب يستطيع أن يطمئن: فبعد قرنين من الزمان، لا تزال المرأة المسلمة خاضعة، والأقليات مضطهدة، والنزعة إلى الغرابة باقية. حتى مع مرونة الشريعة الإسلامية، فإن رفض نبذ الخرافات الإسلامية وإصرار مجتمعاتنا على منحها الشرعية يُدين هذه التجارب الليبرالية بالبقاء هشة وسطحية، ويُوقع المشاركين فيها في تناقض معرفي لا يُمكن حله. عندما فتحت تركيا نفسها بحذر للتأثيرات الغربية في القرن

التاسع عشر، عبّر مسؤول عثماني عن استيائه قائلاً: "ماذا أفعل؟ أنا أدير ولاية، ويرسل إليّ الصدر الأعظم أمرًا يتماشى مع الأفكار الجديدة التي نعتنقها. يشتكي شيخ الإسلام مني لأني لا ألتزم بالقوانين القديمة التي لا تزال مقدسة لديه. أقول إن الأمرين لا يجتمعان، فيُقال لي إن عليّ اتباع عاداتنا، ولكن عليّ أن أُلبسها ثيابًا جديدة. لا أدري ماذا أفعل." تُجسّد هذه الحادثة التوترات التي تُؤثر على المسلمين بدرجات متفاوتة. فبين أوليمب دي غوج ومحمد، وبين إعلان حقوق الإنسان والقرآن، وبين توكفيل والله، لا بد من حرب أبدية - تُعلن أحيانًا، وتُخفي أحيانًا أخرى - إلى أن يستسلم أحد الطرفين. وبينما لا يخلو أي مجتمع من التناقضات، إلا أن بعضها أقل احتمالًا من غيرها. حتى أكثر الحجج تأييدًا للدين الإسلامي، والتي تتجاهل زيفه، وتغض الطرف عن جوانبه الشمولية، وتزعم أنه "يزخر بتصريحات تبدو متناقضة" تسمح بتفسيرات متباينة، تغفل حقيقة أن هذه الصفات المزعومة ليست صفات فلسفة ونظام قانوني جديرين بهذا الاسم، لا سيما عندما يدّعيان أصلًا إلهيًا. لا يمكن بناء مجتمع سليم ومستدام على مثل

هذه الأرضية غير المستقرة والفاسدة، التي تُخرّج عددًا كبيرًا من المتعصبين القادرين على ادعاء أنهم الأكثر التزامًا بالتقاليد الإسلامية. هذه البيئة الخصبة تُدين مجتمعاتنا بتوترات أبدية لا تُطاق، توترات كان من الممكن تجنبها باستخدام سلاح الحق. لم يُسفر وهم الإسلام الليبرالي إلا عن إثارة حفيف الصحف وهواء استوديوهات التلفزيون عبثًا، مُغذيًا جدالات لاهوتية تقترب من السخافة، ومُحوّلًا مجتمعاتنا إلى ملاجئ مفتوحة. سيجادل أحد علماء الدين بأن القرآن "غير مخلوق"، ما يُجيز انتقاء ما يشاء من أوامر إله يُحرّم لحم الخنزير ويُجيز في الوقت نفسه الاستعباد الجنسي والعنف المنزلي، وليس العكس. وسيختار كاتب آخر آيتين أو ثلاثًا تحثّ المسلمين بشكلٍ مبهم على التدبّر، ليُقنع نفسه بأنّ نثر القرآن قادر على إلهام أمثال ماري كوري ومارتن لوثر كينغ في المستقبل. مع كامل الاحترام لهؤلاء المُصلحين، الذين يُخاطر بعضهم مخاطر حقيقية، فإنّ هذه التبريرات المُلتوية لا تُقنع أكثر من اقتباس مقولة لماو تسي تونغ خارج سياقها لتصويره كمدافع عن الرأسمالية البرجوازية. إنّ من يُؤمن بأنّ الأرض مُسطّحة

ويلجأ إلى مثل هذه الحجج الواهية ليرفض التخلي عن معتقداته لصالح عقائد أكثر عدلًا، سيُعرّض نفسه للسخرية. لأسبابٍ غامضة، لا يحق إلا للأديان أن تُغلّف أيّ تكهناتٍ باطنية بقشرةٍ من الاحترام، بينما يسخر الناس المحترمون من الخلافات اللاهوتية كما لو كانت مهزلةً إيطالية. ونظرًا لمضمون النصوص الإسلامية والمكانة التي تدّعيها، فإنّ الرغبة في تهذيب الإسلام من الداخل، بالاستناد إلى المصادر الإسلامية، تتطلّب جهودًا تُضاهي جهود الخيميائيين الذين سعوا إلى تحويل الرصاص إلى ذهب. إنّ وهم الإصلاح - الذي روّج له الأصوليون أنفسهم أحيانًا لتنويمنا - لم يؤدِّ إلا إلى تأخير العلاج الفعّال الوحيد: وهو خطابٌ علميٌّ دؤوبٌ وحاسمٌ حول الدين الإسلامي، وبشكلٍ أوسع، حول الدين نفسه. وقد سمح هذا التقاعس للخرافات المحيطة بمحمد بالانتشار، وتزايد أعداد المتعصبين، وتقريب مجتمعاتنا بشكلٍ خطيرٍ من نقطة اللاعودة.
"اعترف بأنّ الشجرة التي لطالما حملت السمّ يجب قطعها من جذورها." فولتير، مرارًا وتكرارًا. دعوةٌ إلى ردّةٍ جماعية. في الثاني عشر من أغسطس/آب عام ٢٠٢٢، في قلب

مركز ثقافي في شمال ولاية نيويورك، طُعن سلمان رشدي بوحشية على يد مسلم شيعي، من أشد المعجبين بآية الله الخميني، الرجل الذي أصدر، قبل أكثر من ثلاثين عامًا، حكمًا بالإعدام على الكاتب. ما ذنب رشدي؟ جرأته على نشر كتاب يُعتبر تجديفًا. بالنسبة للمتعصبين للنبي محمد، فإن كون الكاتب من خلفية مسلمة يُضاعف من فظاعة جريمته. وقد ابتهجت شبكة من وسائل الإعلام الموالية لإيران بهذا الهجوم على رشدي "المرتد"، الذي يُدينه القانون الإسلامي بالإعدام. "من بدّل دينه فاقتلوه"، وهو قول يُنسب إلى النبي محمد، الذي لم يتردد، وفقًا للتقاليد الإسلامية، في إصدار أوامر باغتيال الساخرين الذين سخروا منه. بالنسبة للقرضاوي المتشدد، يُعدّ إعدام المرتدين ضرورة سياسية: فبدونه، "ما كان للإسلام أن يوجد أبدًا؛ لكان قد انقرض بموت النبي". هذا اعترافٌ صارخٌ بالطبيعة البغيضة لدينٍ لا بدّ له من القضاء على منشقّيه للبقاء: هذا هو تعريف الطائفة. مع ذلك، يُصيب القرضاوي في نقطةٍ واحدة: المرتد يُخالف الإسلام في جوهره. فبتخليه عن الخرافات الإسلامية، يُبرهن على أنها ليست عقيدةً لا

تُقاوم. وجوده بحدّ ذاته يُزعزع اليقينيات، ويفتح آفاقًا يسعى المتعصبون جاهدين لسدّها. الحرية مُعدية. لهذا السبب، تستحق شخصية المرتد الاحتفاء بها ودعمها، لكي تُلهِم أكبر عددٍ ممكن من الناس.ستكون مسارات الارتداد كثيرة: فمنهم من سينجذب إلى سحر المجتمعات غير الإسلامية وإنجازاتها، ومنهم من سينفر من اختلالات العالم الإسلامي، ومنهم من سيقتنع بأفكار المسلمين السابقين الذين يحللون تناقضات معتقداتهم السابقة لتحرير أقرانهم، وأخيرًا، قد يعتنق البعض دينًا آخر. على أي حال، لا بد لهذه الحركة، التي لا تزال متفرقة وغير محددة المعالم، أن تنظم نفسها. ويقع على عاتق جميع المؤسسات - العامة والخاصة، الدينية والعلمانية - واجب المساهمة في زيادة أعدادها. هل هذا سيناريو بعيد المنال؟ مع ذلك، تُظهر بعض الدول الإسلامية مؤشرات مشجعة. ففي يوليو/تموز 2025، نشرت مؤسسة فوندابول دراسة أجراها أكاديميان من أصل إيراني يقيمان في هولندا، تقيس مدى العلمنة في إيران. بعد ترجيح عينة تمثيلية من السكان البالغين المتعلمين (88% من إجمالي السكان) وتكوينها، وجدنا أن 32%

منهم يُعرّفون أنفسهم كمسلمين شيعة، و22% كغير منتمين لأي دين، و9% كملحدين، و7% كروحانيين، و6% كلاأدريين، إلى جانب مجموعات أصغر، كما ذكر الباحثون16 في مجتمع ديني تنتشر فيه الدعاية الدينية في كل جوانب الحياة اليومية، وحيث يُواجه المتشككون خطر الموت في أي لحظة، تُعدّ هذه المستويات من عدم الانتماء الديني مُذهلة. بل إنّ مساحات الحرية التي لا تزال المجتمعات الغربية تحتفظ بها - شريطة استغلالها - تُتيح لنا الأمل في المزيد. لا عذر لنا. هل نحن بصدد إحياء يهودي-مسيحي؟ لطالما ارتبطت أوروبا بالمسيحية. سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ، فقد شكّلت المسيحية علاقة الأوروبيين بالزمان والمكان والجسد والقانون والسياسة والعمارة والأدب والموسيقى، والعديد من أبعاد الوجود الأخرى. إنّ ذكر هذا لا يُعدّ بمثابة إصدار حكم قيمي. كان الثوار الفرنسيون، الذين حظروا المواكب في حماستهم بل وألغوا التقويم الغريغوري مؤقتًا، من أوائل من أدركوا تأثير المسيحية على العادات، ولو من باب مكافحتها. وبعد قرنين من الزمان، لا أحد ينكر نجاح مسعاهم.

فقد انخفضت أعداد الكهنة، وتراجعت المعموديات، وأُخليت الكنائس. ومما لا شك فيه أن تراجع المسيحية في فرنسا، ومعه في القارة العجوز، يُعدّ من أبرز ظواهر عصرنا17 ومن هنا، بات من السهل إلقاء اللوم عليها في معظم مشاكل عصرنا، وهي خطوة يبادر إليها البعض. "اطردوا المسيحية، وستحلّ محلها الإسلام"، هكذا تقول مقولة تُنسب إلى شاتوبريان، وتنتشر في الأوساط المحافظة. ورغم أنها غير موثقة، إلا أن هذه المقولة تُرسّخ فكرة بسيطة: أن تراجع المسيحية في أوروبا مهّد الطريق لأسلمتها. يقول الكاتب إريك زمور: "إنّ نزع الطابع المسيحي عن فرنسا حركةٌ جوهريةٌ مستمرةٌ منذ القرن الثامن عشر. فعلى مدى قرنٍ من الزمان، خاضت الجمهورية معركتها ضد المسيحية. والنتيجة غير المتوقعة اليوم هي أسلمة فرنسا". وانطلاقًا من هذا المبدأ، يتهم الرجل الذي ساهم في وضع القضية الإسلامية في صدارة اهتمامات وسائل الإعلام، عصر التنوير والمشروع الجمهوري بالسماح للذئب بالدخول إلى حظيرة الأغنام، وذلك باستئصال المناعة القادرة على صدّ أسلمة القارة18 ومن المفارقات، أن أحد

أبرز أعراض نزع الطابع المسيحي يكمن تحديدًا في الطريقة التي تُدافع بها المسيحية اليوم. فبالنسبة لزمور وكثيرين غيره، لم يعد يُدافع عن المسيحية استنادًا إلى الحقائق المُوحى بها. لقد ولّى زمنُ إدانة اللاهوتيين المسيحيين للمسلمين باعتبارهم أتباعًا للمسيح الدجال، وبذلهم جهودًا جبارةً لإثبات صحة عقيدة التثليث. ولا يحثّ زمور الفرنسيين على "إعادة تنصير" أنفسهم بالاستعانة بقيامة المسيح. يكاد لا يؤمن بها، وإلا لكان قد تعمّد. لا يسع المرء إلا أن يلمح نوعًا من التعالي في التبشير، للآخرين، بأيديولوجية يعلم المرء زيفها. وكأن المسيحية ملائمة للبشرية الهشة التي تشكل عامة الناس، بينما يستطيع أتباعها الأكثر حماسة، ممن يتمتعون ببصيرة كافية للاستغناء عنها، تقدير فضائلها السياسية دون الإيمان بهذه الخرافات التي لا يمكن التحقق منها. هذه هي مفارقة الدعوات إلى إعادة التنصير: فعجزهم عن إثبات صحة الدين المسيحي يدفعهم إلى اللجوء إلى حجج نفعية لا تروي ظمأ النفس المتعطشة للحقيقة. لذا، فلننظر في العواقب، فهذا هو موضع النقاش. هل المسيحية هي أقوى حصن - أو حتى

الحصن الوحيد - الذي تستطيع أوروبا أن تتصدى له في وجه أسلمتها؟ دعونا نعترف بهذا: بعد دراسة جميع الجوانب، مجتمع ذو ثقافة مسيحية أفضل من دولة أسلمت. يقول عالم الأحياء البريطاني والناشط الملحد ريتشارد دوكينز: "لو خُيّرت بين المسيحية والإسلام، لاخترت المسيحية بلا تردد"، وهو ما دفعه صدقه إلى رفض الموقف العلماني الزائف الذي يُساوي بين جميع الأديان19 ويُخشى أن تكون هذه المقارنات الزائفة قد ساهمت في التقليل من شأن أخطر التهديدات. فالشخص الذي يستشير برجه أو يحضر القداس، وإن كان يثير شكوك المفكر الحر، لا يُثير القضايا السياسية نفسها التي يُثيرها المصلي في المسجد. وكما أن الليبرالي لا يحتاج إلى تبجيل الديمقراطية الاجتماعية ليُقيّمها بأنها أقل خطورة من الشيوعية، فإن الملحد الذي يرفض تصديق الأناجيل يُدرك أن هذه الخرافات أثبتت تاريخيًا أنها أكثر عرضة للتحدي من أكاذيب القرآن: "لم تكن اللاهوت الغربي أقل اضطهادًا من اللاهوت الإسلامي". «مع ذلك، لم تنجح، ولم تسحق الروح الحديثة»، هكذا خلص رينان، مؤكدًا أن

المسيحية، التي لا تُعدّ في نظره أكثر استنارة من الإسلام، أثبتت أنها أقل قدرة من المسلمين على خنق العلم والفلسفة20 إلا أن الفكرة الشائعة عن المسيحية باعتبارها الحصن المنيع ضد أسلمة العالم المسيحي تتعارض مع أربعة عشر قرنًا من التاريخ، شهدت تراجعًا مستمرًا للمسيحية، باستثناءات نادرة، أمام انتشار الإسلام. فقد كانت المغرب العربي والمشرق وفلسطين وسوريا والأردن والعراق والأناضول والسودان، وحتى الجزيرة العربية، مراكز مسيحية رئيسية. وباستثناء بعض الأقليات المهددة بالانقراض، فقد تلاشى كل ذلك إلى حدٍّ جعل السكان المسلمين في هذه المناطق، دون مبرر يُذكر، يتجاهلون ماضيهم قبل الإسلام. نعلم أن المسلمين اعتنقوا المسيحية، طوعًا أو قسرًا، فأسلم ملايين عديدة؛ "لكن لا إغواء ولا تهديد استطاعا انتزاع نفس من دين محمد"، كما نقرأ في كتابات إدموند أبوت21 وخلافًا لاتهامات المعسكر المحافظ، فإن اللحظة الوحيدة التي اهتزت فيها أسس الحضارة الإسلامية حقًا تزامنت مع انتشار الأفكار العلمانية في العالم العربي الإسلامي. وكما يشير برنارد لويس: "كانت

الثورة الفرنسية أول حركة فكرية عظيمة عبرت الحاجز الفاصل بين بيت الحرب وبيت الإسلام، ولاقت استحسانًا لدى القادة والمفكرين المسلمين، وأثرت، بدرجات متفاوتة، في جميع شرائح المجتمع الإسلامي". 22 لم يكن باسم الأناجيل، بل باسم التقدم، أن قام بورقيبة التونسي بتحديث وضع المرأة؛ وأن طمح ملك أفغانستان أمان الله خان إلى كشف أجساد نساء بلاده؛ وأن حاولت بلاد فارس أول ثورة دستورية لها في بداية القرن العشرين؛ وتركيا، بعد تبنيها قانونًا مدنيًا مستوحى من النموذج السويسري (المستمد بدوره من النموذج الألماني). قام أتاتورك، الذي استند بدوره إلى النموذج الفرنسي، بتنفيذ أحد أوسع مشاريع الهندسة الاجتماعية في التاريخ الحديث، وذلك باستبدال الأبجدية العربية بالأحرف اللاتينية. ودعا أتاتورك شعبه إلى التحرر من هذه الرموز المبهمة التي سيطرت على عقولنا لقرون. ستحتاجون إلى تعلم الأبجدية التركية الجديدة بسرعة. [...] ستُظهر أمتنا، من خلال كتابتها وذكائها، مكانتها في العالم المتحضر. 23. إذا لم ينتصر عصر التنوير بعد على الخرافات الإسلامية - بسبب

مقاومة المتدينين وجبن التيار التقدمي وتردده في استخدام جميع الوسائل المتاحة - فإن قرنين من التحديث تحت راية التقدم قد هزّا عقليات ومؤسسات المجتمعات الإسلامية أكثر من ألف عام من المواجهة مع المسيحية وجيوشها وأدبها الدفاعي. وكما يؤكد رينان أيضًا: إذا كانت الأديان تُفرّق بين الناس، فإن العقل يجمعهم [...]. إن وحدة الروح الإنسانية هي النتيجة العظيمة والمُريحة التي تنبثق من الصدام السلمي من الأفكار، عندما نتجاهل الادعاءات المعارضة لما يسمى بالوحي الخارق للطبيعة. إن تحالف العقول النيرة في جميع أنحاء العالم ضد التعصب والخرافات هو، ظاهريًا، عمل أقلية غير محسوسة؛ في نهاية المطاف، هو التحالف الدائم الوحيد، لأنه يقوم على الحقيقة، وسوف ينتصر في النهاية، بعد أن تستنفد الخرافات المنافسة نفسها في قرون من الصراعات العاجزة24 المأساة هي أن الحضارة التي حملت شعلة التقدم إلى أقاصي الأرض انتهى بها المطاف إلى الشك في نورها. يقول الصحفي الأمريكي كريستوفر كالدويل: "قد يعاني الإسلام من تخلف ملموس، لكنه يتخلف في زمن اكتسب فيه

التقدم سمعة سيئة"25 هذه الملاحظة يؤكدها وجود تيارات داخل الأديان الرئيسية تميل إلى تجنب بعضها البعض من أجل توجيه هجماتها ضد العيوب الحقيقية أو المتصورة للمجتمعات الحديثة. من المحزن ملاحظة أن الكاثوليكية تُظهر التسلسلات الهرمية حماسةً أكبر لمهاجمة النزعة الفردية المعاصرة مقارنةً بالدين الذي يسعى للقضاء على المسيحية في مهدها. ولا شك أن هذا التردد يُعزى إلى حقيقة أن أصحاب النزعة الاستهلاكية، على عكس المسلمين، لا يرتكبون جرائم قتل، بينما يكفي مجرد ذكر البابا بنديكت السادس عشر لانتقادات وُجهت للإسلام قبل خمسمائة عام لإشعال فتيل أعمال شغب دامية في العالم الإسلامي26 نتذكر المقولة الشهيرة لباتريك بويسون، المستشار السابق للرئيس ساركوزي: "أكنّ احترامًا أكبر للمسلم الذي يصلي خمس مرات في اليوم من احترامي لمواطنٍ برجوازي ناشط بيئي يقود دراجة نارية". إلا أن هذا الكاثوليكي المتدين، ذو الثقافة الأدبية، أغفل الإشارة إلى أن متوسط العمر المتوقع لمن يُناضل من أجل إقامة القداس باللاتينية ويُحتج على إرث أحداث مايو

1968 أعلى في الدائرة الحادية عشرة من باريس منه في قلب كابول. إن الدراسات الإسلامية مجالٌ يتطلب جهدًا كبيرًا. في 30 أغسطس/آب 2009، خاطب آية الله خامنئي المسؤولين و المعلمون في العالم الأكاديمي، محذرين إياهم من أن العلوم الإنسانية تعزز "الشك والريبة فيما يتعلق بالمبادئ والمعتقدات الدينية". في العام التالي، قيّد النظام وصول الطلاب إلى هذه المجالات27 ولأن العلوم الإنسانية تتيح لنا الابتعاد قليلاً عن مجتمعاتنا وآليات عملها، فإنها تُعدّ سلاحًا رئيسيًا في مكافحة الخرافات. وفي دراسة الدين والإسلام، تتمتع أوروبا بمزايا عديدة بفضل تقاليدها الاستشراقية العريقة والمرموقة28 فمنذ أن أمر بطرس الأكبر بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، بلغ التقدم الذي أحرزته الدراسات الإسلامية حدًا يمكّنها من دحض الجهل والضلال. نعلم أن القرآن لم يُصاغ وفقًا للرواية الإسلامية؛ وأن هذا النص، على الرغم من ادعاءاته، يفتقر إلى التماسك؛ وأن القرون الأولى للإسلام كانت أرضًا خصبة للعديد من الاتهامات بأن بعض الجماعات الإسلامية قد عبثت بالنص القرآني على حساب

فصائل أخرى؛ وأن آياتٍ قد نُقلت؛ وأن النسخة "الرسمية" من القرآن لم تُعتمد قبل القرن العاشر الميلادي؛ وأن ما يُفترض أنه كلام الله يحتوي على أخطاء تاريخية جسيمة تتعلق بشعوب ومعتقدات الجزيرة العربية؛ وأن مؤلفي القرآن قد استقوا من الأدب اليهودي والمسيحي. أن الصلوات الخمس اليومية هي نتيجة سرقة أدبية من الديانة الزرادشتية؛ وأنه لا يمكن لأحد أن يكتب سيرة موثوقة للنبي محمد، إذ تكاد موثوقية المصادر الإسلامية تنعدم، من بين عناصر أخرى يستحيل حصرها بالكامل. ستستفيد مجتمعاتنا من أن تنشر أنظمتها التعليمية والإعلامية نتائج المنهج التاريخي النقدي على نطاق أوسع. فلنُدرّسها أخيرًا كما نتعلم كروية الأرض أو تطور الأنواع: بهدوء، وبشكل شامل، دون خوف من المساس بالمعتقدات. يجب أن تتحرر الدراسات الإسلامية من الاتهامات الباطلة الموجهة إليها. إن حقيقة أن المعاملة الظالمة التي لحقت بالشعوب الأصلية ربما استندت إلى تحقير التقاليد الإسلامية لا تُبطل الحاجة إلى نقد العادات المشكوك فيها حتى يمكن تعديلها أو إزالتها. ليس صحيحًا أن المؤرخين مُلزمون

باحترام المعتقدات. للناس حقوق، لا للأفكار التي يعتنقونها. لا مزيد من التسامح مع ما لا يُطاق. في كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه"، يطرح الفيلسوف كارل بوبر مفارقة التسامح على النحو التالي: إن التسامح المطلق لا يؤدي إلا إلى زوال التسامح. فإذا منحنا تسامحًا مطلقًا حتى للمتعصبين، وإذا لم نكن مستعدين للدفاع عن مجتمع متسامح ضد هجمة المتعصبين، فسوف يُباد المتسامحون، ويُباد التسامح معهم [...]. ينبغي لنا أن نؤكد أن أي حركة تدعو إلى التعصب تضع نفسها خارج نطاق القانون، وأن نعتبر التحريض على التعصب والاضطهاد جريمة، تمامًا كما نعتبر التحريض على القتل أو الخطف أو إحياء تجارة الرقيق جريمة29 ومن المفارقات الأخرى أن الابنة الكبرى للكنيسة كانت في يوم من الأيام أكثر تشددًا تجاه دينها التاريخي مما هي عليه اليوم في مواجهة خرافة مستوردة أشد خطورة. ودون التطرق إلى الثورة، فإن العزيمة التي حاربت بها الجمهورية الثالثة - التي يُنسب إليها الفضل في إرساء الحريات المدنية الكبرى - نفوذ الكنيسة على المجتمع تجعل حتى أكثرنا عداءً لرجال الدين يبدون

وديعين. وقد صرّح جول فيري قائلًا: "هدفي هو تنظيم البشرية دون الله". أو الملوك." كان أبو التعليم العلماني يعتقد أن "الجمهورية محكوم عليها بالفشل إذا لم تتحرر الدولة من الكنيسة، إذا لم تبدد ظلام العقيدة".على مدار النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى فصل الكنيسة عن الدولة في عام 1905، تم اتخاذ سلسلة من الإجراءات النشطة لتحرير المجتمع الفرنسي من قبضة الكاثوليكية: استبعاد رجال الدين من مجلس التعليم العام والمجالس الأكاديمية؛ إغلاق مئات الأديرة؛ طرد العاملين الكنسيين من المدارس الابتدائية العامة ثم من التدريس؛ تسجيل الجنود الذين يحضرون القداس؛ فصل مئات القضاة الذين يعرقلون تطبيق المراسيم المعادية لرجال الدين؛ ولا ننسى عمليات الطرد الجماعي للجماعات في عام 1880، ثم من عام 1902 فصاعدًا، مما أدى إلى نفي عشرات الآلاف من الرهبان والراهبات. أكد رئيس الوزراء إميل كومبس: "ليس من الاعتداء على الحرية منع تشكيل مؤسسات داخل المجتمع تُكرّس جهودها لتدميرها، مؤسسات قائمة على إلغاء الحرية الفردية ومصممة لتقويض النظام السياسي

والاجتماعي الذي تدّعي حمايته، وذلك للعمل بلا كلل على تدميره."30 يجب أن تُعيد مكافحة أسلمة المجتمع إحياء حيوية الجمهورية في الماضي. وقد أعرب جان فرانسوا ريفيل عن أسفه قائلاً: "تميل الديمقراطية إلى تجاهل التهديدات التي تواجهها، أو حتى إنكارها، لترددها الشديد في اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهتها."31 يجب على مجتمعاتنا أن تستعيد مهارة فقدتها: وهي التمييز بين الخصم والعدو، أي بين من يختلف معنا في سبل الارتقاء بحضارتنا ومن يرغب عن علم في تدمير أسمى جوانبها. ولتحقيق هذه الغاية، يجب أن نتوقف عن استيراد المزيد من السكان الذين يحملون قيماً معادية لحضارتنا، وأن نطرد بشكل منهجي أولئك الذين لا يلتزمون بها. فالعرق والإثنية لا يُعتدّ بهما. إنّ اللبناني، أو الكاريبي، أو الآسيوي من ذوي الثقافة المسيحية، أو العلمانية، أو البوذية، أو الكونفوشيوسية، سيتبنى القيم الأوروبية بسهولة أكبر من الشيشاني الأبيض المتشدد. يجب تصنيف جماعة الإخوان المسلمين وجميع المنظمات الأصولية التي تعمل، علنًا أو سرًا، على أسلمة مجتمعاتنا، في قطيعة مع التقاليد الديمقراطية الغربية.

كمنظمات إرهابية. يجب تجريد الناشطين المرتبطين بهذه المنظمات من جنسيتهم، وطردهم، ومصادرة ممتلكاتهم، حتى يشعروا عند دخولهم الأراضي الأوروبية وكأنهم في الجحيم الذي يخشونه في نصوصهم المقدسة. يجب اتخاذ إجراءات مماثلة ضد المنظمات القنصلية وغيرها من المؤسسات المرتبطة ببلدانهم الأصلية التي تستخدم الدين وجالياتهم لأغراض زعزعة الاستقرار. سيتعرفون على أنفسهم. إنّ من يُعلّمون الكمال الحرفي للقرآن والمثالية المطلقة لمحمد، إنما يُقرّون بذلك جرائم يُعاقب عليها القانون دون تردد. مكانهم ليس بيننا. هناك أكثر من خمسين دولة إسلامية يمكن لهؤلاء المتشددين الهجرة إليها، وفقًا لقوانين خرافاتهم. وفي كتابه "على مفترق الطرق"، ناقش أندريه مالرو تصاعد الإسلام، قائلاً: "يبدو أن العالم الغربي غير مستعد لمواجهة مشكلة الإسلام. نظريًا، يبدو الحل صعبًا للغاية [...]. ربما كانت الحلول الجزئية كافية لكبح جماح الإسلام لو طُبقت في الوقت المناسب. أما الآن، فقد فات الأوان! [...] كل ما بوسعنا فعله هو إدراك خطورة هذه الظاهرة ومحاولة إبطاء تقدمها." 32 وإذا كانت

المعركة، خلافًا لهذا التقييم المتشائم، لم تنتهِ بعد، فإن الحقيقة تبقى أن الوقت ليس في صالح الغرب. فكما هو الحال مع التأخير الذي تشهده مجتمعاتنا في مكافحة تغير المناخ، فإن كل ثانية تمر تُضيّق نافذة الفرصة لحماية أروع إنجازات حضارتنا. إن أسلمة مجتمعاتنا هي التحدي الأكبر الذي يواجهها، لأن هذه العملية تنطوي على أضرار يصعب عكسها. على نطاق أضيق، شهدنا دولًا تنهض من الرماد بعد هزائم عسكرية، وإفلاسات مصرفية، وديكتاتوريات فاشية وشيوعية، وكوارث بيئية، وحتى بعد تعرضها لقصفين نوويين. ورأينا دولًا تعود من معسكرات الموت، وبعد أن نجت من فظائع الإبادة الجماعية، تبني، في غضون عقود قليلة، مجتمعًا يُحسد عليه جيرانها. ورغم أنه من غير العدل مقارنة وحشية هذه الأحداث الدموية بأسلمة مجتمع ما، إلا أن الحقيقة تبقى أن عدد الدول التي تحررت من الخرافات المحيطة بمحمد بعد أن ترسخ نفوذه لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وبهذا المعنى، يُقدم الشرق، مرة أخرى، مرآة تاريخ مأساوي كتحذير. أثناء تجواله في بلاد الشام، نظر لامارتين بحنين إلى أطلال بعلبك ومعالمها المعمارية اليونانية الرومانية،

التي سقطت تحت نير العثمانيين. أُعجب بتلك الجدران العملاقة، وتلك الأعمدة الباهرة، وتلك التماثيل الملقاة على وجوهها في مشهد فوضوي، حيث تتدفق أروع الأعمال الفنية من كل اتجاه، "كحمم بركان يقذف حطام إمبراطورية عظيمة". انبهر بهذا "التل المعماري"، بهذه المعابد المرتفعة كالتماثيل على قواعدها لمجد باخوس وجوبيتر وفينوس، وبالمشهد الرائع لبريق الرخام على الأكروبوليس، الذي تتلاشى ظلاله بفعل الأروقة والأعمدة والمذابح. وترك الشاعر نفسه يسترخي على أنغام أغنية أنشدها رجل دين عربي داخل جدران كنيسة قديمة متداعية، ملاذًا لأولئك المسيحيين الشرقيين "الغارقين في الإسلام الذي يحيط بهم"، الذين يرون في الغرب مُحررهم المستقبلي. كانت بعلبك بالفعل أعجوبة الصحراء، تلك المدينة الأسطورية، "تطل متألقة من قبرها المجهول، لتخبرنا عن عصور طواها النسيان". والآن، يقع على عاتق الأوروبيين تحديد كيف سيصور الرحالة آثارهم في المستقبل، من متحف اللوفر إلى قلعة إدنبرة، مرورًا بكاتدرائية كولونيا، والساحة الكبرى في بروكسل، وقنوات

أمستردام، والعديد من المناظر الطبيعية الأخرى التي شكلوها: كجواهر حضارة متألقة أم كبقايا عصرٍ مضى.

ملاحظات

المقدمة:

1. طهطاوي، ذهب باريس: رحلة، 1826-1831، ترجمة أنور لوقا، سندباد، 1988. 2. تقتضي الأعراف الفرنسية استخدام كلمة "islam" (بحرف "i" صغير) للإشارة إلى الدين

الإسلامي، وكلمة "Islam" (بحرف "i" كبير) للإشارة إلى الحضارة. تجدر الإشارة إلى أن هذا العرف غير موجود في اللغة العربية. 3. جان أنطوان نيكولا دي كاريتات، ماركيز دي كوندورسيه، رسم تخطيطي لصورة تاريخية لتقدم العقل البشري [1795]، المكتبة الوطنية، 1884. 4. رجب طيب أردوغان، "الحضارة الغربية ستسقط"، معهد ميمري، 24 ديسمبر 2024. 5. إيمي سيزير، خطاب عن الاستعمار متبوعًا بقصيدة إيمي سيزير "الصباح الباكر"، جمهورية الآداب، 2014. 6. فيكتور هوغو، "الخطاب الافتتاحي لمؤتمر السلام"، 21 أغسطس 1849، باريس. ٧. بول شارل دومينيك (محرر)، الرحالة العرب: ابن فضلان، ابن جبير، ابن بطوطة، ومؤلف مجهول، غاليمار، ١٩٩٥. ٨. جول فيري، مقدمة، في نارسيس فوكون، تونس قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، المجلد ١. أوغسطين شالاميل، ١٨٩٣. ٩. أرتورو بيريز ريفيرت: "جزء من المهاجرين المسلمين في أوروبا يعانون من رهاب المكان الذي يعيشون فيه"، لو فيغارو، ٢ سبتمبر ٢٠٢٤. ١٠. مقتبس في شارل لويس فولون وآخرون، قاموس مالرو، منشورات المركز

الوطني للبحث العلمي، ٢٠١١، تحت عنوان " ١"، الصفحات ٣٧٧-٣٩٧. ١١. شارل دي سيكوندات، بارون دي مونتسكيو، في روح القوانين، نص من إعداد وتقديم لوران فيرسيني، باريس، غاليمار، ١٩٩٥. ١٢. كوندورسيه. رسم تخطيطي لصورة تاريخية. ١٣. أوليفييه هان، القرآن: كيف اكتشفت أوروبا القرآن، مقدمة بقلم جون تولان، بلين، ٢٠١٩. ١٤. بوعلام صنصال، "في مواجهة الإرهاب الإسلامي، الضرب السريع والقوي هو ما يطالب به الموتى والأحياء"، لو فيغارو، ١٣ نوفمبر ٢٠٢١.

1 - عالم الأمس: ذاكرة شرقي

١. دوم جواو دي كاسترو، "طريق البحر الأحمر والخليج العربي، أو قصف السويس من قبل البرتغاليين عام ١٥٤١"، نشرة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية، المجلد ١٩، دار إي. وآر. شيندلر للطباعة، ١٩٣٧، الصفحات ٣٠١-٣٤٥. ٢. هـ. أ. ر. جيب، العرب، مطبعة كلارندون، ١٩٤٠. كتيبات أكسفورد حول الشؤون العالمية، رقم ٤٠ (جيب ٣). ٣. روبرت

مانتران، التوسع الإسلامي. القرن السابع -
الحادي عشر، مطبعة جامعة فرنسا، ٢٠٠١،
الفصل الأول، "من الجزيرة العربية قبل
الإسلام إلى وفاة محمد"، الصفحات ٦٢-٩٥. ٤.
كريستيان روبن، "اليمن والمملكة العربية
السعودية: هل يبدأ التاريخ الوطني قبل
الإسلام؟" في أنطونين جوسينز (محرر)،
العلوم الاجتماعية الغربية والتراث العربي،
مطبعة معهد الدراسات الفرنسية المعاصرة،
١٩٩٩. ٥. ميشيل أفلاك، "في ذكرى النبي
العربي"، ٥ أبريل ١٩٤٣، جامعة دمشق. ٦.
هنري لامنس، "القرآن والسنة: كيف كُتبت
سيرة محمد"، أبحاث في العلوم الدينية،
المجلد ١، العدد ١، ١٩١٠، ص. ٢٦. ٧. ماكسيم
رودنسون، محمد، سوي، ١٩٩٤. ٨. روبرت ج.
هولاند، الجزيرة العربية والعرب: من العصر
البرونزي إلى ظهور الإسلام، روتليدج، ٢٠٠٢.
٩. سترابو، الجغرافيا، ترجمة جديدة لأميدي
تاردو، المجلد الثالث، باريس، مكتبة هاشيت
وشركاه، ١٨٨٠. ١٠. نابليون بونابرت، حملات
في مصر وسوريا، المجلد الأول، مطبعة
الإمبراطورية، ١٨٤٧، الصفحات ٢٠٧-٢٠٨. ١١.
مايكل كوك وباتريشيا كرون، الهاجرية: نشأة

العالم الإسلامي، مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٧. ١٢. دي براون، ادفن قلبي في ووندد ني: قصة أمريكية، ١٨٦٠-١٨٩٠، ترجمة. بقلم ناتالي كانينجتون، ألبين ميشيل، 2009. 13. كلود ليفي شتراوس، المناطق الاستوائية الحزينة، بلون، "تير هومين"، 1993، ص. 560. 14. روبرت إيروين، من أجل شهوة المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم، Penguin UK، 2007. 15. إدوارد سعيد، الاستشراق: المشرق الذي خلقه الغرب، ترجمة. بقلم كاثرين مالامود، سيويل، 1980. 16. إيمي سيزير، خطاب حول الاستعمار. 17. ماري غابرييل فلورنت أوغست دي شوازول جوفييه، رحلة خلابة عبر اليونان، المجلد. 1، باريس، 1782. 18. فرانسوا رينيه دو شاتوبريان، خط سير الرحلة من باريس إلى القدس. باريس، غاليمار، مجموعة "Folio classique"، 2005. 19. فيكتور هوغو، "Les Grenade"، Orientales، Ollendorf، 1912. 20. برنارد لويس، "حالة دراسات الشرق الأوسط"، الباحث الأمريكي 48، رقم. 3، 1979، 365-81. 21. جان لوي هووت، ذكرى الماضي. La Modernité de l'archéologie،

Découverte، 2008، الفصل. 2، "
L'archéologie dans le monde
musulman"، الصفحات من 183 إلى 195.
22. جان بول رو، تاريخ الأتراك: Deux mille
ans du Pacifique à la Méditerranée،
فايارد، 2000. 23. ماكسيم رودنسون، Les
Arabes، PUF، 2002، الفصل. 1، "Qui
sont les Arabes؟"، ص 13-52. 24.
بارتولومي سيمون، "ممارسة الضغط
والسيطرة على الحلال: هل المسجد الكبير في
باريس سفارة ثانية للجزائر؟"، لو بوان، 16
يناير 2025. 25. كاثرين ساليو، الشرق الأدنى:
من بومبي إلى محمد، القرن الأول قبل الميلاد
– القرن السابع الميلادي، بيلين، كول. «العوالم
القديمة»، باريس، 2020. 26. فلاستيميل
دربال، «وصف بروكوبيوس الغزي لكتاب
إيكونوس كمرآة لمجتمع العصور القديمة
المتأخرة»، بيزنطينوسلافيكا - المجلة الدولية
للدراسات البيزنطية، المجلد 69، العدد 3
(ملحق)، 2011، الصفحات 106-122. 27.
جيرار والتر، الحياة اليومية في بيزنطة في
القرن الكومني (1081-1180)، هاشيت،
1966. 28. أنجليكي لايو، العالم البيزنطي،

المجلد 3. الإمبراطورية اليونانية وجيرانها (القرنين 13-15)، مطبعة جامعة فرنسا، 2011، الفصل 6، «الاقتصاد الحضري والمجتمع»، الصفحات 95-115. ٢٩. بول فين، الإمبراطورية اليونانية الرومانية، لو سوي، ٢٠٠٥. ٣٠. جوزيف يعقوب، الشرق الأوسط السرياني: الوجه المجهول للمسيحيين الشرقيين، سالفاتور، ٢٠١٩. ٣١. جريج فيشر (محرر)، العرب والإمبراطوريات قبل الإسلام، مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٥. ٣٢. كلود برياند-بونسار وكريستوف هوغونيو، أفريقيا الرومانية: من المحيط الأطلسي إلى طرابلس - ١٤٦ ق.م. - ٥٣٣ م، أرماند كولين، ٢٠٠٥. ٣٣. كريستوف هوغونيو، روما في أفريقيا. من سقوط قرطاج إلى بدايات الفتح العربي، فلاماريون، 2000. 34. فرانسواز ميشو، بدايات الإسلام: معالم لتاريخ جديد، تيرادر، 2012. 35. بيير جورجيو بوربون، بيير مارسون وآخرون (محررون)، المسيحية السريانية في آسيا الوسطى والصين، جوتنر، 2015. 36. جريج فيشر (محرر)، العرب والإمبراطوريات. ٣٧. جان فرانسوا ليجران، ميثاق حركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية (حماس):

أصوات الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧-١٩٨٨، القاهرة، مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والقانوني والاجتماعي (CEDEJ)، ١٩٩١. ٣٨. جان بول رو، تاريخ إيران والإيرانيين: من الأصول إلى يومنا هذا، فايارد، ٢٠٠٦. ٣٩. سي. ساليو، الشرق الأدنى. ٤٠. هنري بول فرانكفورت، "الهيلينية في باكتريا"، قضايا معاصرة في الدراسات القديمة، ٢٠٢٢، تم الاطلاع عليه في ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٥، على الرابط https://doi.org/10.58079/tc4r. 41. كارتر فون فيندلي، الأتراك في تاريخ العالم، مطبعة جامعة أكسفورد، 2004. 42. آن فيجوير، تاريخ موجز للهند، فلاماريون، 2023. 43. لويس سيباستيان مرسييه، عام ألفين وأربعمائة وأربعين: حلم لو كان هناك حلم، 1774. 44. عبد الله العروي، تاريخ المغرب العربي: مقالة في توليف، فرانسوا ماسبيرو، 1982. 45. ميشيل فيوجير، ميشيل باسيلاك، كريستوف بيليكير، بيير جارمي، ستيفان مونيه، جان لوك فيشيز، مارسيال مونتيل، جان كلود بيساك، آن روث كونغيس، كلير آن دو شازيل، ماريز صبري، ريمون صبري، فاليري بيل، "لافتات". الكتابة بالحروف اللاتينية،: Revue

Archéologique de ناربونيز، المجلد 31، 1998، الصفحات 299-353. 46. جان باتيست غورينات، "الإلحاد في العصور القديمة"، الفلسفة القديمة، المجلد 18، 2018، الصفحات 7-11. 47. أوغسطينوس، مدينة الله، ترجمة إميل سايسيه، الأعمال الكاملة للقديس أوغسطينوس، المجلد 18، 2018، الصفحات 1-11. 13، حرره راولكس، إل. غيران وشركاه، 1869. 48. غريغوريوس النيصي، عظات على سفر الجامعة، النص اليوناني من طبعة بي. ألكسندر، مقدمة وترجمة وملاحظات وفهرس بقلم فرانسواز فينيل، سيرف، 1996. 49. ماري هيلين كونغوردو، "الجنين بين الأفلاطونية المحدثة والمسيحية"، أورينس أوكسيدنس: العلوم والرياضيات والفلسفة من العصور القديمة إلى العصر الكلاسيكي، المجلد 4، 2002، الصفحات 201-216. 50. بليز باسكال، الأعمال الكاملة، المجلد 13، حرره راولكس، إل. غيران وشركاه، 1869. 1، Pensées، Hachette، 1871. الفصل 2 1. فرانسوا رينيه دو شاتوبريان، مقال عن الثورات، الجزء الثاني، الفصل الخامس، النص الذي أنشأه

وقدمه وشرحه موريس ريجارد، غاليمار،
مجموعة. "Bibliothèque de la Pléiade"،
1978. 2. إدوارد جيبون، تاريخ تراجع وسقوط
الإمبراطورية الرومانية، ترجمة. بواسطة
فرانسوا Guizot، المجلد. 52، باريس، 1837-
1838، ص. 16. 3. برنارد لويس، كيف
اكتشف الإسلام أوروبا، ترجمة. بقلم أنيك
بيليسييه، La Découverte، 1984، ص. 12.
4. سيسيل موريسون، "بيزنطة: ما وراء
الأفكار المتلقاة"، التعليق، المجلد. 142، لا. ٢،
٢٠١٣، ص ٣٠١-٣٠٨. ٥. شارل دي مونتسكيو،
تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحدارهم،
غارنييه، ١٨٧٦. الطبعة الأولى ١٧٣٤. ٦. روبرت
فولز وآخرون، من العصور القديمة إلى العصور
الوسطى، مطبعة جامعة فرنسا، ١٩٩٠، الفصل
٥، "الإمبراطورية البيزنطية في زمن جدل
تحطيم الأيقونات"، ص ٢٧٣-٢٨٨. ٧. محمد
إقبال، إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام،
مطبعة جامعة ستانفورد، ٢٠١٣. الطبعة الأصلية
١٩٣٠. ٨. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام
أوروبا، ص ٤٤. ٩. باتريشيا كرون، القانون
الروماني والإقليمي والإسلامي: أصول الولاية
الإسلامية، المجلد ٨، مطبعة جامعة كامبريدج،

٢٠٠٢. ١٠.روبرت برونشفيج (محرر)، الكلاسيكية والانحطاط الثقافي في تاريخ الإسلام / وقائع الندوة الدولية حول تاريخ الحضارة الإسلامية (بوردو، 25-29 يونيو 1956)، بيسون-شانتميرل، 1957. 11. علي مظاهري، العصر الذهبي للإسلام، إديف، 2003. 12. ريمي براغ، عن الإسلام، غاليمار، 2023، الفصل 13، "حقائق النقل"، الصفحات 240-252. 13. سي. ساليو، الشرق الأدنى. 14. مروان راشد، "الفكر اليوناني، الفكر العربي"، في جاك برونشفيج، بيير بيليجرين، جيفري إرنست ريتشارد لويد (محررون)، المعرفة اليونانية، فلاماريون، 2021، الصفحات 1082-1099؛ غابرييل مارتينيز-غرو، "لماذا انتصر الغرب؟"، في لوران تيستو (محرر)، التاريخ العظيم للإسلام، منشورات العلوم الإنسانية، 2018، ص 90-96. 15. جيرار تروبو، "دور السريان في نقل واستغلال التراث الفلسفي والعلمي اليوناني"، أرابيكا، المجلد 38، العدد 1، 1991، ص 1-10. 16. ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني، الثقافة العربية، ترجمة هنري هوغونارد-روش، أوبير، 2005. 17. ر. براغ، عن الإسلام، الفصل 13، "حقائق النقل"،

ص 240-252. ١٨. سعيد الأندلسي، العلم في العالم الوسيط: كتاب تصنيفات الأمم، مطبعة جامعة تكساس، ٢٠١٠. ١٩. رشدي راشد، التاريخ العام للعلم، تحرير رينيه تاتون، المجلد ١، العلوم القديمة والوسيطة (من نشأتها حتى ١٤٥٠)، الطبعة الثانية، مطبعة جامعة فرنسا، ١٩٦٨. تم إضافة التأكيد. ٢٠. المرجع نفسه. ٢١. فرناند بروديل، قواعد الحضارات، أرثود، ١٩٨٧. ٢٢. غابرييل مارتينيز-غرو، "لماذا انتصر الغرب؟" ٢٣. ألكسيس دو توكفيل، التقرير البرلماني عن الجزائر، ٢٤ مايو ١٨٤٧. ٢٤. ر. مانتران، التوسع الإسلامي، "الخاتمة"، ص ٣٠٩-٣١١. ٢٥. جاك واردنبورغ، المسلمون وغيرهم. العلاقات في سياقها، والتر دي غرويتر، 2003، ص 97-98. 26. جان بيير فيليو، وسط العوالم: تاريخ علماني للشرق الأوسط من عام 395 إلى يومنا هذا، لو سوي، 2021، الفصل 2، "من الأمويين إلى العباسيين (661-945)"، ص 55-87. 27. جون تولان، تاريخ جديد للإسلام: القرون من السابع إلى الحادي والعشرين، تالاندييه، 2022، الفصل 2، "الدولة الأموية وولادة دين إمبراطوري". (التشديد مضاف). 28. ماكسيم رودنسون،

العرب، PUF، 2002. 29. كريستيان جوليان روبن، "إصلاح الكتابة العربية في عصر الخلافة المدنية"، مزيج من جامعة القديس يوسف، 2006، المجلد. 59، ص 319-364. 30. إجناز جولدتسيهر، "العرب والعجم،"، في إس إم ستيرن (تحرير)، الدراسات الإسلامية، المجلد. 1، جورج ألين وأونوين، 1966، ص 98-136. 31. ديمتري جوتاس، الفكر اليوناني، الثقافة العربية، ترجمة. بقلم هنري هوجونارد روش، أوبييه، 2005. 32. برنارد هيبرجر، Les Chrétiens d’Orient، PUF، 2020، الفصل. 3، “إقامة الإسلام”، ص39-55. 33. عبد الوهاب المؤدب، مرض الإسلام، لو سيويل، 2013، ص 158-164. 34. آن ماري ديلكامبر، *L'Islam des interdits*، Desclée de Brouwer، 2003. 35. جان لوك ميلينشون، في *Répliques*، France Culture، 7 مايو 2011. 36. نادية ماريا الشيخ، *بيزنطة ينظر إليها العرب*، Harvard CMES، 2004. 37. ابن خلدون، *المقدمات*، ترجمة. بقلم ويليام ماك جوكين دي سلان، مستشرق المكتبة بول جوتنر، 1863. 38. فرانسواز بريكيل-شاتونيه وموريل ديبي، *Le Monde syriaque: sur

lesways d'un christianisme ignoré*، أحمد .Les Belles Lettres، 2017. 39 جبار، *تاريخ العلم عربي. Entretiens avec Jean Rosmorduc*, Seuil, 2001. 40. D. Gutas, *Pensée Grecque, الثقافة العربية*. 41. محمد نور الدين عفاية، "التواصل بين الثقافات بين الواقعي والافتراضي"، أفرز إنترناسيونالز، العدد. 43-44، 1999، ص 217-241. ٤٢. ورد في كتاب إيمانويل تيكسييه دو ميسنيل، المعرفة والسلطة في الأندلس في القرن الحادي عشر، دار سوي، ٢٠٢٢. ٤٣. ن. بونابرت، الحملات في مصر وسوريا، ص ١٣. ٤٤. فرانز روزنتال، التراث الكلاسيكي في الإسلام، دار سايكولوجي برس، ١٩٩٢. ٤٥. ر. براغ، عن الإسلام، الفصل ١٣، "حقائق النقل"، ص ٢٤٠-٢٥٢. ٤٦. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا. ومن المثير للاهتمام أنه على الرغم من أن للأفكار السياسية تأثيرًا كبيرًا على المؤسسات، إلا أن الدراسات التي تتناول مواقف المسلمين تجاه الأفكار السياسية للمجتمعات المفتوحة نادرة. ومع ذلك، فإن ما اعتبره المسلمون مهمًا ترجمته لا يقل أهمية

عما أغفلوه. 47. رزيقة العدناني، *فرز الإسلام*، مقدمة بقلم ريمي براغ، طبعات إريك بونبيه، 2024. 48. فيليب نيمو، *تاريخ الأفكار السياسية في العصور القديمة وفي العصر الوسيط*، PUF، 1998. 49. ب. كرون، *روماني، المقاطعة والقانون الإسلامي*. 50. فيليب نيمو وجان بيتيتو (محرران)، *تاريخ الليبرالية في أوروبا*، PUF، 2006. 51. ويبدو أن من بين الاستثناءات حالة الحجاج بن يوسف بن مطر، مترجم إقليدس. ويشير اسمه إلى الحج إلى مكة، ويشير بالفعل إلى انتمائه الإسلامي، على الرغم من أنه لا يُعرف سوى القليل عن حياته وأصول عائلته. 52. أو. هان، لالكوران. 53. جوزيف يعقوب، من سوفيندرا؟ 1915: الإبادة الجماعية الآشورية الكلدانية السورية، Éditions du Cerf، 2016. 54. جيرار شالياند وآخرون، L'Héritage occidental، Odile Jacob، 2002، "Quintilian (c. 30–c. 100)"، الصفحات 263-265. 55. إيفون تورين، الإهانات الثقافية في الجزائر الاستعمارية. المدارس، الأطباء، الدين 1830-1880، ماسبيرو، 1971. 56. إيرين روزييه-كاتاش

وآلان دي ليبرا، اليونانيون والعرب ونحن، فايارد، 2009. 57. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا. 58. ابن هشام، السيرة، تحرير ف. وستنفيلد، غوتنغن، 1859-1860، ص 938. 59. برنارد لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا، ترجمة آنيك بيليسير، غاليمار، "تيل"، 2005. 60. المرجع نفسه، الخاتمة. 61. سيرافين فانجول، الأندلس، اختراع أسطورة: الواقع التاريخي لإسبانيا الثقافات الثلاث، ترجمة. بقلم نيكولاس كلاين ولورا مارتينيز، إصدارات دو توكان، 2017. 62. أدريان كانديارد، إنهاء التسامح؟ الاختلافات الدينية والحلم الأندلسي، PUF، 2014، الفصل. 2 "سراب أندلسي"، ص13-47. 63. مقتبس في جان ماري لاسير، أفريقيا، شبه الغجر، CNRS Éditions، 2015، ص. 745. 64. ألين ج. فرومهرز، الموحدون: صعود إمبراطورية إسلامية، آي بي توريس، 2010. 65. سيريل أيليه، "مقدمة لـ"مسألة الموزاراب"، الموزاراب، كاسا دي فيلاسكيز، 2010. 66. عزيز العظمة، "أعداء لدودون، جيران غير مرئيين: الشماليون في عيون الأندلسي"، في سلمى خضراء الجيوسي (محررة)، إرث إسبانيا

الإسلامية، بريل، 1992، ص 259-272. ٦٧. بيير غيشار وجان بيير مولينات، "في الأندلس، العلماء في مواجهة المسيحيين"، في أندريه بازانا، نيكول بيريو، وبيير غيشار (محررون)، ابن رشد والرواية: مسار تاريخي من الأطلس الكبير إلى باريس وبادوا، مطبعة جامعة ليون، ٢٠٠٥، ص ١٩١-٢٠٠. ٦٨. جيسون طومسون، نابليون في مصر: وقائع الجبرتي للاحتلال الفرنسي، ١٧٩٨، ١٩٩٥. ٦٩. بيير غيشار وجان بيير مولينات، "في الأندلس، العلماء في مواجهة المسيحيين". ٧٠. نقلاً عن نورمان دانيال، الإسلام والغرب، ترجمة آلان سبيس، دار نشر سيرف، ١٩٩٣، ص. ٢٢٤. ٧١. «لن نُعلِّم القرآن لأبنائنا»، هذا ما جاء في النقطة الرابعة من هذا النص الموجه لغير المسلمين. انظر: إيزابيل صفا، «عهد عمر»، مجلة «كراسات الشرق»، ٢٠١٥/٢، العدد ١١٨، ٢٠١٥، الصفحات ٢٣-٢٥. ٧٢. مايكل كارتر، «دراسة اللغة العربية»، ديوجين، المجلد ٢٢٩-٢٣٠، العدد ١-٢، ٢٠١٠، الصفحات ١٥٣-١٧٣. ٧٣. سيلفان غوغينهايم، مجد الإغريق: حول بعض المساهمات الثقافية من بيزنطة إلى أوروبا الرومانسية (القرن العاشر - أوائل

القرن الثالث عشر)، باريس، منشورات سيرف، ٢٠١٧. ٧٤. أو. هان، القرآن. 75. سيريل آيليت، Les Mozarabes، كاسا دي فيلاسكيز، 2010، الفصل. 5، "La production littéraire Arabo-Chrétienne en péninsule ibérique،" pp. 177-241. 76. أمين معلوف، Les Croisades vues par les Arabes، JC Lattès، 1983. 77. مقتبس في بيير غيشار، الأندلس، فايارد، "Pluriel"، 2011. 78. رولاند أوليفر (محرر)، تاريخ كامبريدج في أفريقيا، المجلد. ثالثا، ج. 1050 - ج. 1600، 1977. 79. باسكال بوريسي ومهدي غويرغيت، "Le Maghreb au XIe siècle: État de l'arabisation et de l'islamisation،" في Pascal Buresi (ed.)، Histoire du Maghreb médiéval، XIe–XVe siècle، Armand Colin، 2021، pp. 17-27. 80. أمينة محمد عارف، "أسلمة الهند: تحولات دون تبشير؟"، في فيليب جيليز وجيل جريفو (محرران)، التحولات إلى الإسلام في آسيا الصغرى والبلقان والعالم الإسلامي، المدرسة الفرنسية في أثينا، 2016، ص 143-

162. 81. ديفيد سكوت، “البوذية والإسلام: لقاءات من الماضي إلى الحاضر ودروس بين الأديان”، نومين، المجلد. 42، العدد 2، 1995، الصفحات 141-155. 82. سيمج سيفين، "سلطنة الغزنويين: مقاربات من التاريخ الاجتماعي والديني"، هيستوار، 2023. (dumas-04529647) 83. فرانسوا-كزافييه فوفيل، أفريقيا القديمة: من أكاكوس إلى زيمبابوي. 20000 عام قبل عصرنا - القرن السابع عشر، بلين، "العوالم القديمة"، 2018. 84. أوليفييه بوكيه، "1453-1574: السيادة الإمبراطورية"، في المرجع نفسه (محرر)، لماذا الإمبراطورية العثمانية؟ ستة قرون من التاريخ، غاليمار، 2022، الصفحات 148-214. ٨٥. فيليب جيليز، "أسلمة البلقان (القرون ١٥-١٩)"، في: فيليب جيليز وج. غريفو، التحول إلى الإسلام في آسيا الصغرى، ص ١٩-٧٤. ٨٦. جان فرانسوا سولنون، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، بيرين، ٢٠١٧، الفصل ٦، "فضول مشترك"، ص ١٤٥-١٨٦. ٨٧. ابن خلدون، المقدمة. ٨٨. جان فرانسوا سولنون، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، الفصل ١١، "أوروبا في إسطنبول: السفراء والمترجمون"،

ص ٣٢٥-٣٥٤. ٨٩. ألبرت حوراني، الفكر العربي في العصر الليبرالي، ١٧٩٨-١٩٣٩، مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣. ٩٠. حامد بوزارسلان، تاريخ تركيا: من الإمبراطورية إلى يومنا هذا، تالانديه، ٢٠١٣، الفصل ٤، "استنفاد النظام العثماني"، الصفحات ١١٩-١٤١. ٩١. إي. تيكسييه دو ميسنيل، المعرفة والسلطة في الأندلس في القرن الحادي عشر. 92. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية، 2002. 93. رود كوبمانز، Das verfallene Haus des Islam: Die religiösen Ursachen von Unfreiheit، Stagnation und Gewalt، CH Beck Verlag، 2021. 94. عمر فرتات، L'Autre et ses تمثيلات في الثقافة العربية الإسلامية، مطابع جامعة بوردو، 2016. 95. إيثان ل. منشينغر، "اسم أحمد فاسيف أفندي إلى إسبانيا"، دراسات التاريخ 3، رقم 1 (2010). ٩٦. إدغار موران وطارق رمضان، على خطر الأفكار - الأسئلة الكبرى في عصرنا، مطبعة شاتليه، ٢٠١٤. ٩٧. كلوديا مواتي، وولفغانغ كايزر، وكريستوف بيبارث (محررون)، عالم الترحال: في البحر الأبيض المتوسط من

العصور القديمة إلى العصر الحديث، طبعة جديدة [عبر الإنترنت]. دار أوسونيوس للنشر، ٢٠٠٩. ٩٨. مقتبس في: س. فانجول، الأندلس، اختراع أسطورة. ٩٩. أ. هان، القرآن. ١٠٠. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا، ص. ٢٧٢. ١٠١. فرانسوا-كزافييه فوفيل-أيمار وبرتراند هيرش، "رحلة إلى حدود العالم: الطوبولوجيا والسرد وألعاب المرآة في رحلة ابن بطوطة"، أفريقيا والتاريخ، ١، ٢٠٠٣، ص ٧٥-١٢٢. ١٠٢. ورد ذكره في: ب. شارل-دومينيك (محرر)، الرحالة العرب. ١٠٣. الجاحظ، كتاب الحياة، المجلد الثامن، ص ٢٨. ورد ذكره في: ن. م. الشيخ، بيزنطة كما يراها العرب. ١٠٤. عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، المجلد الأول. ورد ذكره في المرجع نفسه. ١٠٥. علي أفندي موراه سيد ومحب أفندي سيد عبد الرحيم، عثمانيان في باريس في عهد الإدارة والإمبراطورية: علاقات السفارات، روايات مترجمة من التركية العثمانية، قدمها وعلق عليها ستيفان يراسيموس، سندباد-أكت سود، ١٩٩٨. ١٠٦. كارولين حايك، "خطاب ماكرون يُثير ضجة في العالم الإسلامي"، لوريان لو جور، ٧ أكتوبر ٢٠٢٠. ١٠٧. مقتبس في توم

هولاند، في ظل السيف: ميلاد الإسلام وصعود الإمبراطورية العربية، ترجمة يوهان فريدريك هيل-غيدج، تيمبوس، ٢٠١٧. ١٠٨. انظر في هذا الصدد ملحمة الخلفاء الملعونين، لهيلا وردي. 109. جان بول رو، *تاريخ إيران والإيرانيين*، فيارد، 2006، الفصل. 10، "إيران تحت السيطرة العربية". 110. باسكال بروكنر، *Le Sanglot de l'homme blanc*، Éditions du Seuil، Coll. "التاريخ الفوري"، 1983. 111. كاثرين ريتشارت وآخرون، *التراث العربي الإسلامي في أوروبا المتوسطية*، La Découverte، "أبحاث"، 2015. 112. رشدي راشد (محرر)، *تاريخ العلوم العربية*، بالتعاون مع ريجيس موريلون، 3 مجلدات، سيويل، 1997. 113. الكندي، *العرض الأول للفلسفة*، في *أعمال فلسفية وعلمية الكندي*، مقدمة، الطبعة، ترجمة. وملاحظات رشدي راشد وجان جوليفيت، المجلد. 2، بريل، 1998، ص. ١٣. ١١٤. ر. برونشفيغ، الكلاسيكية والانحطاط الثقافي في تاريخ الإسلام، الفصل الثاني، "مشكلة الانحطاط"، ص ٤٣. ١١٥. بول هنري تيري هولباخ، المسيحية مكشوفة، أو دراسة لمبادئ وآثار الدين المسيحي، نانسي،

١٧٥٦. ١١٦. للاطلاع على مراحل الانحطاط الثقافي في البلدان العربية الشرقية، انظر ر. برونشفيغ، الكلاسيكية والانحطاط الثقافي. ١١٧. إ. تيكسييه دو ميسنيل، المعرفة والسلطة في الأندلس. ١١٨. ديمتري جوتاس، *الفكر اليوناني، الثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر (القرون الثاني - الرابع / الخامس - العاشر)*، روتليدج، ٢٠١٢. ١١٩. إرنست رينان، "الإسلاموية والعلم" [١٨٨٣]، في *الأعمال الكاملة*، حررتها هنرييت بسيشاري، كالمان-ليفي، المجلد ١، ١٩٤٧، الصفحات ٩٤٥-٩٦٥. ١٢٠. ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون، ترجمة إلى الفرنسية وتعليق السيد دي سلان*، باريس، مكتبة بول غويتنر الشرقية. ثلاثة مجلدات، نُشرت عام ١٩٣٦ [١٩٣٤]. ١٢١. أ. جبار، *تاريخ العلوم العربية*. ١٢٢. أنطوان بو، "الإسلام والعلوم الزائفة: بحث في مخاطر الطب النبوي"، مجلة ليكسبريس، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٣. ١٢٣. ريمي براغ، "اليوناني، العربي، الأوروبي: حول جدل حديث"، مجلة كومنتاير، ٢٠٠٨/٤، العدد ١٢٤، الصفحات ١١٨١-١٢٠٤. ١٢٤. فوزية شرفي، الإسلام والعلم: وضع حد

للمساومات، دار أوديل جاكوب، ٢٠٢١، الفصل ٥، "نحو تفسير جديد للقرآن"، الصفحات ١٨٧-٢١٧. ١٢٥. إغناس غولدزيهر، مكانة الأرثوذكسية الإسلامية القديمة في علاقتها بالعلوم القديمة، دار نشر الأكاديمية الملكية. دير ويس، ١٩١٥. ١٢٦. ورد ذكره في د. جوتاس، الفكر اليوناني، الثقافة العربية. ١٢٧. جمال الدين الأفغاني، "رسالة حول الإسلاموية وعلم إرنست رينان"، مجلة المناقشات، ١٨ مايو ١٨٨٣، ص ٣. ١٢٨. غيوم داي، "اليونانيون والعرب و"جذور" أوروبا: تأملات في "قضية غوغنهايم"، المجلة البلجيكية لعلم اللغة والتاريخ، المجلد ٨٧، العدد ٣-٤، ٢٠٠٩، ص ٨١١-٨٣٥.

3 - بؤساء الأرض

١. ن. بونابرت، الحملات في مصر وسوريا، المجلد الأول، ص ٢٣٣-٢٣٤. ٢. أرنولد ج. توينبي، دراسة في التاريخ، المجلد ١، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٣٤. ٣. مالكوم إكس وأليكس هيلي، السيرة الذاتية لمالكوم، ٣٩٠-٣٩٢. ٤. خضوج الغوندلي، ميلودا شبابة، فاطمة الزهراء العامري، وعبد الرؤوف هلالي، "محددات زواج الأقارب بين السكان العرب: مراجعة منهجية"، المجلة الإيرانية للصحة العامة، ٥١(٢)، ٢٠٢٢، ص ٢٥٣-٢٦٥؛ أولوبونمي أونيا وآخرون، "مراجعة للعواقب الإنجابية لزواج الأقارب"، المجلة الأوروبية لأمراض النساء والتوليد وعلم الأحياء التناسلية ٢٣٢ (٢٠١٩)، ص ٨٧-٩٦. 5. جوناثان ف. شولز وآخرون، "الكنيسة، القرابة المكثفة، والتنوع النفسي العالمي"، العلوم 366، eaau5141(2019). 6. مقتبس في روجر لو تورنو، "ابن خلدون، laudateur et contempteur des Arabes" [ابن خلدون، مدح ومنتقد للعرب]، Revue de l’Occident musulman et de la Méditerranée [مراجعة للغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط]، رقم. 2، 1966، ص 155 – 168.

7. إجناك جولدتسيهر، الدراسات الإسلامية، المجلد. ١. مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٦٧. ٨. برنارد لويس، العرق والعبودية في الشرق الأوسط: دراسة تاريخية، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٠. ٩. فيليب سيناك وآخرون، تاريخ المغرب العربي في العصور الوسطى، القرنين السابع والحادي عشر، أرماند كولين، ٢٠١٢، الفصل ٣، "الثورات البربرية"، الصفحات ٣٧-٤٣. ١٠. إغناك غولدزيهر، "العرب والعجم"، دراسات إسلامية، تحرير إس. إم. ستيرن، ترجمة سي. آر. باربر وإس. إم. ستيرن، المجلد ١، الصفحات ٩٨-١٣٦. لندن، جورج ألين وأونوين، 1966. 11. برنارد لويس، العرق واللون في الإسلام، أوكتاجون بوكس، 1979. 12.مولاي مصطفى تسريف، الدفاع عن الهوية العربية في القرن التاسع: الجاحظ وابن قتيبة: كاتبان نثران يتناولان الشعيبية، منشورات مركز الدراسات الإسلامية الأمريكية، 2023. 13. المرجع نفسه. 14. غولدزيهر، إ. (1967)، الشعيبية، في سي إتش بيكر وإس إم ستيرن (محرران)، دراسات إسلامية (المجلد 1، الصفحات 137-198). لندن، ألين وأونوين. 15. ورد ذكره في مولاي مصطفى تسريف،

الدفاع عن الهوية العربية في القرن التاسع.
16. بي. لويس، العرق واللون في الإسلام.
17. ميشيل دي مونتين، مقالات، الكتاب 1،
الفصل 31، تحرير بيير فيلي، مطبعة جامعة
فرنسا، 1965. 18. باسكال بوييه، نشأة
الإنسانية. كيف يُفسر دماغنا الأسرة والاقتصاد
والعدالة والدين، ترجمة أبيل غيرشنفيلد،
روبرت لافونت، 2022. 19. ر. مانتران،
التوسع الإسلامي، "الخاتمة"، ص 309-311.
20. محمد والدي، العبودية في العالم
الإسلامي: من تجارة الرقيق الأولى إلى
الصدمة، منشورات أمستردام، "كونتربارتي"،
2024. 21. فرانسوا-كزافييه فوفيل (محرر)،
"أفريقيا، أرض جديدة للإسلام"، في المرجع
نفسه، أفريقيا القديمة. ٢٢. ورد ذكره في
كتاب ب. لويس، "اكتشاف أفريقيا"، ضمن
كتاب العرق والعبودية في الشرق الأوسط:
دراسة تاريخية، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٠.
٢٣. أوليفييه بيتري-غرينويو، "الرسائل
السوداء"، غاليمار، ٢٠٠٦. ٢٤. فريد بوشيبة،
"هل يمكن استعباد المسلمين السود؟ فتوى
أحمد بابا (توفي عام ١٦٢٧) من تمبكتو"،
ReLRace - الأديان والأنساب و"العرق"، ١

يونيو ٢٠٢٣. ٢٥. مارك أنطوان بيروز دي مونكلوس، "أفريقيا، جبهة جديدة للجهاد؟"، لا ديكوفيرت، ٢٠١٨، ص. ١٠٨. ٢٦. جان لويس تريو، "انتشار الإسلام في أفريقيا"، في جان كلود غارسون، دول ومجتمعات وثقافات العالم الإسلامي في العصور الوسطى، المجلد ١، القرون من العاشر إلى الخامس عشر، مطبعة جامعة فرنسا، ١٩٩٥، الصفحات ٣٩٧-٤٢٩. ٢٧. مقتبس في ب. لويس، "اكتشاف أفريقيا"، في العرق والعبودية في الشرق الأوسط: دراسة تاريخية، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٠. ٢٨. أ. بيتري غرينويو، تجارة الرقيق. ٢٩. فرغان أزيهاري، "العبودية، الاستعمار: عندما يصر الاتحاد الأفريقي والأمم المتحدة على إنكار الحقيقة"، لو بوان، ٢٧ فبراير ٢٠٢٥. ٣٠. أ. بيتري غرينويو، تجارة الرقيق، صفحة ٢٧. ٣١. المرجع نفسه، صفحة ٢٧. 91. 32. مقتبس في ب. لويس، العرق واللون في الإسلام. 33. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا، باريس، غاليمار، 1991، ص. 54. 34. مقتبس في أوليفييه هان، *تاريخ الجهاد: أصول الإسلام إلى داعش*، تالاندييه، 2024. 35. مقتبس في المرجع نفسه، ص. 196. 36. مقتبس في ر.

براغ، *سور الإسلام*، الفصل. 7، "Lebut dernier de l'Islam" الصفحات 150-167. 37. جان جاك روسو، *أحاديث حول أصل عدم المساواة*، *أحاديث في العلوم والفنون*، غارنييه فلاماريون، 1992. 38. أ. معلوف، *الصليبات ترى من خلال العرب*. تمت إضافة التأكيد. 39. كورنيليوس كاستورياديس وإدغار مورين، "مناظرات: بعد حرب الخليج – فترة ما بعد حرب الخليج كما يراها كورنيليوس كاستورياديس وإدغار مورين – بين الفراغ الغربي والأسطورة العربية". أجرى المقابلة ج.-م. كولومباني، لوموند، 19 مارس 1991. 40. مقتبس في أ. معلوف، الحروب الصليبية كما يراها العرب. ٤١. إيان هامل، "طارق رمضان: ضربة أخيرة قبل النسيان"، ماريان، ١٢ أبريل ٢٠٢١. ٤٢. مارك فيرو، كيف يُروى التاريخ للأطفال حول العالم، بايو، ١٩٨١. ٤٣. سي. كاستورياديس وإي. مورين، "مناظرات: ما بعد حرب الخليج"، مقال مُشار إليه. ٤٤. إف. ميشو، بدايات الإسلام. ٤٥. إم. كوك وبي. كرون، الهاجرية. ٤٦. إف. ميشو، بدايات الإسلام. ٤٧. صوفي بيسيس، "الحضارة اليهودية المسيحية"ـ "تشريح الخداع"، الروابط

المحررة، 2025. 48. ف. ميشو، بدايات الإسلام. 49. فرانسوا ديروش، القرآن، تاريخ تعددي - مقال عن تكوين النص القرآني، باريس، سوي، "كتب العالم الجديد"، 2019. 50. ر. مانتران، التوسع الإسلامي، الجزء الثاني، الفصل 3، "الأمويون: الإمبراطورية العربية"، ص 119-147. 51. برنارد لويس، اليهود في أرض الإسلام، ترجمة جاكلين كارنو من الإنجليزية، كالمان-ليفي، 1986. 52. ر. مانتران، التوسع الإسلامي، الجزء الثالث، الفصل 3، "المجتمع العربي الإسلامي"، ص 253-274. 53. فنسنت سيتو، "ذروة الفكر الحر". في الإسلام،" لو فيلوسوفوار، العدد 47(1)، 2017، ص 51-75. 54. نقلاً عن ملحم شكر، "الزندقة والتوحيد: جدليات ونقد"، في المرجع نفسه، الزندقة والزنديك في الإسلام في القرن الثاني للهجرة، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1993. 55. ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا، ص 60. 56. روبرت سي. ديفيس، عبيد مسيحيون، سادة مسلمون، بالغراف ماكميلان، 2003؛ ويليام جيرفاس كلارنس سميث، الإسلام وإلغاء الرق، مطبعة جامعة أكسفورد، 2006، ص 13. 57.

ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا، الفصل 2. 58. بول تشارلز دومينيك (محرر)، الرحالة العرب. 59. برنارد لويس، «العرب قبل الغرب: مصادر الاستياء»، لو ديبا، 1992، العدد 68، الصفحات 89-100. 60. جان بيير فيليو، *وسط العوالم: تاريخ علماني للشرق الأوسط من عام 395 إلى الوقت الحاضر*، لو سوي، 2021. 61. غابرييل مارتينيز غروس، *على الجانب الآخر من الحروب الصليبية*، باسيه/كومبوزيه، 2021. 62. انظر برنامج *يا له من عصر!*، فرانس 2، 5 أكتوبر 2024، وبرنامج فرانس إنتر الصباحي، 7 أكتوبر 2024. 63. أندريه ميكيل، بالتعاون مع هنري لورانس، «المماليك والمغول من منتصف القرن الثالث عشر إلى فجر القرن الخامس عشر»، في المرجع نفسه، *الإسلام وحضارته*، أرماند كولين. الطبعة السابعة، ٢٠٢٣، الصفحات ١٩٢-٢٢١. ٦٤. رفيق هياهمزيزو، "معجزة تاريخية: اعتناق المغول للإسلام"، Oumma.com، ١٥ مايو ٢٠٢٤. ٦٥. إيلودي فيغورو، "كيف استولى تيمورلنك على حلب عام ١٤٠٠/٨٠٣"، حوليات الدراسات الإسلامية، ٥٥ | ٢٠٢١، الصفحات ٣٠٣-٣٢٥.

٦٦. ستيفن بينكر، ملائكة طبيعتنا الأفضل: تاريخ العنف وانحساره، ترجمة دانيال ميرسكي، دار ليه أريناس، ٢٠١٧. ٦٧. يوجين روغان، تاريخ العرب، ترجمة ميشيل بيسيير، دار بيرين، ٢٠١٦، الفصل "من القاهرة إلى إسطنبول"، الصفحات ٢٩-٦٤. ٦٨. مقتبس في المرجع نفسه. ٦٩. كامل داود، استقلالي: سجلات ٢٠١٠-٢٠١٦، آكت سود، ٢٠١٧. ٧٠. فاليري أسان، المجامع اليهودية في الجزائر في القرن التاسع عشر: "تحالف الحضارة والدين"، أرماند كولين، ٢٠١٢، الفصل "ما مكانة اليهود في المجتمع الاستعماري الناشئ؟"، الصفحات ٢٧-٦٠. ٧١. هـ. بوزارسلان، تاريخ تركيا، الفصل ٦، "عبد الحميد الثاني أو إعادة اختراع إمبراطورية"، الصفحات ١٦٩-٢٠٨. ٧٢. كارولين فينيت، "الجزائر: هل يمكننا حقًا مقارنة الاستعمار الفرنسي بالاحتلال العثماني؟"، لا كروا، ٥ أكتوبر ٢٠٢١. انظر مساهمة جيل مانسون. ٧٣. ألبرت حوراني، *تاريخ الشعوب العربية*، سوي، "نقاط histoire"، 1993. 74. تشارلز أندريه جوليان، *تاريخ أفريقيا الشمالية، أصوله إلى 1830*، بايوت، الطبعة الثالثة، 1994، ص 658. 75.

تحرير باسكال بوريسي وآخرون، *تاريخ الإسلام من 1453 إلى يومنا هذا*، أرماند كولن، 2018، الفصل 3 "المغرب في القرن الثامن عشر"، الصفحات 179-187. 76. المرجع نفسه 77. شارل أندريه جوليان، *تاريخ أفريقيا الشمالية*، بايوت، 1930. 78. صوفي بيسيس، *تاريخ تونس في قرطاج. جورس*، تالاندييه، 2019، الفصل 6، "حكم تونس حتى عام 1830"، الصفحات 155-204. 79. لويس فريدريك، الهند في الإسلام، أرثود، 1989، الفصل 17، "تفكك الإمبراطورية"، الصفحات 237-247. 80. إيان ووكر، جزر في بحر عالمي: تاريخ جزر القمر، مطبعة جامعة أكسفورد، 2019. 81. رشيد رضا، "الخلافة أو الإمامة العليا" [1922]، تحرير هنري لاوست، المعهد الفرنسي بدمشق، 1938. 82. "للمسلمين الحق في قتل ملايين الفرنسيين: جدل بعد تصريحات رئيس الوزراء الماليزي السابق"، لو باريزيان، 29 أكتوبر 2020. 83. فرانز فانون، بشرة سوداء، أقنعة بيضاء [1952]، ميديا ديفيوزيون، 2015. 84. جيه-إف. سولنون، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، الفصل 7، "بين عالمين"،

الصفحات 187-226. 85. ناتاشا أوكمان، النوع الاجتماعي والاستشراق، ترجمة ك. أنتونوفيتش، منشورات يو جي إيه، 2020، الفصل "صعود النظرة الأنثوية: مشاهد الحريم"، الصفحات 137-176. 86. روبرت كابلان، "فقط في الغرب يعتذر الناس عن ماضيهم الإمبراطوري"، لو بوان، 25 يونيو 2022. 87. حورية بوتلدجا، البيض واليهود ونحن: نحو سياسة الحب الثوري، منشورات لا فابريك، 2018. 88. مقتبس في بي. تشارلز-دومينيك (محرر)، الرحالة العرب. 89. سبيروس فريونيس، تراجع الهيلينية في العصور الوسطى في آسيا الصغرى وعملية الأسلمة من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر، مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1971. 90. جين هاثاواي، الأراضي العربية تحت الحكم العثماني: 1516-1800، روتليدج، 2019، ص. 38. 91. مارك فيرو، *تاريخ الاستعمار: غزوات الاستقلال*، لو سيويل، 1994. 92. جاي إل سبولدينج، "مصير ألوديا"، *مجلة ترانس أفريكان للتاريخ*، المجلد. 4، لا. 1/2، 1974، ص 26-40. 93. أميلي شيكرون، *غزو إثيوبيا: جهاد في القرن السادس عشر*،

إصدارات CNRS، "زينة"، 2023. 94. ل. فريديريك، *L'Inde de l'Islâm*، الفصل. 15، "الإسلام الصارم في أورنجزيب"، الصفحات من 213 إلى 224. 95. ج.-ف. سولون، *الإمبراطورية العثمانية وأوروبا*، الفصل. 9، "L'impossible quête de la Pomme d'or،" الصفحات 259-295. 96. إيف بوماتي، العصر الذهبي لبلاد فارس. الصفويون: 1501-1722، بيرين، 2023، الفصل. 13، "النهاية المأساوية لملحمة"، ص 321-336. 97. غاندا سينغ، أحمد شاه دوراني: أبو أفغانستان الحديثة، آسيا دار النشر، ١٩٥٩. ٩٨. حمادي رديسي، ميثاق نجد: أو كيف أصبح الإسلام الطائفي إسلامًا، لو سوي، "لون الأفكار"، ٢٠١٣. ٩٩. رضا موافي، الرق وتجارة الرقيق ومحاولات إلغائه في مصر والسودان ١٨٢٠-١٨٨٢، دار هيومانيتيز برس، ١٩٨٥. ١٠٠. فيكتور شولشر، يوميات رحلة في مصر [١٨٤٤]، ميركور دو فرانس، ٢٠١٧. ١٠١. بول إي. لوفجوي، "إمبراطوريات الجهاد في غرب إفريقيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، كراسات التاريخ. مجلة التاريخ النقدي، ١٢٨ | ٢٠١٥، ص ٨٧-١٠٣. ١٠٢. يان هوغندورن

وبول لوفجوي، الموت البطيء 103. فينسنت هيريبارين، "خلافة سوكوتو"، في فرانسوا-كزافييه فوفيل وإيزابيل سورون (محرران)، الأطلس التاريخي لأفريقيا، أوذروايز، 2019، ص 54-55. 104. بول لوفجوي، "أثر تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي على أفريقيا: مراجعة للأدبيات"، مجلة التاريخ الأفريقي، 30، 1989، ص 365-394، هنا ص 392. 105. بول لوفجوي، "رؤية ميلر لميلاسو"، المجلة الدولية للدراسات التاريخية الأفريقية، 24، 1، 1991، ص 133-145، هنا ص 143. 106. فينسنت هيريبارين، "أفريقيا: الذاكرة الحية لخلافة عثمان دان فوديو"، مقابلة مع بيير برييه، أورينت XXI، 23 يناير 2020. 107. كامل داود، "لماذا لا تُعتبر حركة الصحوة 'عربية'؟" لو بوان، ١١ مارس ٢٠٢٣. ١٠٨. دومينيك دو فيلبان، فرانس إنتر، ١٥ يناير ٢٠٢٤، لا غراند ماتينال. ١٠٩. القرآن الكريم، سورة ٣، الآية ١١٠. ١١٠. "مبادئ الخميني السياسية والفلسفية والاجتماعية والدينية"، مقتبس في كوليكتيف، تاريخ أسلمة فرنسا: أربعون عامًا من الخضوع، لارتليور، ٢٠٢٠. ١١١. مقتبس في عمر فيرتات، الآخر وتمثيلاته.

١١٢. فرانسوا رينيه دو شاتوبريان، مذكرات ما وراء القبر، الجزء الثاني، الكتاب الثامن عشر.
١١٣. إي. دبليو. سعيد، الاستشراق، ص ١٩٩.
١١٤. حنيفة جوفين، "وصف يرميسكيز جلبي محمد أفندي للبلاط الفرنسي واستقباله". "في الإمبراطورية العثمانية: الانقسامات الثقافية والقضايا الاجتماعية،" في كارولين زوم كولك وآخرون (محررون)، المسافرون الأجانب في بلاط فرنسا، 1589-1789، المطابع الجامعية في رين، 2014. 115. ر. الطهطاوي، ذهب باريس: رحلة. 116. مقتبس في برنارد لويس، عودة الإسلام، ترجمة ج. شالياند، غاليمار، "فكرة الحرية"، 1985. 117. مقتبس في المرجع نفسه، 118. خليفة الشاطر، "تصور "الآخر" في مصر وتونس في القرن التاسع عشر: ظهور نموذج جديد"، دفاتر البحر الأبيض المتوسط، 66 | الجبرتي، نابليون في مصر: وقائع الاحتلال الفرنسي للجبرتي، 1798، ترجمة شموئيل موريه، ماركوس وينر، 1993، ص 1. 120. الجبرتي، تاريخ مصر 3.69، نقلاً عن ألاستير هاميلتون، الأقباط والغرب، 1439-1822: الاكتشاف الأوروبي للكنيسة المصرية، مطبعة جامعة أكسفورد، 2006، ص 276.

121. فاروق بيليجي، "الثورة الفرنسية في التأريخ التركي (1789-1927)"، حوليات الثورة الفرنسية التاريخية، العدد 286، 1991، ص 539-549. 122. نقلاً عن ب. لويس، كيف اكتشف الإسلام أوروبا. 123. ألكسندر إمبيريكوس، حياة ومؤسسات الشعب اليوناني تحت الحكم العثماني، الفكر العالمي، ١٩٧٥. ١٢٤. أنجيلوس دالاخانيس، "الاعترافات والأقليات"، في ليلى دخلي (محررة)، الشرق الأوسط: أواخر القرن التاسع عشر - القرن العشرين، سوي، ٢٠١٦، ص ٧٣-٩٨. ١٢٥. مقتبس في هـ. بوزارسلان، تاريخ تركيا، الفصل ٥، "إعادة تنظيم الدولة: التنظيمات"، ص ١٣٩-١٧٣. تم إضافة التأكيد. ١٢٦. جوزيف يعقوب، من سيتذكر؟: ١٩١٥: الإبادة الجماعية الآشورية الكلدانية السريانية، منشورات سيرف، ٢٠١٦؛ سيرفان جوليفيه، "التاريخ الفريد للجالية اليونانية البنطية"، في ميشيل إسباني وآخرون (محررون)، جبل اللغات والشعوب، ديموبوليس، ٢٠١٩، ص. ٢٢٣-٢٤٠. ١٢٧. مارك ر. كوهين، تحت الهلال وتحت الصليب: اليهود في العصور الوسطى، ترجمة جان بيير ريكارد، سوي، سلسلة "الكون التاريخي"، ٢٠٠٨. ١٢٨.

ديفيد غيراود على قناة BFM TV، ٢٤ يونيو ٢٠٢٤. ١٢٩. جورج بنسوسان، اليهود في الأراضي العربية: الاقتلاع الكبير ١٨٥٠-١٩٧٥، تالاندييه، ٢٠١٢. ١٣٠. بيير لوتي، في المغرب [١٨٩٠]، فلاماريون، ٢٠١٧. ١٣١. جويل ألوش-بينايون، "مخاطر تجنيس اليهود الجزائريين: من ذمي إلى مواطن"، في بيير جان لويزارد (محرر)، الصدمة الاستعمارية والإسلام، لا ديكوفيرت، ٢٠٠٦، ص ١٧٩-١٩٥. ١٣٢. كلود نتاف، "مطالبة يهود تونس بالجنسية الفرنسية (١٨٨١-١٩٣٩)"، في أموري لورين (محرر)، تاريخ جديد للاستعمارات الأوروبية (القرنين التاسع عشر والعشرين): المجتمعات، الثقافات، السياسة، مطبعة جامعة فرنسا، ٢٠١٣، ص ١١٧-١٢٨. ١٣٣. ميشيل أبيتبول، ماضي الخلاف: اليهود والعرب منذ القرن السابع، بيرين، "تيمبوس"، ٢٠٠٣. ١٣٤. أوليفييه غرينويو، المسيحية والعبودية، غاليمار، "مكتبة التاريخ"، ٢٠٢١. ١٣٥. مارسيل إيميريت، "إلغاء العبودية"، في المرجع نفسه (محرر)، ثورة ١٨٤٨ في الجزائر، منشورات لاروز، ١٩٤٩، ص ٢٩-٤٢. ١٣٦. لم تُذكر الجهود الأوروبية الرامية إلى إنهاء تجارة الرقيق في المجتمعات

الإسلامية والأفريقية في أيٍّ من كتب تولان *التاريخ الجديد للإسلام*، أو فيليو *وسط العوالم*، أو بوكيه *لماذا الإمبراطورية العثمانية*، أو باتريك بوشرون *التاريخ العالمي لفرنسا*. كما أن ما يُسمى بالأدب "المناهض للاستعمار" (سعيد، فانون، سيزير) لا يتطرق إطلاقًا إلى هذه الأحداث. ومن المثير للدهشة أن حتى الأعمال التي تهدف إلى "وضع حدٍّ للتوبة الاستعمارية" (دانيال لوفيفر) لا تذكر شيئًا عن هذه المساعي. ١٣٧. شوقي الحامل، *إسكات الماضي*، شبكة الجزيرة، جدلية، ٢٠١٨ (فيلم وثائقي). ١٣٨. ك. ف.، "بطولة الجيش البلجيكي تقضي على تاجر الرقيق العربي: نصب الكونغو التذكاري في سينكوانتينير" «مثير للجدل من جانبين»، RTBF، 12 يونيو 2020. 139. إي. أ. بيليايف، العرب والإسلام والخلافة العربية في أوائل العصور الوسطى، ترجمة أ. غوريفيتش من الروسية، دار بال مال للنشر؛ فريدريك أ. براغر، 1969، ص 115. 140. برنارد لويس، «المساواة الاجتماعية»، في عودة الإسلام، ترجمة ت. جولاس ود. بولم، غاليمار، 1985. 141. آن-شارلوت مارتينو (محررة)، تجارة

الرقيق كما تراها مدرسة سالامانكا، القرن
السادس عشر، باريس، معهد الدراسات
والبحوث في القانون والعدالة، 2023. 142.
إريك ج. تشاني، «قياس التراجع العسكري
للعالم الإسلامي الغربي: أدلة من فدية
البربر»، استكشافات في التاريخ الاقتصادي،
58، 2015، ص. 107–124. 143. ويليام
س.سميث، مذكرات حول ضرورة ووسائل
إنهاء قرصنة دول البربر، لندن، 1814. 144.
إعلان الدول بشأن الإلغاء الكامل والعالمي
لتجارة الرقيق في أفريقيا، 8 فبراير 1815.
145. مارك أورتولاني، "الأجانب يُنظر إليهم
كتهديد: مسألة البربر في دول سافوي
وتسويتها الدبلوماسية في بداية القرن التاسع
عشر"، في المرجع نفسه وآخرون، اندماج
الأجانب والمهاجرين في دول سافوي منذ
العصر الحديث، سير، 2019، ص 275-295.
146. م. إميريت، "إلغاء الرق"، مرجع سابق.
147. المرجع نفسه. ١٤٨. ورد في ياسين
دادي عدون، إلغاء الرق في الجزائر: ١٨١٦-
١٨٧١، أطروحة، جامعة تورنتو، أبريل ٢٠١٠.
١٤٩. المرجع نفسه. ١٥٠. ورد في برنارد
لويس، العرق والرق في الشرق الأدنى، ترجمة

روز سانت جيمس، غاليمار، ١٩٩٣. ١٥١. ورد في موراي غوردون، الرق في العالم العربي [١٩٨٧]، ترجمة كوليت فليريك، تالاندييه، ٢٠٢٢. ١٥٢. رحال بوبريك، "الوسطاء وتجار الرقيق في المغرب في ظل الاستعمار الفرنسي"، هيسبيريس تامودا ٥٧، العدد ١ (٢٠٢٢): ٣٤٣-٣٦٨. ١٥٣. ورد ذكره في: ي. هاكان إردم، العبودية في الإمبراطورية العثمانية وزوالها، ١٨٠٠-١٩٠٩، دار ماكميلان للنشر، ١٩٩٦، ص ٦٩. ١٥٤. أ. بيتري-غرينويو، الرسائل الزنجية، ص ٣٧١. ١٥٥. ورد ذكره في: و. ج. كلارنس-سميث، الإسلام وإلغاء العبودية، ص ١٦٧. ١٥٦. مايكل سلمان، حرج العبودية: جدل حول الاستعباد والقومية في الفلبين الاستعمارية الأمريكية، دار أتينيو دي مانيلا للنشر، ٢٠٠١. ١٥٧. يحيى ولد البراء، "علماء الدين الموريتانيون في مواجهة الاستعمار الفرنسي: دراسة لفتاوى الفقه الإسلامي"، في: ديفيد روبنسون وجان لويس تريو (محرران)، زمن المرابطين. مسارات واستراتيجيات إسلامية في غرب أفريقيا الفرنسية 1880-1960، كارثالا، 1997، ص 83-117. 158. ورد ذكره في دبليو جي كلارنس سميث، الإسلام وإلغاء

العبودية، ص 159. 159. فرانز فانون، معذبو الأرض، ص 280. 160. ورد ذكره في دبليو جي كلارنس سميث، الإسلام وإلغاء العبودية، ص 123. 161. إدموند مايستري (محرر)، العبودية والإلغاء في المحيط الهندي (1723-1860)، لاهرماتان؛ جامعة ريونيون، ٢٠٠٢. ١٦٢. هنري ميدار، "أقدم وأحدث تجارات الرقيق: لمحة عامة عن تجارة الرقيق والرق في شرق أفريقيا والمحيط الهندي"، في هنري ميدار، ماري لور ديرات، توماس فيرنيه، وماري بيير بالارين (محررون)، تجارة الرقيق والرق في شرق أفريقيا والمحيط الهندي، كارثالا؛ سيريسك، ٢٠١٣، ص ٦٥-١١٨. ١٦٣. بهناز أ. ميرزاي، تاريخ الرق والتحرر في إيران، ١٨٠٠-١٩٢٩، مطبعة جامعة تكساس، ٢٠١٧، ص ١٣٩-١٤٠ (ترجمتي). ١٦٤. ي. هـ. إردم، الرق في الإمبراطورية العثمانية. ١٦٥. إيهود ر. توليدانو، تجارة الرقيق العثمانية وقمعها، ١٨٤٠-١٨٩٠، مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٢. ١٦٦. مقتبس في ي. هـ. إردم، الرق في الإمبراطورية العثمانية، ص ١١٣. ١٦٧. مقتبس في المرجع نفسه، ص ٦٩. باسينجستوك، المملكة المتحدة: مطبعة ماكميلان، ص ٦٠. ١٦٨. و. ج.

كلارنس سميث، الإسلام وإلغاء الرق، ص ٢١٨. ١٦٩. إلغاء الرق في تونس ١٨٤١-١٨٤٦، اليونسكو، ٢٠١٧. ١٧٠. إيناس مراد دالي، "من العبودية إلى الاستعباد"، كراسات الدراسات الأفريقية، ١٧٩-١٨٠ | ٢٠٠٥، ص ٩٣٥-٩٥٦.

4- التقدميون والبرابرة النبلاء

1. الأكاديمية الفرنسية، خطاب قبول الماركيز دي كوندورسيه، 21 فبراير 1782. 2. ستيفان زفايغ، عالم الأمس: ذكريات أوروبي [1948]، ترجمة جان بول زيمرمان، جمهورية الآداب، 2022. 3. أحمد عاطف أفندي، ريس الكتاب، نقلاً عن برنارد لويس، الإسلام والعلمانية، ترجمة فيليب ديلامار، فايارد، 1988، ص 64-65. 4. جان فرانسوا سولنون، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، الفصل 15، "انفتاح خجول على الغرب"، ص 447-486. 5. فريدريك إنجلز، رسالة إلى كارل ماركس، 7 أكتوبر 1858. تم إضافة التأكيد. ٦. لويس دي جوكور، "أوروبا"، في موسوعة أو قاموس العلوم والفنون والحرف (١٧٥١). ٧. غوستاف فلوبير، مراسلات إلى لويس بوييه، ١٩ ديسمبر ١٨٥٠. ٨. نورمان أنجيل، الوهم الكبير: دراسة لعلاقة القوة العسكرية بالميزة الوطنية، جي. بي.

بوتنام وأولاده، ١٩١٠. ٩. ستيفان زفايغ، عالم الأمس. ١٠. فرانسوا فوريه، زوال وهم: مقال عن الفكرة الشيوعية في القرن العشرين، روبرت لافون؛ كالمان-ليفي، ١٩٩٥. ١١. مقتبس في إميليو جنتيلي، نهاية الحداثة: الحرب العظمى والإنسان الجديد [١٩١٨]، ترجمة. بقلم ستيفاني لانفرانشي، أوبيير، 2011. 12. إيمي سيزار، خطاب حول الاستعمار، الحضور الأفريقي، 1955. 13. كريستوفر كولومبوس، اكتشاف أمريكا، عبر. بقلم سوليداد استوراتش وهيلين سيكسوس، مجلدان، فرانسوا ماسبيرو، 1979. 14. ميشيل دي مونتين، "من أكلة لحوم البشر". 15. كلود ليفي شتراوس، "في زورق"، في Tropiques Tristes، ترجمة. بقلم جون ودورين ويتمان، بلون، 1955. تمت إضافة التأكيد. 16. إدوارد جيبون، تاريخ تراجع وسقوط الإمبراطورية الرومانية، ستراهان وكاديل، ١٧٧٦، المجلد. 1، الفصل. ٣. ١٧. باسكال بروكنر، بكاء الرجل الأبيض: العالم الثالث، الذنب، كراهية الذات، سوي، ١٩٨٣؛ المرجع نفسه، طغيان التوبة: مقال عن المازوخية الغربية، غراسيه، ٢٠٠٦. ١٨.

فريدريك شيلر، "ما هو التاريخ العالمي ولماذا ندرسه؟"، في الأعمال الفلسفية والجمالية، ترجمة روبرت ليرو، هيرمان، ٢٠٠٥. ١٩. سالفيان المارسيلي، الأعمال، المجلد ٢، "في حكم الله"، تحرير وترجمة جورج لاغاريغ، منشورات سيرف، سلسلة "مصادر مسيحية" رقم ٢٢٠، ١٩٧٥. تم إضافة التأكيد. 20. جايل فياس، “أسس العمل الخيري في الرواقية الجديدة، حالتان ملموستان: العبودية وقتال المصارعة”، الدراسات الفلسفية، 2002/4 رقم 63، 2002، ص 527-547؛ جيراسيموس سانتاس، "الشرعية والعدالة والمرأة في جمهورية وقوانين أفلاطون"، Revue française d’Histoire des Idées politiques، 2002/2، العدد 16، الصفحات من 309 إلى 330؛ بلاندين كولوت، "من الاسم المسيحي إلى الاسم الأول: الحق في أن تكون مسيحياً، من ترتليان إلى لاكتانتيوس"، في فرانسواز دافييت تايلور ولوران جورميلين (محرران)، La Personne et son nom، Presses universitaires d'Angers، الصفحات من 57 إلى 74، 2009؛ فريديريك راميل، “دانتي، 1265-1321”، فلسفة

العلاقات الدولية، مختارات، Presses de Sciences Po، 2022، ص 43-52. 21. آلان كيليان، السياسة الإسلامية في غرب أفريقيا الفرنسية، باريس، لاروز، 1910. 22. ريمي براغ، عن الإسلام، الفصل. 1، "حول الإسلاموفوبيا"، الصفحات 13-27. 23. إي دبليو سعيد، الاستشراق، ص. ٦. ٢٤. إريك كونان، "حتى اليوم"، مجلة ليكسبريس، ٤ أبريل ٢٠٠٦. ٢٥. جمال الدين الأفغاني، "رسالة حول الإسلام السياسي"، مذكور. ٢٦. ميشيل ويلبيك، منصة، فلاماريون، ٢٠٠١، ص ٢٦٠. ٢٧. غيوم داي، "مجموعة القرآن: السياق والتكوين"، في محمد علي أمير معزي وغيوم داي (محرران)، تاريخ القرآن: السياق، الأصل، التحرير، منشورات سيرف، ٢٠٢٢، ص ٧٣٣-٨٤٦. ٢٨. الجاحظ، مقتطف من كتاب الأخبار وكيف تصحح، في شارل بيلا (محرر)، "الأمم المتحضرة والمعتقدات الدينية"، المجلة الآسيوية، المجلد ٢٥٥، ١٩٦٧، الصفحات ٦٥-١٠٥. التشديد مضاف. ٢٩. جان بوتيرو وماري جوزيف ستيف، مقدمة إلى الشرق القديم: من سومر إلى الكتاب المقدس، سوي، ١٩٩٢. ٣٠. ف. ميشو، بدايات الإسلام، الفصل "السيرة

الذاتية المستحيلة لمحمد". ٣١. ابن هشام، سيرة النبي محمد، ترجمة وتعليق وهيب عطا الله، فايارد، ٢٠٠٤. ٣٢. جيلبرت داغرون وفينسنت ديروش، اليهود والمسيحيون في الشرق البيزنطي، مركز التاريخ والحضارة البيزنطية، ٢٠١٠، ص ٢٣٠. ٣٣. أبراهام غايغر، اليهودية والإسلام، ترجمة ف.م. يونغ، مطبعة MDCCL، ١٨٩٨. ٣٤. أنجليكي إي. لايو (محررة)، الرضا والإكراه على ممارسة الجنس والزواج في المجتمعات القديمة والوسيطة، مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٨، ص ١٢٢. ٣٥. دبليو. مونتغمري وات، محمد، ترجمة فرانسوا دورفيل، سولانج ماري غيليمين، وفرانسوا فودو، بايو، ٢٠١٧، ص. 614. 36. كلود ليفي شتراوس، "زيارة كيونغ،" في Tristes Tropiques، بلون، 1955. 37. سابرينا ميرفين، تاريخ الإسلام. المؤسسات والمذاهب، فلاماريون، 2016، الفصل الأول. 4، "Le droit islamique et sa méthodologie (الفقه وأصول الفقه)"، ص 79-99. 38. كريستيان ج. روبن، "L'Arabie à la Veille de l'islam dans l'ouvrage de عزيز العظمة، ظهور الإسلام في العصور القديمة

المتأخرة،” توبوي، المجلد 21/1، 2017، ص 291-320. ٣٩. إيلكا ليندستيدت، "القرآن وممارسة وأد البنات المفترضة قبل الإسلام"، مجلة الرابطة الدولية لدراسات القرآن، المجلد ٨، العدد ١، ٢٠٢٣، ص ١١-١٢. ٤٠. منى صمدي، تعزيز الوضع القانوني للمرأة في الشريعة الإسلامية، بريل، ٢٠٢١، ص ٦٨. ٤١. المرأة العربية قبل الإسلام (https://al-kalam.fr/islamica/lislam-et-la-femme/). ٤٢. سابينا أنتونيني دي مايغريت وكريستيان ج. روبن، "المرأة العربية الجنوبية وسياقها الاجتماعي"، ساميتيكا إت كلاسيكا، المجلد ١١، ٢٠١٨، ص ٧٢. ٤٣. ليلى أحمد، المرأة والجندر في الإسلام: الجذور التاريخية لنقاش حديث، مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٣، ص. 37.

5- الرجعيات والاستبداد

1. سابرينا ميرفين، تاريخ الإسلام، الفصل 10، "تيارات الفكر في الإسلام المعاصر"، الصفحات 207-229. 2. جوسلين دخليا، "إجماع على الانحدار"، في جوسلين دخليا (محرر)، الدراسات الإسلامية، مطبعة جامعة فرنسا، 2005، الصفحات 65-86. 3. فريدريك

فانون، معذبو الأرض، الصفحات 55-56. 4. انظر الفصل 3. 5. أندريه لابيدوس، "الربح أم الهيمنة: صورة العبد في اقتصاديات آدم سميث"، في فريد سيلين وأندريه ليغريس (محرران)، اقتصاديات العبودية الاستعمارية، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي، 2002، الصفحات 47-72؛ مارك ثورنتون، "العبودية والربحية وآلية السوق"، مجلة الاقتصاد النمساوي، 7(2)، 1994، ص 21-47. 6. تيمور كوران، التباعد الطويل: كيف أعاق القانون الإسلامي تقدم الشرق الأوسط، مطبعة جامعة برينستون، 2011، ص 302. 7. جاك براسول وسيسيل لافرارد-ماير دي ليل، اقتصاديات التنمية: رهانات التنمية ذات البعد الإنساني، أرماند كولين، 2016، الفصل 2، "أسباب التخلف"، ص 54-101. ٨. فريدريك إنجلز، "اكتشافات غير عادية - عبد القادر - السياسة الخارجية لجيزو"، النجم الشمالي، ٢٢ يناير ١٨٤٨. ٩. كارل ماركس، "الهيمنة البريطانية في الهند"، في كارل ماركس وفريدريك إنجلز، حول الاستعمار في آسيا: الهند، بلاد فارس، أفغانستان، ألف ليلة وليلة، ٢٠٠٢. ١٠. ألبرت جيس، "تاريخ الطباعة في

مصر"، نشرة المعهد المصري، المجلد ٢، ١٩٠٨، ص ١٩٥-٢٢٠. ١١. الرحمن الجبرتي، نابليون في مصر، ص ١١٠. ١٢. عبد الرحمن الجبرتي، يوميات أحد وجهاء القاهرة خلال الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١، ترجمة وتعليق جوزيف كوك؛ مقدمة كتبها جان تولارد، ألبين ميشيل، 1979. 13. أنطوان جالاند، لوحة مصر في ظل استمرار الجيش الفرنسي: تسليط الضوء على سمات عادات المصريين واستخداماتهم وخصائصهم، متابعة الدولة العسكرية والمدنية لجيش المشرق، [Sl]، [سن]، [1799-1801]. 14. ابن خلدون، المقدمات المذكورة أعلاه، مقتبس في روجر لو تورنو، "ابن خلدون، مدح ومحتقر العرب"، Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée، رقم. 2، 1966، ص 155-168. ١٥. برنارد لويس، "مراقبون عثمانيون لانحدار الدولة العثمانية"، دراسات إسلامية، المجلد ١، العدد ١، ١٩٦٢، ص ٧١-٨٧. ١٦. ألبرت حوراني، عصر العالم العربي الليبرالي، أتلاند، ٢٠١٦. ١٧. ستيفان يراسيموس، "مستكشفو الحداثة: سفراء الدولة العثمانية في أوروبا"، جينيسيس، ٣٥،

١٩٩٩، ص ٦٥-٨٢. ١٨. بيكي هاليفا، "رحلة يرميسكيز جلبي محمد أفندي وتأثيرها"، تآزر تركيا، (٥)، ٢٠١٢، ص ٢٧-٣٩. ١٩. إبراهيم متفريكا، رسالة في التكتيكات أو طريقة اصطناعية لتنظيم القوات [١٧٦٩]، معهد الاستراتيجية المقارنة التابع لأكاديمية العلوم التركية، ٢٠١٨. ٢٠. جيه-إف. سولنون، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، الفصل ١٥، "انفتاح حذر على الغرب"، الصفحات ٤٤٧-٤٨٦. ٢١. رحلات الأمير الفارسي ميرزا أبو الطالب خان في آسيا وأفريقيا وأوروبا، تحرير تشارلز مالو، مطبعة بي-إف. دوبونت، ١٨١٩. ٢٢. أبو طالب خان. رحلات ميرزا أبو طالب خان في آسيا وأفريقيا وأوروبا خلال الأعوام 1799 و 1800 و1801 و1802 و1803، بقلم ر. واتس، بروكسبورن، 1810، ص 304. 23. رحلات الأمير الفارسي ميرزا أبو طالب خان. 24. كارتر ف. فيندلي، البيروقراطية المدنية العثمانية: تاريخ اجتماعي، مطبعة جامعة برينستون، 2014. 25. فرانسوا جورجون، "القراءة والكتابة في نهاية الإمبراطورية العثمانية: بعض الملاحظات التمهيدية"، مجلة العالم الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط،

العدد 75-76، 1995، ص 169-179؛ مارتين ليونز، انتصار الكتاب: تاريخ سوسيولوجي للقراءة في فرنسا في القرن التاسع عشر، Éditions du Cercle de la Librairie، 1987، "مقدمة: عصر الورق،" الصفحات 9-23. 26. ر. كوبمانز، Das Verfallene Haus des Islam، ص. 207. 27. مالك بن نبي، دعوة الإسلام، طبعات دو سيويل، 1954. 28. غوستاف فلوبير وماكسيم دو كامب، رحلة إلى الشرق (1849-1851)، آرتو، 2020، ص. 339. 29. فريديريك لوفيفر، "ساعة مع سيلفان ليفي،" في جاك باكوت (محرر)، نصب تذكاري سيلفان ليفي، بول هارتمان، 1937، ص. 123 وما يليها. 30. كريستوف جافريلوت، الهوية في الألعاب. السلطات، الهوية، التعبئة، كارثالا، 2010، الفصل. 3، "رام موهان روي، عالمي أم قومي؟: الهندوسية الجديدة، نتاج التقليد الاستراتيجي"، ص. 179-199. 31. المرجع نفسه. ٣٢. راجيش كوتشار، "إعادة النظر في كلية هندو كلكتا: تاريخها السابق ودور رام موهان روي"، وقائع المؤتمر التاريخي الهندي، ٧٢، ٢٠١١، ص ٨٤١-٨٨٦. ٣٣. بيير بروشو ودانيال هيمري، الهند الصينية،

استعمار ملتبس: ١٨٥٨-١٩٥٤، لا ديكوفيرت، ٢٠٠١، الفصل ٥، "التحولات الثقافية"، ص ٢١٣-٢٤٤. ٣٤. جيرار لوكلير، العولمة الثقافية: حضارات على المحك، مطبعة جامعة فرنسا، ١٩٩٩، الفصل ٢، "الإسلام والتغريب: من لقاء غير متكافئ إلى مواجهة"، ص ١٧١-١٩٦. ٣٥. ل. فريدريك، الهند الإسلامية، الفصل. 19، "Le sursautisme musulman"، ص 255-263. 36. المرجع نفسه، الفصل. 20، "La Ligue musulmane et la Partition de l'Inde"، الصفحات من 264 إلى 275. 37. بيير فيرميرين، فرنسا في أرض الإسلام. الإمبراطورية الاستعمارية والأديان، القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، بيلين، 2016، الفصل. 16، "طرد التجمعات في فرنسا يعيد القوة الكاثوليكية إلى بلاد الشام"، الصفحات 241-257. 38. المرجع نفسه، الفصل. 8، "المبشرون الكاثوليك في الخدمة الفرنسية في مصر ولبنان"، ص 119-133. 39. المرجع نفسه، الفصل. 16، "طرد التجمعات في فرنسا يعيد القوة الكاثوليكية إلى بلاد الشام"، الصفحات 241-257. 40. مقتبس في إيفون تورين، الصدامات الثقافية

في الجزائر المستعمرة، ص. 44. 41. مقتبس
في تشارلز روبرت أجرون، المسلمون
الجزائريون وفرنسا، المجلد. 1، 1968 ،PUF،
ص. 322. 42. ليلى هواري، زيادة من لا
مكان، الهرمتان، 1985. 43. مقتبس في علي
محمد تويبو، انتقال الإسلام في جزر القمر،
الهرمتان، 2008، ص. 49. 44. انظر الفصل
2. 45. مقتبس في فاليري أسان، المجامع
اليهودية في الجزائر، الفصل. 1. "ما هو مكان
اليهود في المجتمع الاستعماري الناشئ؟"، ص
27-60. 46. ميشيل أبيتبول، ماضي الخلاف،
"فتح الجزائر وخروج اليهود من التاريخ
الإسلامي للمغرب العربي"، بيرين، "تيمبوس"،
2003. 47. جورج بنسوسان، التحالف
الإسرائيلي العالمي (1860-2020): يهود
الشرق، تنوير الغرب، ألبين ميشيل، 2020،
ص 83. 48. المرجع نفسه، ص 300. 49.
مقتبس في ف. عسان، المجامع الإسرائيلية
في الجزائر، الفصل 9، "التجنيس والتحرر"،
ص 313-364. 50. تشارلز روبرت أجيرون،
الجزائريون المسلمون وفرنسا، المجلد 1. 2،
1968 ،PUF، "الرأي العام الإسلامي وحركة
الشباب الجزائري من 1900 إلى 1914"، ص

1025-1026. 51. مقتبس في إ. روغان، تاريخ العرب، الفصل. 8، "الإمبراطورية الفرنسية في الشرق الأوسط وفي أفريقيا"، الصفحات من 313 إلى 364. 52. ميشيل بيير، تاريخ الجزائر: أصولنا في أيامنا، تالانديه، 2025، ص. 269. 53.جيهان بن صالح، "التجنيس في الإمبراطورية الاستعمارية: قانون 20 ديسمبر 1923، وحماية تونس خلال فترة ما بين الحربين العالميتين"، مجلة التاريخ، 2021/4، العدد 152، ص 73-86. 54. نادين ميوشي، "إصلاح المناصب الدينية في سوريا ولبنان (1921-1939): أسباب سلطة الانتداب وأسباب الجماعات"، في بي. جيه. لويزارد (محرر)، الصدمة الاستعمارية والإسلام، ص 359-382. 55. باتريك ويل، "وضع المسلمين في الجزائر الاستعمارية: جنسية فرنسية منزوعة الهوية"، تاريخ العدالة، 2005/1، العدد 16، ص 93-109. ٥٦. برنارد لوغان، تاريخ شمال أفريقيا، منشورات دو روشيه، ٢٠١١، الجزء ٤، الفصل ٣، "بدايات الحقبة الاستعمارية"، ص ٣٥٩. ٥٧. ب. فيرميرين، فرنسا في أرض الإسلام، الفصل ١١، "إسلام رسمي في الجزائر في نهاية القرن التاسع

عشر"، ص ١٦٥-١٨٠. ٥٨. دانييل جونكرز، "المقاومة الأفريقية للاستراتيجيات الإسلامية الفرنسية في غرب أفريقيا (منطقة السودان-فولتايا)"، في ب. ج. لويزارد (محرر)، الصدمة الاستعمارية والإسلام، ص ٢٨٣-٢٩٩. ٥٩. فيرونيك ديمير، "العلمانية: منتج تصديري؟" ٦٠. دانيال ريفيت، "بعض الملاحظات حول سياسة ليوتي تجاه المسلمين في المغرب (١٩١٢-١٩٢٥)"، في بي. جيه. لويزارد (محرر)، الصدمة الاستعمارية والإسلام، ص ٢٥٥-٢٧٠. ٦١. بي. فيرميرين، فرنسا في أرض الإسلام، الفصل ٢٣، "تشويه صورة إسلام الأعيان وصعود السلفية في شمال أفريقيا"، ص ٣٦٥-٣٨١. ٦٢. مقتبس في علي مراد، الإسلام المعاصر [١٩٨٤]، مطبعة جامعة فرنسا، ٢٠٠٩، الفصل ٤، "موضوع "التخلف الإسلامي"، ص ٣٠-٤٠. ٦٣. يوسف القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، ٢٠٠٠. ٦٤. ماكسيم رودنسون، الماركسية والعالم الإسلامي، منشورات سوي، ١٩٧٢. ٦٥. ماكسيم رودنسون، إسرائيل والرفض العربي: ٧٥ عامًا من الصراع، سوي، ١٩٦٨، ص ٣١. ٦٦. مارك ميشيل، إنهاء الاستعمار وظهور العالم

الثالث، هاشيت إيدوكاسيون، ٢٠٠٥، الفصل ٥، "تدويل المسألة الاستعمارية"، ص ١٣١-١٥٣. ٦٧. إليزابيث أليس، الإسلام في الصين: إسلام في وضع أقلية، كارثالا، ٢٠١٢، الفصل. ٤، "منطقة شينجيانغ ذاتية الحكم: وضع استعماري؟"، الصفحات ١٢٩-١٤٨؛ أوليفييه هان، "روسيا ومسلموها"، في آن بينو وكريستوف ريفيار (محرران)، الجغرافيا السياسية لروسيا: منهج متعدد التخصصات، منشورات إس بي إم، ٢٠١٩. وكما أشار برنارد لويس، فإن اللامبالاة تجاه معاملة المسلمين في الصين أو روسيا قد تُعزى إلى حقيقة أن هذه الأنظمة لا تسمح بسهولة بانتقادها. ٦٨. لينين، الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية، المجلد السادس، ١٩١٦. ٦٩. جيل كيبل، الخروج من الفوضى: الأزمات في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، غاليمار، ٢٠١٨، الصفحة ٢١؛ لودفيج فون ميزس، الحساب الاقتصادي في نظام اشتراكي [١٩٢٠]، ترجمة. بقلم روبرت غوتز-غيري، معهد كوبيه، 2019. 70. مقتبس في سيسيل فايسي، سارتر والاتحاد السوفيتي، مطبعة جامعة رين، 2023، الفصل 10، "حرية النقد

مطلقة في الاتحاد السوفيتي"، الصفحات 153-166. 71. جان ماري كولومباني، "حقبة ما بعد حرب الخليج كما رآها كورنيليوس كاستورياديس وإدغار موران. بين الفراغ الغربي والأسطورة العربية"، لوموند، 19 مارس 1991. 72. انظر https://www.youtube.com/watch?v=_ZIqdrFeFBk (تم الاطلاع عليه في 4 سبتمبر 2025). 73. جيل كيبل، الخروج من الفوضى: الأزمات في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، غاليمار، 2018، ص. ٢١. ٧٤. أ. دالاشانس، "الاعترافات والأقليات"، المرجع المذكور. ٧٥. ألبرت ميمي، صورة العربي المسلم المتحرر من الاستعمار وبعض الآخرين، غاليمار، ٢٠٠٤. ٧٦. ج. كيبل، الخروج من الفوضى، ص ٣٤. ٧٧. برنارد روجييه (محرر)، الأراضي المحتلة للإسلاموية (طبعة موسعة)، مطبعة جامعة فرنسا، ٢٠٢١، ص ٣٩. ٧٨. س. بينكر، ملائكة طبيعتنا الأفضل. ٧٩. "لا تزال الحرية الشخصية محدودة في معظم أنحاء العالم الإسلامي"، مجلة الإيكونوميست، ٣٠ أغسطس ٢٠٢٠. ٨٠. مؤشر مدركات الفساد، ٢٠٢٤. ٨١. فريدريك ل. براير، "هل

الدول الإسلامية أقل ديمقراطية؟"، مجلة الشرق الأوسط الفصلية، العدد ١. 14، 2007، الصفحات 53-58. 82. ر. كوبمانز، البيت الإسلامي الساقط، صفحة 74. 83. المرجع نفسه، الفصل 3، "الجذور الدينية للحرية". 84. للاطلاع على فهرس الأمم المتحدة، انظر https://shorturl.at/zx9Sb؛ وللاطلاع على فهرس منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، انظر مؤشر المؤسسات الاجتماعية والمساواة بين الجنسين، SIGI 2023، التقرير العالمي للمساواة بين الجنسين في أوقات الأزمات؛ وللاطلاع على مؤشر المنتدى الاقتصادي العالمي، انظر المنتدى الاقتصادي العالمي، تقرير الفجوة العالمية بين الجنسين، يونيو 2025. 85. هيومن رايتس ووتش، الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: إنهاء القيود المفروضة على تنقل المرأة، يوليو 2023. 86. انظر https://www.girlsnotbrides.org/learning-resources/child-marriage-atlas/atlas/ (تم الاطلاع عليه في سبتمبر 2025). ٨٧. ريجينا جيمينياني وكوينتين وودون، "زواج الأطفال والانتماء الديني في أفريقيا جنوب

الصحراء: حقائق نمطية وتنوع"، مجلة مراجعة الدين والشؤون الدولية ١٣ (٣)، ٢٠١٥، ص ٤١-٤٧. ٨٨. انظر https://www.womanstats.org/maps.html؛ اليونيسف، ختان الإناث: مصدر قلق عالمي، تحديث ٢٠٢٤. ٨٩. ستيفن فيش، هل المسلمون متميزون؟: نظرة على الأدلة، مطبعة جامعة أكسفورد بالولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠١١. ٩٠. جوناثان فوكس، ممارسة الدين غير الحرة: دراسة عالمية للتمييز ضد الأقليات الدينية، مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠١٦. ٩١. جيلبرت أشقر، الماركسية، الاستشراق، العالمية، آكت سود، ٢٠١٥. ٩٢. أحمد ت. كورو، "لماذا يُعاقب على التجديف بالإعدام في بعض الدول الإسلامية؟"، "المحادثة"، ١٢ مارس ٢٠٢٠. ومع ذلك، يُبرئ المؤلف الإسلام من المسؤولية بسرعة كبيرة. ٩٣. ج. فوكس، ممارسة الدين غير الحرة. ٩٤. ر. كوبمانز، البيت المنهار للإسلام، ص ١٢١. ٩٥. ج. فوكس، ممارسة الدين غير الحرة، ص. ١٦٢. ٩٦. "الأقليات. في إسرائيل، ينضم قاضٍ مسلم إلى المحكمة العليا"، كورير إنترناشونال، ١٠ مايو ٢٠٢٢. للاطلاع على

متوسط العمر المتوقع، انظر: ر. كوبمانز، البيت المنهار للإسلام، ص ٣٠٠. للاطلاع على هجرة اليهود وطردهم من الأراضي العربية، انظر: يعقوب ميرون، "طرد اليهود من الأراضي العربية: الموقف الفلسطيني تجاه هذا الطرد والمطالبات التي تلته"، بارديس، ٢٠٠٣/١، العدد ٣٤، ٢٠٠٣، ص ١٠٧-١٥٧. ٩٧. ر. كوبمانز، البيت المنهار للإسلام، ص ١٢٤. ٩٨. ر. كوبمانز، البيت المنهار للإسلام، الفصل ٤، "حروب الأديان الإسلامية"، ص. ١٤٦. ٩٩. مؤشر الإرهاب العالمي، طبعات ٢٠١٤ إلى ٢٠٢٤. ١٠٠. دومينيك رينييه، الهجمات الإسلامية حول العالم ١٩٧٩-٢٠٢٤، مؤسسة الابتكار السياسي، ٢٠٢٤. ١٠١. انظر، على سبيل المثال، مقال فرهاد خسروخاور، الذي لم يجد ما يفعله سوى إلقاء اللوم على العلمانية الفرنسية بعد اغتيال صامويل باتي، بينما التزم الصمت حيال الإسلام، "دين العلمانية الخطير"، أورينت ٢١، ٥ نوفمبر ٢٠٢٠. ١٠٢. صامويل ب. هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي، أوديل جاكوب، ١٩٩٧، الفصل ١٠، "من الحروب الانتقالية إلى الحروب بين الحضارات". ١٠٣.

جيمس ل. باين، لماذا تتسلح الأمم، بلاكويل، ١٩٨٩. ١٠٤. هنتنغتون، صدام الحضارات، الفصل ١٠، "من الحروب الانتقالية إلى الحروب بين الحضارات". ١٠٥. هنتنغتون، صدام الحضارات، ص ٤٠٥. ١٠٦. معهد أبحاث السلام في أوسلو (PRIO)، اتجاهات الصراع: نظرة عامة عالمية، ١٩٤٦-٢٠٢٣، ورقة PRIO ٢٠٢٤. ١٠٧. دومينيك أفون، "قضية الرسوم الكاريكاتورية: التسلسل الزمني والسياق"، في المرجع نفسه (محرر)، الكاريكاتير في خطر السلطات السياسية والدينية، مطبعة جامعة رين، ٢٠١٠، ص ١٨٧-١٩٦. 108. ملاحظات الرئيس أوباما في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، 24 سبتمبر 2014. 109. R. Koopmans, Das Verfallene Haus des Islam، الفصل. 1، "Im Bann des Fundentalismus". 110. م. ستيفن فيش، هل المسلمون متميزون؟، الفصل. 6، "عدم المساواة الاجتماعية"، الصفحات 173-228. 111. ر. كوبمانز، Das verfallene Haus des Islam، الفصل. 5، “Die wirtschaftliche Stadnation der Islamischen Welt”. ١١٢. أكبر ١٠٠ شركة

عالمية من حيث القيمة السوقية، برايس ووترهاوس كوبرز، مايو ٢٠٢٥. ١١٣. نقلاً عن ناجي سفير، "المجتمعات الإسلامية تواجه تحديات العلم"، لوموند، ١٨ نوفمبر ٢٠١٠. ١١٤. علاوة على ذلك، فإن معظم الحائزين على جائزة نوبل من الدول الإسلامية قد سلكوا مسارات مهنية في مؤسسات غربية أو هاجروا إلى دول غربية. ١١٥. ر. كوبمانز، البيت الإسلامي الساقط، الفصل ٥، "الركود الاقتصادي للعالم الإسلامي". ١١٦. سيباستيان بلوك، جون دبليو إيمرسون، دانيال سي إستي، أليكس دي شيربينين، زاكاري ويندلينغ، وآخرون، مؤشر الأداء البيئي لعام ٢٠٢٤، مركز ييل للقانون والسياسة البيئية، ٢٠٢٤. ١١٧. ر. كوبمانز، البيت الإسلامي الساقط، الفصل ٥، "الركود الاقتصادي للعالم الإسلامي". ١١٨. "الدين والتعليم حول العالم"، مركز بيو للأبحاث، ١٣ ديسمبر ٢٠١٦. ١١٩. انظر بيانات الاستطلاع المجمعة على موقع Our World in Data الإلكتروني: https://ourworldindata.org/grapher/how-important-religion-is-in-your-life. ١٢٠. أ. ميمي، صورة المتحررين من

الاستعمار. ١٢١. في عام ٢٠١١، رأى المؤرخ والأستاذ في كوليج دو فرانس، هنري لورانس، أن قيم الحرية وحقوق الإنسان كانت أكثر بروزًا في الربيع العربي منها في أوروبا. انظر المرجع نفسه، "عام من الثورات في العالم العربي"، ليكسبريس، 28 ديسمبر/كانون الأول 2011. 122. "الإسلام كان أسرع الأديان نموًا في العالم من عام 2010 إلى عام 2020"، مركز بيو للأبحاث، 10 يونيو/حزيران 2025. 123. ألبرت ميمي، "المستعمِر والمستعمَر"، إسبريت، 250 (5، 1957)، ص 790-810.

6 - في هجوم العالم الحر

1. حول الشعور اليهودي بانعدام الأمن، انظر بنيامين ستورا، الوصول: من قسطنطين إلى باريس، 1962-1972، تالاندييه، 2023. 2. م. بيير، تاريخ الجزائر، الفصل 12، "الفوضى والأمل (1962-1965)". 3. ف. فانون، معذبو الأرض، ص. 7. 4. مقتبس في إي. روغان، *تاريخ العرب*، الفصل. 11، "تراجع القومية العربية"، ص 467-520. 5. مقتبس من جان بيرنباوم، *صمت ديني: وجه جهادي*، سيويل،

2016، الفصل. 2، "جيل جبهة التحرير الوطني – إعادة النظر في فترة تأسيسية غير معلنة." 6. دانييل جونكوا، "مقابلة مع السيد أحمد بن بيلا"، *لوموند*، 4 ديسمبر 1980. 7. نقلاً عن محمد حربي، *Le FLN، Mirage et Réalité. الأصول على جائزة القدرة (1945–1962)*، *شباب أفريقيا*، 1980، ص. 333. 8. بنيامين ستورا، *تاريخ الجزائر بعد الاستقلال*، 1. 1962-1988، لا ديكوفرت، 2004، الجزء الأول، "صيف 1962"، ص 7-18. 9. المرجع نفسه، الجزء الثاني، "جزائر بن بيلا (1962-1965)" ص 19-32. 10. الطاهر بن جلون، أعلى درجات العزلة: البؤس العاطفي والجنسي للمهاجرين من شمال أفريقيا، طبعات دو سيويل، 1977، مجموعة. وثائق النقاط، 1997. 11. خطاب جناح في مؤتمر رابطة المسلمين، 22-23 مارس، 1940. 12. ل. فريديريك، الهند الإسلامية، الفصل. ٢٠. "الرابطة الإسلامية وتقسيم الهند"، الصفحات ٢٦٤-٢٧٥. ١٣. "حققت سنغافورة نجاحًا اقتصاديًا باهرًا"، مجلة الإيكونوميست، ٨ مايو ٢٠٢٤. ١٤. م. بيير، تاريخ الجزائر، الفصل ١٢، "الفوضى والأمل"،

الصفحات ٢٣٩-٢٥٨. ١٥. باسكال بروكنر،
طغيان التوبة، الفصل ١، "بائعو الوصمة". ١٦.
ديورا، حجاب الصمت، لو ليفر دو بوش، ١٩٩٢.
١٧. جيل كيبل، ضواحي الإسلام: ميلاد دين في
فرنسا، سوي، ١٩٨٧. ١٨. مقتبس في إليزابيث
شيملا، الإسلام، المحنة الفرنسية، بلون، ٢٠١٣.
١٩. فرناند بروديل، "هوية فرنسا: في صف
التسامح"، هوم إيه ميغراسيون، العدد ١١٠٠،
فبراير ١٩٨٧، الصفحات ٢٥-٣٧. ٢٠. محمد
علي أمير معزي وجون تولان (محرران)، محمد
المؤرخين، لو سيرف، ٢٠٢٥. ٢١. تسليمة
نسرين، "هجوم سلمان رشدي يُخبر منتقدي
الإسلام أنهم لن يكونوا آمنين في أي مكان في
العالم"، لوموند، ١٩ أغسطس ٢٠٢٢. ٢٢. "٢٨٪
من المسلمين البريطانيين في استطلاع للرأي
يُريدون موت رشدي"، لوس أنجلوس تايمز، ٢١
أكتوبر ١٩٨٩. ٢٣. كريج ر. ويتني، "كات ستيفنز
يُؤيد الدعوة إلى قتل رشدي"، نيويورك تايمز،
٢٣ مايو ١٩٨٩. ٢٤. "رشدي يختبئ بعد تهديد
آية الله بالقتل"، الغارديان، ١٨ فبراير ١٩٨٩.
٢٥. خير الله أفندي ومجهول، رحلات إلى
الحداثة: عثمانيان في باريس ولندن في القرن
التاسع عشر، ترجمة. بقلم غول ميتي-يوفا،

آكت سود، 2015. 26. آلان غريش، الإسلام
والجمهورية والعالم، فايارد، 2004، ص 19.
27. سلمان رشدي وسام هاريس، "متروكين
للمتعصبين"، لوس أنجلوس تايمز، 9 أكتوبر
2007؛ سلمان رشدي، السكين: تأملات بعد
محاولة قتل، ترجمة. بقلم جيرار مودال،
غاليمار، 2024. 28. مقتبس في دوغلاس
موراي، الموت الغريب لأوروبا: الهجرة، الهوية،
الإسلام، بلومزبري كونتينوم، 2017. 29.
ريتشارد مالكا، الحق في إزعاج الله، غراسيه،
2021. 30. نيكولاس باستوك وعزيز زموري،
"العيش تحت التهديد الإسلامي"، لو بوان، 3
فبراير 2022. 31. جيل كيبل، النبي والجائحة:
من الشرق الأوسط إلى الجهادية الجوية،
غاليمار، 2021. 32. هوغو ميشيرون،
متخصص في الجهادية: "ربما يوجد في أوروبا
عدد أكبر من المتعاطفين مع الجهاديين مما
كان عليه الحال قبل عشر سنوات"، لوموند،
12 يناير 2025. 33. ميشيل ويلبيك، الخضوع،
فلاماريون، 2015. 34. إيمانويل برينر (محرر)،
الأراضي المفقودة للجمهورية. معاداة السامية
والعنصرية والتمييز الجنسي في المدارس،
طبعة جديدة موسعة، دار نشر ميل إيه أون

نوي، 2004. 35. جان بيير أوبين، علامات
ومظاهر الانتماء الديني في المدارس، 2004.
36. كاثرين رولو، "تشويه صورة محمد في
كتاب تاريخ للمدارس الإعدادية"، لوموند، 7
أبريل 2007. 37. ميلا، أنا ثمن حريتك،
غراسيه، 2021. 38. ستيفان سيمون، الأيام
الأخيرة لصامويل باتي، بلون، 2021. 39.
غيوم بوان وإليزابيث بيرسون، "دومينيك
برنارد، البطل "العادي"، ضحية الإرهاب
الإسلامي"، لو فيغارو، 19 أكتوبر 2023. 40.
جان بيير أوبين، المعلمون خائفون، منشورات
دي المرصد، 2023. 41. فرانسوا هولاند، في
جيرار دافيت وفابريس لوم، لا ينبغي للرئيس
أن يقول ذلك...: أسرار ولاية مدتها خمس
سنوات، ستوك، 2016. 42. هوغو ميشيرون،
الغضب والنسيان: الديمقراطيات في مواجهة
الجهادية الأوروبية، غاليمار، 2023، الفصل 2،
"من بيشاور إلى لندن، آلات الوعظ". 43.
رياضات بوت، "رئيس أساقفة يدعم تطبيق
الشريعة الإسلامية على المسلمين
البريطانيين"، صحيفة الغارديان، 7 فبراير
2018. 44. "المملكة المتحدة: تغريم مواطن
تركي لحرقه مصحفًا"، صحيفة لو فيغارو، 2

يونيو 2025؛ سيسيل دوكورتيو، "في المملكة المتحدة، الحكومة تتراجع عن موقفها وتطلق تحقيقًا وطنيًا في "عصابات الاستغلال الجنسي للأطفال"، لوموند، 16 يونيو/حزيران 2025. 45. هادريان ماثو، "أفادت التقارير أن لندن رفضت طلب لجوء آسيا بيبي خوفًا من "اضطرابات" إسلامية"، ماريان، 11 نوفمبر/تشرين الثاني 2018. 46. جان إيف كامو وريس، "بريطانيا العظمى. رجل ملتحٍ للسيطرة على التعليم"، شارلي إيبدو، 26 مارس/آذار 2025. 47. جانيت إيستام، "اتهام متظاهر يهودي بسبب لافتة تسخر من زعيم إرهابي"، التلغراف، 23 مايو/أيار 2025؛ تيم سيغسورث، "اعتقال رجل بسبب منشور على وسائل التواصل الاجتماعي مناهض لحماس"، التلغراف، 26 سبتمبر/أيلول 2025؛ مايكل روبين، "هل يمكن أن تحدث مذبحة في لندن؟" ٤٨. عمران ملا، "منتدى التأثير الإسلامي: إطلاق مجموعة جديدة بدعم رفيع المستوى"، ميدل إيست آي، ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٥؛ رقيب إحسان، "طائفية أنس ساروار السامة هي مستقبل بريطانيا متعددة الثقافات"، صحيفة التلغراف، ٢٩ أبريل ٢٠٢٥. ٤٩. بريطانيا "أول

دولة إسلامية تمتلك أسلحة نووية" في عهد حزب العمال، بحسب مرشح ترامب لمنصب نائب الرئيس، صحيفة التلغراف، ١٦ يوليو ٢٠٢٤. ٥٠. هـ. ميشرون، الغضب والنسيان، الفصل ٤، "الجزائر وبلجيكا، على مفترق الطرق". ٥١. "حزب "الإسلام" يأمل أن تصبح بلجيكا يوماً ما دولة إسلامية"، آر تي بي إف، ٢٩ أكتوبر ٢٠١٢؛ فيليب كارلوت، "في مولينبيك، عضو المجلس كالاندار متورط مع منشورات متطرفة جديدة: "أنا لست إسلاميًا""، RTBF، 18 فبراير 2025. 52.آن روفان، "في بلجيكا، إمام يتلو سورة من القرآن في برلمان بروكسل"، لو فيغارو، 19 فبراير 2024. 53. جان بيير مارتن ولورانس ديهوندت، "لا مكان لله في فصلي الدراسي: تحقيق في عزلة المعلمين في مواجهة صعود الإسلام السياسي"، راسين، 2024؛ آلان ديستيكس، "وراء نقل مباراة بلجيكا وإسرائيل، تصاعد معاداة السامية في بروكسل"، لو فيغارو، 19 يوليو 2024. 54. "مجلة فرنسية تنشر "رحلة إلى بلجيكا"، مقال نقدي عن الإسلام في البلاد: ما هي حججه؟" 55. ستيف تينري، "ألمانيا: قائد شرطة برلين ينصح اليهود

والمثليين بتوخي الحذر في 'أحياء معينة'"، لو فيغارو، 19 نوفمبر/تشرين الثاني 2024. 56. إيلوي باسوت، "الصراع الإسرائيلي الفلسطيني: هذه اللافتات المقلقة التي رفعها الإسلاميون في مسيرات مؤيدة لفلسطين"، لو فيغارو، 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2023؛ مايول ألديبير، "الخلافة هي الحل: في ألمانيا، الطبقة السياسية غاضبة بعد مظاهرة إسلامية"، لو فيغارو، 30 أبريل/نيسان 2024؛ توماس يوستاش، "ألمانيا: أكثر من 2000 إسلامي يتظاهرون في هامبورغ للمطالبة بإقامة الخلافة"، لو جيه دي دي، 13 أكتوبر/تشرين الأول 2024. 57. "جدل في ألمانيا بعد محاضرة ألقاها أحد أعضاء طالبان في مسجد"، لو فيغارو، 20 نوفمبر/تشرين الثاني 2023. «شابة كردية، لاجئة في ألمانيا هربت من داعش، تواجه جلادها في الشارع»، قناة BFM TV، 2018. 58. بالوما أوزو، «الدنمارك تتبنى قانونًا مثيرًا للجدل يحظر حرق المصاحف»، صحيفة لو فيغارو، 7 ديسمبر/كانون الأول 2023. 59. رنا طه، «محكمة سويدية تدين حارق المصاحف بارتكاب جرائم كراهية»، دويتشه فيله، 2

مارس/آذار 2025؛ فريدريك فو، «أعمال شغب في السويد بعد حرق المصاحف»، صحيفة لو فيغارو، 19 أبريل/نيسان 2022؛ «السويد: أربعة أشهر سجنًا لناشط يميني متطرف بعد حرق نسخ من القرآن»، صحيفة لو فيغارو، 5 نوفمبر/تشرين الثاني 2024. 60. هـ. ميشيرون، الغضب والنسيان. ٦١. فيرجيني ديبانت، تعليقًا على هجوم شارلي إيبدو، "الرجال يذكروننا بمن يملك زمام الأمور وكيف"، مجلة "ليز إنروكبتابل"، ١٧ يناير ٢٠١٥. ٦٢. ناتالي ديليا ديكارد وديفيد جاكوبسون، "المتشدد المزدهر: الثراء والأصولية والتطرف في المجتمعات الإسلامية في أوروبا الغربية"، مجلة "سوشيال كومباس"، المجلد ٦٢، العدد ٣، ٢٠١٥، الصفحات ٤١٢-٤٣٣. ٦٣. أوليفييه غالاند وآخرون، "الإغراء الراديكالي: دراسة استقصائية لطلاب المدارس الثانوية"، مطبعة جامعة فرنسا، ٢٠١٨، الفصل ١، "التطرف موضع تساؤل"، الصفحات ٣٥-٧٩. ٦٤. إدوي بلينيل، "للمسلمين"، دار "لا ديكوفيرت"، ٢٠١٤. ٦٥. رأينا في الفصل السابق أن الآراء المتطرفة لم تكن أقلية في العالم الإسلامي. ٦٦. ورد في كريستيان جيلين، "أول مسح

لحقوق الإنسان في روسيا السوفيتية (نوفمبر ١٩١٨ - مارس ١٩١٩)"، مجلة لو ديبا، ١٩٨٤/٤ العدد ٣١، ١٩٨٤، الصفحات ١٧٨-١٩٢. ٦٧. م. علي كتاني، الأقليات المسلمة في العالم اليوم، دار مانسيل للنشر، ١٩٨٦، الصفحة ١٧. ٦٨. أ. هان، تاريخ الجهاد، الفصل ١١، "داعش وجهاد الإرهاب". ٦٩. كارل ياسبرز، الذنب الألماني، ترجمة. بقلم جان لويس إيموند، منشورات مينوي، 1947. 70. ماري تيريز أورفوي، الإسلام والإسلاموية: أخوان عدوان أم توأمان سياميان؟، أرتيج، 2021. 71. "ملايين المتظاهرين ضد الحرب في العراق"، لوموند، 15 فبراير 2003. 72. جمال دبوز، "فرنسا أمي. لا تمسوا أمي"، فرانس إنفو، 18 يناير 2015؛ إيمانويل تود، من هو تشارلي؟ كراهية الأجانب والطبقة الوسطى الجديدة، سوي، 2015. 73. محمد بجرفيل، "ستسود الإرادة الحرة لأغلبية المسلمين في فرنسا"، لا كروا، 26 يناير 2021. 74. للحصول على مثال على قلب الاتهام حيث يشكو المؤلفون من الإسلاموفوبيا دون فحص الحالة المزرية للعالم الإسلامي لثانية واحدة، انظر عبد العالي حجاج وآخرون، الإسلاموفوبيا: كيف تصنع النخب

الفرنسية "المشكلة الإسلامية"، لا ديكوفيرت، "بوكيت / مقالات"، 2016؛ كوينتين جيرار، "إمام مسجد باريس يحتج: المسلمون سئموا من استهدافهم عند ذكر اسم صامويل باتي"، صحيفة لو جورنال أوف ديربي، 19 أكتوبر/تشرين الأول 2025. 75. ب. روجيه (محرر)، الأراضي المحتلة للإسلام السياسي، انظر الفصلين 2 و5. 76. إتيان ديلارشيه، في قلب الإسلام الفرنسي: ثلاث سنوات من التغلغل في 70 مسجدًا، منشورات دو روشيه، 2024. 77. جماعة الإخوان المسلمين والإسلام السياسي في فرنسا، 20 مايو/أيار 2025. 78. يونس بوسنة، "في الإسلام، بدأ مفكرو اللاهوت الجديد إعادة تأسيس ثورية"، صحيفة لوموند، 20 نوفمبر/تشرين الثاني 2022. 79. جاكلين شابي، مؤرخة، "حان الوقت للمسلمين لصنع التاريخ"، شارلي إيبدو. 7 سبتمبر/أيلول 2022. 80. شمس الدين حافظ، رئيس جامع باريس الكبير، "الإسلام لا يتعارض مع الجمهورية"، صحيفة لو باريزيان، 23 نوفمبر/تشرين الثاني 2023. 81. غوتييه فايان، "ارتفاع حالات "إلغاء التعميد" لا يُقلق الكنيسة"، صحيفة لا كروا، 16 يونيو/حزيران

2019. 82. انظر، على سبيل المثال، توجيه السعودي الفوزان بضرورة إعلان المرء دينه علنًا على مواقع السلفية: https://salafislam.fr/lexposition-de-religion-pays-mecreants-rapportmusulman-vit-pays-sheikh-al-fawzan/. 83. انظر شهادة باتريك ويل في بودكاست "الإسلاموية في فرنسا"، إذاعة فرانس إنتر، 10 فبراير/شباط 2024 (من الدقيقة السادسة). 84. القرار رقم 1327 الصادر عن الجمعية البرلمانية لمجلس أوروبا بشأن جرائم الشرف المزعومة. 85. فلورنس بيرجود-بلاكيلر، جماعة الإخوان وشبكاتها: التحقيق، مقدمة بقلم جيل كيبل، أوديل جاكوب، 2023؛ ألكسندر ديل فالي وإيمانويل رازاوي، المشروع: استراتيجية الإخوان المسلمين للغزو والتغلغل في فرنسا والعالم، باريس، دار لارتيلور، 2019. 86. استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي خارج العالم الإسلامي، المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاجتماعية والاقتصادية (إينسكو)، نوفمبر 2000. 87. مقابلة مع الحسن الثاني أجرتها آن سنكلير، 1993. "خلال مقابلة بُثت على

قناة TF1، صرّح الملك الحسن الثاني: "يجب ألا تتجه الهجرة نحو الاندماج"، صحيفة لوموند، 23 يوليو 1991. 88. كريستوف لوسيه، "عام 1989: في كريل، قضية الحجاب تُدخل الإسلام في النقاش"، صحيفة سود أويست، 11 أغسطس 2019. 89. فريدريك بوبان، "الشتات الجزائري في فرنسا في قلب استراتيجيات نفوذ النظام"، صحيفة لوموند، 13 يناير. 2025؛ كزافييه درينكورت، فرنسا الجزائر، العمى المزدوج، منشورات المرصد، 2025. 90. بيير بوسيف، "اندماج الأتراك يحاصر برلين ضد أنقرة"، لو فيغارو، 13 فبراير 2008؛ "تدخل الرئيس التركي في الانتخابات الألمانية"، لا كروا، 18 أغسطس 2017. 91. جون تولان، تاريخ جديد للإسلام: القرون من السابع إلى الحادي والعشرين، تالاندييه، 2022، خاتمة "المسلمون والإسلام في الغرب". 92. كلير كوتش، "لماذا يصوت الأتراك المقيمون في ألمانيا وفرنسا بأعداد كبيرة لأردوغان؟"، لو فيغارو، 17 مايو 2023. 93. ريمي كارسيلس، "الأتراك في الخارج: هل اقتنع الناخبون بأردوغان؟" ٩٤. "ما هي آراء المسلمين الفرنسيين حول الصراع الإسرائيلي

الفلسطيني؟"، معهد الدراسات الفرنسية، ١٨
ديسمبر ٢٠٢٣. ٩٥. "المنظور الفرنسي حول
المثلية الجنسية ومكانة مجتمع الميم في
المجتمع"، معهد الدراسات الفرنسية، ٢٤ يونيو
٢٠١٩. ٩٦. حكيم القروي، الإسلام، دين
فرنسي، غاليمار، ٢٠١٨، الفصل الأول، "نظرة
هادئة على المسلمين في فرنسا". ٩٧.
مؤسسة فوندابول واللجنة اليهودية الأمريكية،
أشعة سينية لمعاداة السامية في فرنسا، طبعة
٢٠٢٤. ٩٨. "الفرنسيون، قضية ميلا، والحق في
التجديف"، معهد الدراسات الفرنسية، فبراير
٢٠٢٠. ٩٩. "الحق في التجديف، والرسوم
الكاريكاتورية، وحرية التعبير... هل ما زال
الفرنسيون "شارلي"؟" ١٠٠. "العلاقة
بالعلمانية في سياق مكافحة الإسلاموية وقانون
مكافحة الانفصالية"، معهد الدراسات الإسلامية
الفرنسية (IFOP)، ٢٠٢٠. ١٠١. "الإسلام
والمجتمع الفرنسي"، إيبسوس، ٢٠١٧. ١٠٢.
"استطلاع رأي للمسلمين الفرنسيين حول
قضايا الدين والعلمانية"، معهد الدراسات
الإسلامية الفرنسية (IFOP)، ٢٠٢٣. ١٠٣.
"استطلاع رأي للمسلمين الفرنسيين حول
قضايا الدين والعلمانية"، معهد الدراسات

الإسلامية الفرنسية (IFOP)، ٧ ديسمبر ٢٠٢٣. ١٠٤. يائيل برينباوم وآخرون، "المسارات التعليمية من المرحلة الابتدائية إلى التعليم العالي لأبناء المهاجرين وسكان إحدى المقاطعات ما وراء البحار"، في كريس بوشيمين وآخرون (محررون)، المسارات والأصول، منشورات إينيد، ٢٠١٦، ص ١٧٥-٢٠٢. مع ذلك، يفضل المؤلفون التركيز على فرضية التمييز دون دراسة مواقف السكان تجاه النظام المدرسي. ١٠٥. منيرة ميرزا، وأبي سينثيلكوماران، وزين جعفر، العيش منفصلين معًا: المسلمون البريطانيون ومفارقة التعددية الثقافية، بوليسي إكستشينج، ٢٠٠٧. ١٠٦. "استطلاع رأي: نصف المسلمين البريطانيين يعتقدون أن المثلية الجنسية يجب أن تكون غير قانونية"، صحيفة الغارديان، ١١ أبريل ٢٠١٦. ١٠٧. دوغلاس موراي، الانتحار الغريب لأوروبا: الهجرة، والهوية، والإسلام، ترجمة جوليان فونارو، دار لارتيلور، ٢٠١٨، الفصل ١٤، "نحن عالقون". ١٠٨. جويل كوتيك وجويل تورنمن، "في بروكسل، المؤمنون الشباب أكثر تحيزًا ومحافظة من غيرهم"، لا ليبر بلجيك، ٢٥ مارس ٢٠٢١. ١٠٩. أوليفييه روي، "إعادة

التركيز الكبرى"، لو غران كونتينون، ٢٩ مارس ٢٠٢٤. ١١٠. ألبرت شبير، داخل الرايخ الثالث، ترجمة ميشيل بروتييه، مقدمة بقلم بينوا ليماي، فايارد (بلوريل)، ٢٠١٠، ص ١٣٨. ١١١. كلير دي غاليمبير، الإسلام والسجن، منشورات أمستردام، ٢٠٢٠، الفصل ١، "كيف أصبح الإسلام الدين السائد في السجون الفرنسية"، ص ٢٣-٥٢. 112. حسام الدين ماير، Gefängnisse als Orte der Radikalisierung – und der Prävention؟، Bundeszentrale für politische Bildung، 2018. 113. R. Koopmans، Das Verfallene Haus des Islam، الفصل. 6، "Die schwierige Integration muslimischer Migranten". 114. مولي مور، "السجون مليئة بالمسلمين في فرنسا"، واشنطن بوست، 29 أبريل 2008. 115. ر. كوبمانز، دار الإسلام، "Die schwierige Integration muslimischer Migranten"، الفصل. مقتبس. 116. إلياس وودبريدج، ""أنت لست مثل البقية": التنقل في السجن أثناء البحث عن الإسلام"، التصحيحات (2025)، الصفحات من 1 إلى

11. ١١٧. مالوري شنيولي بوردي، "الصمت... نحن أحياء مع الله"، أرشيف العلوم الاجتماعية للأديان، ١٥٣ | ٢٠١١، ص ١٠٥-١٢١. ١١٨. د. موراي، الانتحار الغريب لأوروبا، الفصل ٣، "الأعذار التي وجدناها لأنفسنا". ١١٩. غونتر جيكيلي، معاداة السامية المعاصرة في فرنسا: بقايا أم ظواهر جديدة؟، هيرمان، ٢٠٢٢، الفصل ٨، "المسلمون الشباب وكراهية اليهود"، ص ٢٢٣-٢٤٨. ١٢٠. م. بيير، تاريخ الجزائر، الفصل ٨، "مئوية الأوهام". ١٢١. "دراسة استقصائية حول أنماط الزواج والمواعدة بين المسلمين"، معهد الدراسات السياسية والاجتماعية (IFOP)، ٢٠١٠. ١٢٢. إيمانويل تود، "ما يقترحه ساركوزي هو كراهية الآخر"، صحيفة لوموند، ٢٦ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٩. ١٢٣. ميشيل تريبالات، الاستيعاب: نهاية النموذج الفرنسي، دار لارتيلور للنشر، ٢٠١٧. ١٢٤. المهاجرون وأحفاد المهاجرين، المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية (Insee)، ٢٠٢٣. ١٢٥. ر. كوبمانز، البيت الإسلامي الساقط، "صعوبة اندماج المهاجرين المسلمين"، الفصل المذكور. ١٢٦. آن هارتونغ وآخرون، "تفضيلات الشراكة لدى الجيل الثاني

البلجيكي: من يعيش مع من؟"، مجلة أبحاث مسار الحياة ١٦.٤ (٢٠١١)، ص ١٥٢-١٦٣. ١٢٧. هيل كولو وتينا هانيمان، "الزواج المختلط بين المهاجرين وذريتهم في المملكة المتحدة: تحليل البيانات الطولية مع المعلومات المفقودة"، دراسات السكان، ٧٣(٢)، ص ١٧٩-١٩٦. ١٢٨. كريستوفر كالدويل، "الإسلام والجنس"، كيف سيغير الإسلام أوروبا، ترجمة يوهان-فريدريك هيل-غيدج، منشورات توكان، ٢٠١٠. ١٢٩. كارينا مود ويان أو. جونسون، "حدود مستمرة: أنماط الشراكة بين أبناء المهاجرين والسكان الأصليين في السويد"، مجلة الدراسات العرقية والهجرة، المجلد ٥١، العدد ١، ٢٠٢٥، ص ١-٢٩. 130. آلان فينكيلكراوت، L'Identité malheureuse، باريس، ستوك، 2013. 131. يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، منشورات الصحوة، 2000. 132. هوغو بوتون وآخرون، "كيف تطور الفصل العنصري في فرنسا؟"، لا نوت. تحليل فرنسا الاستراتيجي، 4/2020، العدد 92، 2020، الصفحات من 1 إلى 12؛ ساكو موسترد، "الفصل الاجتماعي والعرقي في

أوروبا: المستويات والأسباب والتأثيرات"،
مجلة الشؤون الحضرية، 27(3)، 2005،
الصفحات من 331 إلى 348؛ فيديريكو
بيناسي وآخرون، “مقارنة الفصل السكني
للسكان المهاجرين في مناطق حضرية
وحضرية أوروبية مختارة”، الديموغرافيا
المكانية 8.3، 2020، الصفحات من 269 إلى
290. 133. ر. كوبمانز، Das verfallene
Haus des Islam، الفصل. 6، "Die
schwierige Integration muslimischer
Migranten". 134. ماري ليفين ميشالك،
""ابني سألني إذا كان اسم بيير موجود": أم
تتحدى إيمانويل ماكرون"، لوفيجارو، 20 أبريل
2021. 135. بول شيفر، Die
Eingewanderten. التسامح في عالم بلا
حدود، هانسر، 2008. 136. ماري هيلين
ميوتون، "لا تنجب ثلاثة، أنجب خمسة
أطفال!"، لو تان، 23 مارس 2017. 137.
"الإسلام هو الدين الأول والأكثر انتشارًا في
العالم"، عكاظ، 2011 (
https://www.okaz.com.sa/article/442
736). ١٣٨. تغريدة بتاريخ ٧ يناير ٢٠٢٥،
الساعة ١٢:٠٧ مساءً

https://x.com/mohammed_hijab/statu
s/1876586543743480308 .١٣٩ آن لور
دوبون، أطلس الإسلام: الأماكن والممارسات
والأيديولوجيات، أوترمون، ٢٠١٤. ١٤٠. جيرار
دافيت وفابريس لوم، إن شاء الله: كشف
النقاب عن أسلمة الإسلام، فايارد، ٢٠١٨. ١٤١.
أنتوني ليور، "سين سان دوني: مكافأة ولاء
بقيمة ١٠٠٠٠ يورو لموظفي الخدمة المدنية، ها
نحن ذا"، لو باريزيان، ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٠. ١٤٢.
بلاندين شيليني بون، "التصويت الإسلامي في
فرنسا (٢٠٠٢-٢٠٢٢): من ناخبين أسيرين إلى
ناخبين مأسورين "الناخبون" مراجعة قانون
الأديان، العدد 16، 2023، الصفحات 83-104.
143. المسلمون الفرنسيون وغزة. مع حكيم
القروي | مقابلات جيوسياسية (
https://www.youtube.com/watch?
v=KBzy7Hd0sk4)؛ حكيم القروي، الإسلام
الفرنسي ممكن، معهد مونتين، 2016. 144.
لويس هوسالتر، "اتفاقية 1968 هي رئيس
الجمهورية": ماكرون يصحح بايرو وريترولو
بشأن الجزائر، لو فيغارو، 3 مارس 2025.
145. "تزايد عدد المسلمين في أوروبا"، مركز
بيو للأبحاث، 2017. 146. موريس باريس،

العائلات الروحية المختلفة في فرنسا، باريس، إميل بول فرير، 1917. 147. ريمون آرون، «التعريف الليبرالي للحرية، الجزء الأول: حول كتاب فريدريك هايك "دستور الحرية"»، المجلة الأوروبية لعلم الاجتماع / الأرشيف الأوروبي لعلم الاجتماع / الأرشيف الأوروبي لعلم الاجتماع، المجلد 2، العدد 2، 1961، الصفحات 199-218. 148. كريستوف عياد، «بالنسبة لرئيس المخابرات الإقليمية، "الخطران الرئيسيان على التماسك الوطني هما تهريب المخدرات والانفصالية الإسلامية"»، لوموند، 23 ديسمبر 2024. 149. لورينزو فيدينو، صعود الإسلام السياسي في العالم الغربي، فوندابول، مايو 2022. 150. «إلى أصدقائي الذين يغشون في نظام تقسيم المناطق المدرسية»، ليبراسيون، 18 سبتمبر 2017؛ ستيف تينري، «أيمريك كارون يقتحم مدرسة في فرساي لإيصال طفله، والشرطة تتدخل»، لو فيجارو، 23 سبتمبر 2023. 151. إرنست رينان، جورنال دي ديبا، 19 مايو 1883. 152. فرانسوا هيران، الهجرة: الإنكار الكبير، سوي، 2023. 153. كاران ميرش، "من احترام المعتقدات إلى جريمة التجديف؟ رد على

فرانسوا هيران"، لو دي دي في، 15 مايو
2021. 154. في برنامج "Ça ira!" الذي بثته
صحيفة لومانيتيه في 27 مارس 2025، فضل
عضو برلماني فرنسي من أقصى اليسار
الحديث عن "تغيير أنثروبولوجي كبير" في
الشعب الفرنسي. 155. أوغست دي شاتيلون،
Promenade à l'île Saint-Ouen-Saint-
Denis (بدءًا من باتينيول)، مطبعة بيلوي،
1857، الصفحات من 3 إلى 16؛ كلارا
هيدالغو، "سان دوني: عالمات آثار ضحايا
للتحرش بالقرب من موقع تنقيب"، لوفيجارو،
19 يوليو 2023. 156.ألبرت سيمونين،
اعترافات طفل من لا شابيل، غاليمار، 1977؛
ستيفان كوفاكس، "في باريس، أصبح أحد
الأحياء معادياً للنساء"، لو فيغارو، 19 مايو
2017. 157. "عمدة مرسيليا يوجه رسائل
قوية وحاسمة خلال زيارته للجزائر"، TSA، 15
مايو 2024. 158. "المسلسل الإسرائيلي
فوضى: الإنتاج يتخلى عن التصوير في مرسيليا
"لأسباب أخرى غير سلامتها"، لو باريزيان، 4
سبتمبر 2025؛ أنطوان مارغريت، "جريمة قتل
"تحذيرية" محتملة في مرسيليا: هل فرنسا
على طريق التحول إلى دولة مخدرات؟"،

ماريان، 14 نوفمبر 2025. 159. كاميل ليمونييه، "أعياد الميلاد الفلمنكية"، في حكايات فلامنكية ووالونية، إرنست فلاماريون، 1886؛ «المسجد الكبير في بروكسل: كتب مدرسية تدعو إلى الجهاد المسلح، بحسب تقرير صادر عن منظمة OCAM»، BX1، 2018؛ جان كواتريمر: «على بُعد 200 متر من الساحة الكبرى، أنت في المملكة العربية السعودية»، لو سوار، 1 سبتمبر 2016. 160. ماكس لوكلير، «جولة في إنجلترا. برمنغهام، جمهورية ذات حكم رشيد»، مجلة العالمين، الفترة الثالثة، المجلد 106، 1891، الصفحات 449-466؛ فيليب برنارد، «إنجلترا في فخ النزعة الجماعية المدرسية»، لوموند، 30 يونيو 2014؛ «برمنغهام، خطبة صادمة لإمام: "هكذا تُرجَم الزانيات"»، L’Unione Sarda، 3 سبتمبر 2023. 161. أرنو دي لا غرانج، «نائب بريطاني محافظ يستسلم تحت تهديد الإسلاميين»، Le Figaro، 2 فبراير 2024؛ ستيفن دايزلي، «لماذا غيرت رأيي بشأن التعددية الثقافية»، The Spectator، 17 مايو 2025. 162. توم بول وشارلوت ويس، «المعلم الذي عرض رسماً كاريكاتورياً للنبي

محمد لا يزال مختبئاً بعد 3 سنوات»، The
Times، 27 يناير 2024؛ جو بينكستون، "زواج
ابن العم الأول له "فوائد"، كما تقول توجيهات
هيئة الخدمات الصحية الوطنية على الرغم من
خطر العيوب الخلقية"، التلغراف، 28 سبتمبر
2025. 163. "فيلم بريطاني عن النبي محمد
يثير احتجاجات في المملكة المتحدة"، فرانس
إنتر، 8 يونيو 2022. 164. جان بيير
ستروبانتس، "تصريحات فريتس بولكستين عن
اليهود تسبب فضيحة"، لوموند، 8 ديسمبر،
2022. 2010. 165. جوردون راينر، "كشف:
كيف نظم الغوغاء المؤيدون للفلسطينيين عبر
تطبيق WhatsApp لمطاردة اليهود في جميع
أنحاء أمستردام"، التلغراف، 8 نوفمبر 2024.
166. ألينا كواست، "Musikunterricht
kann nicht stattfinden، weil man im
Islam nicht Sint"، Die Welt، 25 يونيو
2025. 167. فلوريان كيستلر، "دير فال
«أوزيل إيناسيو-ستيتش»، دير شبيغل، 21
يونيو 2025.

خاتمة

1. ألكسيس دو توكفيل، الديمقراطية في أمريكا، المجلد 3، باجنير، 1848. 2. يوفال نوح هراري، سابينس: تاريخ موجز للبشرية، ترجمة بيير إيمانويل دوزا، ألبين ميشيل، 2015. 3. فولتير، «عشاء كونت بولانفيلييه»، في حوارات فلسفية، عند علامة الإناء المكسور - مجموعة سكريبت مانينت رقم 43، 1929، ص 9-57. ٤. شاتيل نواف طاقة، "في العالم العربي، يُساء فهم ترجمة الكلمة الفرنسية 'الإسلاموية'"، صحيفة لوبينيون، ٦ ديسمبر ٢٠٢٠. ٥. مالك شبل، بيان من أجل إسلام التنوير: ٢٧ مقترحًا لإصلاح الإسلام، هاشيت ليتراتور، ٢٠٠٤. ٦. إسماعيل أوربان، الجزائر الفرنسية: السكان الأصليون والمهاجرون. ١٨٦٢. مقدمة بقلم ميشيل ليفالوا، سيغييه، ٢٠٠٢، ص ٥٢-٥٤. ٧. علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ترجمة من العربية بقلم عبدو فلالي أنصاري، لا ديكوفيرت، ١٩٩٤. ٨. آن ماري ديلكامبر. ٩. غوستاف فلوبير، مراسلات إلى لويس بوييه، ١٩ ديسمبر ١٨٥٠. ١٠. مقتبس في حامد بوزارسلان، تاريخ تركيا: من الإمبراطورية إلى يومنا هذا، الفصل

٧، "من إنسانية التنظيمات إلى الداروينية الاجتماعية"، تالاندييه، ٢٠١٣، ص ٢٠٣-٢٢٢. ١١. أدريان كانديارد، "طريقان مسدودان لمفارقة". فهم الإسلام. أو بالأحرى: لماذا لا نفهم شيئًا عنه، فلاماريون، ٢٠١٦، ص ١٧-٤٤. ١٢. فولتير. عشاء كونت بولانفيلييه. ١٣. المرجع نفسه. ١٤. الردة. يوسف القرضاوي. ٧. ١٥. انظر أعمال ماجد عكاشة. ١٦. بويان تميمي عرب وعمار مالكي، إيران: مجتمع علماني، متنوع، ومنشق. فوندابول، يوليو ٢٠٢٥. ١٧. غيوم كوشيه، كيف توقف عالمنا عن كونه مسيحيًا: تشريح الانهيار. باريس، سوي، ٢٠١٨. ١٨. إريك زمور، لم تُقم القداس: من أجل إحياء يهودي مسيحي. باريس، فايارد، ٢٠٢٥. ١٩. ريتشارد دوكينز، "أنا مسيحي ثقافي"، إل بي سي، ١ ديسمبر ٢٠٢٤. ٢٠. إرنست رينان، "الإسلاموية والعلم". ٢١. إدموند أبوت، الفلاح: ذكريات من مصر، باريس، هاشيت، ١٨٦٩. ٢٢. برنارد لويس، الإسلام والعلمانية: ميلاد تركيا الحديثة، فايارد، باريس، ١٩٨٨. ٢٣. المرجع نفسه. ٢٤. إرنست رينان، جريدة المناقشات، ١٩ مايو ١٨٨٣. ٢٥. كريستوفر كالدويل، ثورة أمام أعيننا: كيف سيغير الإسلام فرنسا وأوروبا، الفصل. ٧.

"أزمة الإيمان في أوروبا"، منشورات توكان، ٢٠٠٩. ٢٦. آن بينيديكت هوفنر، "قبل عشر سنوات، اندلعت "جدلية ريغنسبورغ"، لا كروا، ١٢ سبتمبر ٢٠١٦. ٢٧. "إيران تشن حملة قمع جديدة على الجامعات"، إذاعة أوروبا الحرة / إذاعة الحرية، ٢٦ أغسطس ٢٠١٠. ٢٨. محمد علي أمير معزي وغيوم داي (محرران)، تاريخ القرآن؛ محمد علي أمير معزي وجون تولان (محرران)، محمد المؤرخين. ٢٩. كارل ر. بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، المجلد ١، صعود أفلاطون، ترجمة. بقلم جاكلين برنارد وفيليب مونود، باريس، سيويل، 1984. 30. جان سيفيليا، عندما كان الكاثوليك خارجين عن القانون، بيرين، 2005. 31. جان فرانسوا ريفيل، كيف تنتهي الديمقراطيات، باريس، جراسيت، 1983. 32. تشارلز لويس فولون وآخرون، قاموس مالرو. 33. ألفونس دي لامارتين، رحلة إلى الشرق. الطبعة تقديم و إعداد و شرح سرجة موسى. باريس، غاليمار، كول. "Folio classique"، 1993 (الطبعة الكاملة الأولى 1835